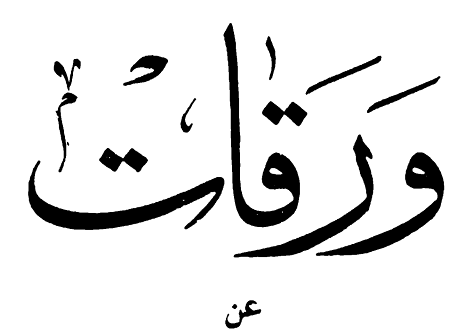
حسن حسني عبد الوهاب



عن

الحضارة العربية بافريقية

التونسية

القسم الثالث

جمع وإشراف

محمد العروسي المطوي

الناشر
مكتبة المنار - تونس

١٩٧٢

ورقـــــات

عن

الحضارة العربية بافريقية

التونسية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

عندما اختـار الله الى جواره الأعلى أستاذَنا المرحوم حسن حسني عبد الوهاب يوم ١٨ شعبـان ١٣٨٨ الموافـق ٩ نوفمبر ١٩٦٨ ، لم يكن هذا السفر (القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية) إلاّ حلما مرجوّا ، وأملا نتمنّى تحقيقه ؛ فقد كنّا ـ ثلّة من الاصدقاء والمحبّين ـ نرجو بالحاح كبير من العلّامة المرحوم أن يصدر قسما ثالثا لهذا الكتاب الذي لم يؤلف على منواله من قبـل . وكنّا نشير خاصة الى البحوث والدراسات القيّمة التي نشرها باللغة الفرنسية في مختلف المجلّات، أو ألقاها في مختلف المحافل العلمية. وكان ـ رحمه الله ـ يبدي الموافقة، ويشاركنا في أمل تحقيق الرّغبة. وبالرغم من تقدُّم العمر فما كنّا نتصوّر أن الاجل المحتوم سوف يوافيه قبل أن نحتفل معـه بصدور الرّافد الثالث لهذا العمل الكبير . ذلك أن كبر السّن وضعف الجهد لم يحولا يوماً بينه وبين المطالعة والمراجعة ، والتعليق والتقييد ؛ فقد كان ـ الى آخر عهده بالحياة ـ لا يجد التسلية إلاّ في مطالعة كتاب ، أو تصفّح مخطوط . ولم يكن الونى والوهن يُبعدانه عن تسليته المفضّلة

وهوايته الدائمة . وكان القسم الأخير من بحثه عن المهدية آخر ما كتبه من البحوث، إذ لم يكن بين إنهاء كتابته و بين انتقاله الى الرفيق الأعلى إلا أيام معدودات .

و بعد أن حُمَّ القضاء لم يكن بدّ من إنجاز تلك الرغبة . لهذا عقدت العزم على جمع ما تناثر من البحوث والدراسات مما كوّن هذا القسم الثالث من كتاب الورقات . وقد استعنت في ذلك بإخوان من محبّي الفقيد الكبير والمخلصين له ، فرجوت منهم التفضل بتعريب الفصول التي كتبت باللغة الفرنسية فأستجابوا لذلك وفاءً منهم لروح الفقيد ، وتقديراً منهم لأهمية العمل الذي قام به طيلة حياته الخصبة بالعمل الجدّي والانتاج المتواصل في سبيل إبراز معالم وخصائص الحضارة العربية بافريقية التونسية . وهؤلاء الاخوان هم الاساتذة : فرحات الدشراوي ، حمّادي الساحلي ، البشير بن سلامة ، ومصطفى زبيس . فلهم وافر الشكر وبالغ التقدير .

وكان منهج الاختيار لمواد هذا القسم يتماشى مع الهدف العام الذي رسمه المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في القسمين اللذين أشرف على نشرهما بنفسه . كما أني سلكت في بعض تلك الفصول الطريقة التي سلكها في بعض فصول القسمين الاول والثاني عندما كان يعمد الى تغيير صبغة البحث أو الدراسة من أسلوب المحاضرة التي

تُلْقَى على المسامع أَو من صيغة التقديم الذي يصدّر أَو يقدّم به كتابا .

وما زلت أذكر أنني لما كنت في سفارتنا في « جدّة » اخترت المقدمة التي كتبها في مؤلفه عن الامام المازري ، ونشرتها مستقلّة في مجلة « المنهل » التي تصدر في جدّة من المملكة العربية السعودية باشراف الصديق الاستاذ عبد القدوس الانصاري ؛ فنالت تلك البادرة الرضى والاستحسان من فقيدنا الكبير ، مما جعلني أَفتتح بها هذا القسم الثالث من «الورقات» خاصة أَن الدراسة تتعلق بالسند العلمي الاسلامي بافريقية، مما يتمم ما نشر في القسمين الأَولين عن نشأة علوم العربية وعن الأَدب والطبّ وغير ذلك بافريقية .

وكان منهج العمل في نشر هذا القسم يقارب المنهج الذي سلكته عند نشر كتاب « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » محاولا ـ قدر الامكان ـ تصحيح النص ، والتثبت من مراجعه، مضيفا حواشي أخرى ميّزتها بهذه العلامة (×) عن الحواشي التي كانت بأصل الدراسة ، منبّها أَحيانا الى أَشياء إذا دعت اليها الحاجة .

وقد فَضَّلْتُ اختيار العناوين التي عرّبها المرحوم بنفسه لبعض الفصول التي نشرها باللغة الفرنسية والتى أُثبتتها خاصة في ترجمة حياته ، أُوجدتها في مظانّ أُخرى .

أما عن ترجمة حياته فقد رأيت إثبات ما كتبه هو نفسه عن حياته مفضلا إرجاء المزيد من التفصيل والتحليل إلى فرصة أخرى لعلها تكون عند تقديم « كتاب العمر » الذي شرفني - برّد الله ثراه - بانجازه وإتمامه ، مكتفيا ببعض التعاليق الضرورية حول ما جاء في تلك الترجمة .

والله أسأل أن يحقق رجاءه وأمنيته بفضله تعالى ، ومنّته .

محمد العروسي المطوي

تونس في ٢ ربيع الثاني ١٣٩١ الموافق

١٦ جوان ١٩٧١

المرحوم حسن حسني عبد الوهاب

يترجم لنفسه [1]

الاسم : حسن حسني عبد الوهاب ـ وهو اللقب العائلي ـ نسبة الى جدّي عبد الوهاب بن يوسف التجيـبي الذي كان يدير الحرس الأَهلي للبلاد « وهم الحوانب » ويرأَس التشريفات في مدة البايات الحسينيين من عهد الباي محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي الى ايام المشير احمد باي الاول .

وتقلّب بعده ابْنُه والدي (صالح بن عبد الوهاب) في عدة وظائف

---

(١) الترجمة المتداولة للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب هي التي كتبها بنفسه ، وأعطى نسخا منها أو استنسخها منه من طلبها مع اختلاف قليل بينها غالبه في الصياغة الشكلية . وقد نشرت هذه الترجمة في مناسبات مختلفة ؛ انظر مثلا : المجمعيون « القاهرة / ١٩٦٦ » ومجلة الفكر « ديسمبر ١٩٦٨ » والصفحة الثقافية لجريدة العمل « ٨ نوفمبر ١٩٦٨ » ونشرية « جائزة الرئيس بورقيبة ـ الدار التونسية للنشر ١٩٦٩ » وانظر خاصة « حوليات الجامعة التونسية » (عدد ٦ /١٩٦٩) إذ قام الاستاذ رشاد الحمزاوي بمقارنة ثلاثة نسخ .

وكان في عصره من الافراد التونسيين القلائل ، إذ انه تعلّم بجامع الزيتونة ، ودرس بعد ذلك اللغة الفرنسية بمكتب الرهبان (Ecole des fréres) الواقع بنهج جامع الزيتونة الآن (نهج الكنيسة سابقا) حتى أتقنها جيدا ، فأضافه « الفريق حسين » وزير الخارجية إليه ، وصار الوالد يصاحبه كمترجم في السفارات المتنقلة التي كانت ترسلها الدولة التونسية الى اروبا كلما حصل خلاف مع الممالك الافرنجية (ايطاليا قبل الوحدة ، وفرنسا وانكلترا وغيرها) في عصر كانت رحلة التونسيين الى تلك البلاد قليلة جدا من ١٨٦٩ الى ١٨٨٠ . وكان الوالد المرحوم مولعا بفن التاريخ (والعرق دساس، كما في الحديث النبوي) وله تأليف في أخبار مملكة المغرب الأقصى لم يطبع بعد.

وتقلب الوالد ـ بعد الحماية ـ في جملة وظائف منها عمل الأعراض (قابس) والمهدية . وتوفى آخر سنة ١٩٠٤ .

أما ابنه حسن حسني فانه ولد آخر شعبان ١٣٠١ (٢١ يونية ١٨٨٤) بنهج عبدالوهاب رقم ٢٥ ، ووالدته « حنيفة بنت علي بن مصطفى آغة قيصرلي» كان أبوها أكبر أعوان (معين أول) للوزير خير الدين باشا .

وأول دراستي كانت في كتّاب بنهج سيدي الموحّد ـ بين نهج الوادي و نهج بوخريص ـ حسب العادة المتبعة حينئذ لصغار

التونسيين . ثم تحولت الى المدرسة الابتدائية بالمهدية ، وتلقيت هناك حفظ الرّبع الأخير من القرآن الكريم . كما ابتدأت تعلّم اللغة الفرنسية.

ولما انتقل الوالد من المهدية الى تونس دخلت اول مكتب فرنسي لائكي بالحاضرة بنهج السويد . ونلت شهادة العلوم الابتدائية ١٨٩٩ فالتحقت بالمدرسة الصادقية وزاولت بها العربية والترجمة . ثم قصدت باريس وانتظمت في سلك تلاميذ « مدرسة العلوم السياسية » وتابعت التعلّم بها. ومن أساتذتها « دي منتاي / De Monteil ».

وفي الاثناء كنت أحضر محاضرات الحكيم « شاركو / Charcot » في تحليل الأخلاق والنحائز والطبائع . وتوفيّ الوالد آخر سنة ١٩٠٤ ، فعدت الى البيت في حضرة تونس ، وانخرطت بعد في سلك موظفي « إدارة الفلاحة والتجارة » في قسم « أملاك الدولة » آخر سنة ١٩٠٥ .

وبعد خمس سنين عيّنت رئيسا لادارة غابة الزياتين للشمال التونسي سنة ١٩١٠ .

وفي أثناء الحرب الكبرى الاولى التحقت بادارة « المصالح الاقتصادية / Services Economiques » في سنة ١٩١٦ بصفة « رئيس قسم » وفارقتها لرئاسة « خزينة المحفوظات التونسية / Archives Générales » في سنة ١٩٢٠ ، وقد استفدت كثيرا من هذا العمل حيث اتيح لي الاطلاع على مجرى أحداث التاريخ التونسي منذ الفتح التركي

وبعده . ولا يخفى أن خزنة المكاتيب الدولية ـ كما كانت تسمّى ـ هي من محاسن مؤسسات الوزير خير الدين حين مباشرته لشؤون الدولة التونسية . وأهم عمل قمت به هناك هو أني وضعت لها جهازا تاما لفهرست محتوياتها في جذاذات محفوظة في صندوق خاص « Fichiers » وهو المعمول به الى الآن ، ولم يكن ذلك موجودا بها .

وفي سنة ١٩٢٥ [١] عيّنت عاملا (واليا) على المثاليث ، ومقر الادارة « جبنيانة » . وكانت تلك الناحية تابعة لولاية صفاقس [٢] ولم يعتن بمصالحها منذ احقاب توالت عليها ، فسعيت جهدي في إقرار اهاليها بالارض لتعميرها وبإيجاد عدة مكاتب ابتدائية ، واحداث طرقات معبدة ، وتزويد القرى بالماء الصالح للشراب ، وتنوير مركز العمل ليلا .

وفي آخر سنة ١٩٢٨ [٣] نقلت واليا الى المهدية الفاطمية

---

(١) في الحوليات (١٩٢٠) وهو سهو

(٢) كان المرحوم ح . ح . عبد الوهاب أول « عامل » على المثاليث ؛ (جبنيانة) بعد التقسيم .

(٣) لعل صاحب الترجمة كان يعني تواريخ المباشرة الفعلية للمنصب ؛ لان أمر توليته « عاملا » على المهدية كان بتاريخ جوان ١٩٢٨ وعلى نابل بتاريخ ديسمبر ١٩٣٤ كما أن أمر تعيينه بالادارة المحلية والجهوية كان بتاريخ أوت ١٩٣٨ ».

فاجتهدت في نشر التعليم في القرى والمداشر . وكنت ألقي في كل أسبوع محاضرات في التاريخ الاسلامي وبخاصة في احداث تلك الجهة في محل ناديها ونادي الشبيبة . وأوقفت كتبا كثيرة على مكتبات المدينة الفاطمية .

وفي سنة ١٩٣٥ سميت واليا (عاملا) على الوطن القبلي (نابل وناحيتها) فاهتممت بمصالحها العمومية بقدر الجهد . وأوقفت كذلك من الكتب العربية كثيرا على مركز الولاية وعلى القرى الكبيرة والصغيرة .

وفي سنة ١٩٣٩ عدت للحضرة التونسية بصفة وكيل بـ « الادارة المحلية والجهوية » يعني شؤون الادارة الداخلية للبلاد . وفي أثناء مباشرتي لهذا المنصب أُحِلْتُ على التقاعد لبلوغي السن القانونية بعد اربع وثلاثين عاما من العمل المنهك . لكن الادارة المركزية أبت إلاّ أن تعينني رئيسا لـ « مصلحة الاوقاف » [1] فاجتهدت في الذب عن مصالحها ، ومنع أيدي الطمع من الامتداد الى أملاك الأوقاف وأراضيها الخصبة .

---

(١) كان ذلك سنة (١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م)

وبمجرد انتهاء الحرب الكبرى الثانية من البلاد التونسية انتخبت وزيرا للقلم وهو وظيف يشمل الاشراف على ادارة الشؤون الداخلية للبلاد ، والقيـــام بتحرير المهم من المكاتيب الدولية ومخاطبة ملوك الخارج . وذلك في ٣ ماي سنة ١٩٤٣ ، فشغلت هذا المنصب مع آخر البايات الحسينيين : محمد الأمين .

وتخليت عن هذا المنصب نهائيا في شهر يولية ١٩٤٧ . ومن ذلك الحين انقطعت عن الأشغال الادارية ، وأقبلت على العمل في تاليفي الكبير « كتاب العمر » وكذلك السفر الى الاقطار الشرقية والغربية .

ولما نالت البلاد التونسية الاستقلال، وفارق الموظفون الفرنسيون المصالح الادارية دعيت من جانب الحكومة التونسية الجديدة لرئاسة ما سمي بـ « المعد القومي للآثار والفنون » في سنة ١٩٥٧ . وباشرت هذه المهمة الى عام ١٩٦٢ ، فاقبلت على العمل بها بجد نادر مدة خمس سنوات متوالية . وقد هيأت بعض الشباب للمعاضدة حيث لم يبق من الموظفين الفرنسيين أحد . ويسّر الله في تلك الفينة ان نقلت مصلحة الآثار من محلها القديم « ساباط سوق الفكة » الى دار « حسين الفريق » التي كانت مقراً لقائد الجيش الفرنسي ولأركان حربه بساحة القصر . وبعد ترميم الدار كما يجب اتخذت

بقسمها الاعلى مكاتب الادارة، وبقسمها الاسفل متحفا للفنون الاسلامية. ولم يكن لهذه الفنون أدنى حظ بين الآثار التونسية .

ومن مِنَن الله أن أسّست مدة رئاستي للاثار خمسة متاحف منها أربعة للاعلاق الاسلامية : « متحف علي بورقيبة » في رباط المنستير ، ومتحف « أسد ابن الفرات » برباط سوسة، ومتحف «ابراهيم بن الأغلب» في القيروان، ومتحف «دار حسين الاسلامي» المتقدم الذكر ، ثم مستودع للآثار الكلاسيكية (**Antiquarium**) بقرطاجنة في نفس بيت أحد أعيان الرومان .

وفي تلك المدة نشرتُ في مختلف الجرائد والمجلات فصولا كثيرة ، وحرّضت الباحثين عن الآثار لاخراج ما كتبوه بالعربية والفرنسية ، كما قدمت لمصنَّفاتهم ببعض تمهيدات تاريخية وفلسفية ، وبمقدمات مناسبة، وهي نحو العشرة مؤلفات في شتى الأغراض الاثرية . فهذه خلاصة حياتي الادارية .

●

أمــــا حياتي العلمية :

فقد تم لي المشاركة في غالب مؤتمرات المستشرقين ابتداء من عام 1905 بعاصمة الجزائر. وقدّمت فيه بحـــثا عن الاستيلاء العربي لصقلية[١] وتعرفت هناك بثلة من العلماء المشاركين عربا كانوا أو إفرنجا ، منهم « محمد فريد بك » رئيس الحزب الوطني المصري إذ ذاك ، والشيخ « عبد العزيز شاويش » المشهور ، وهو تونسي الاصل . وصارا من حينئذ من أكبر الاصدقاء ، و « جورج براون » الانكليزي ، وكذا المستر « بيفن / Bivan » و« آمردروز / Amerdros » وفولارس » و « نولدكي » الالماني و« كوديرا » و « ريبيرا / Ribera » و« ميشال آسين بالاثيوس » وثلاثتهم من اسبانيــا ، و « لويس ماسينيون / Louis Massignon » و« ولــيم مرسي » وصديقي المرحـــوم « محمد بن أبي الشنب » وغيرهم كثيرا جدا . وامتدت علاقتي بجميعهم بعد ذلك .

---

(١) عرّب هذا الفصل بهذا القسم من الورقات .

وفي سنة 1908 شاركت في مؤتمر « كبنهاكن » عاصمة الدنمارك . ومن وجوه العلماء الذين تعرفت بهم هناك أوّلا : جلالة الملك « قستاف ادولف » والبارون « ماكس / اوبنهائم » الالماني « وقولد زهير / Goldziher » العالم النمساوي المشهور . والأب « لامنس » والأب « لويس شيخو » اليسوعيين. وقد قمت بمعارضتهما فيما قدّما [١] من البحث حيث وصفا النبيء العربي الكريم بما لا يليق وافتريا عليه . والملاحظ أني كنت المسلم الوحيد في حضور هذا المؤتمر . ولهذا تجاسرا بابداء الطعن على الاسلام جهارا . وكان البحث الذي عزمت على تقديمه هناك باللغة الفرنسية: « مختلف العناصر التي يتكون منها الشعب التونسي [٢] وقد طبع بعد ذلك بتونس سنة 1917 فعدلت عن إلقاء بحثي لمعارضتهما . وكان لمعارضتي للراهبين المتقدمين رنّة كبيرة بين المؤتمرين، وتأييد من جانب عظيم منهم .

وفي عام 1922 شاركت في مؤتمر باريس للمستشرقين الفرنسويين. ثم في المؤتمر المنعقد برباط الفتح بالمغرب سنة 1927 ، ثم في مؤتمر « كمبريدج » بانكلترا ، و « إسطنبول » و « مونيخ » في المانيا . وفي

---

(١) في الحوليات « تقدم » وهو سهو .

(٢) عرب هذا الفصل في هذا القسم من الورقات .

جميعها كنت النائب عن الحكومة التونسية، ودعيت لحضور الندوات العلمية التي دارت بالبندقية في معهد [1] « Comte Cini » وكذلك ملتقى « فيورينسة » بايطاليا للتقارب بين المدنيات والأديان برئاسة الأمير الحسن المغربي الشرفية . وغير ذلك مما يطول تعداده .

ونبت عن الحكومة التونسية في مؤتمر الموسيقى الشرقية المنعقد بالقاهرة في افريل سنة 1932 . وقد كنت تعرفت قبل ذلك في سنة 1914 بالأمير أحمد فؤاد (نجل الخديوي إسماعيل) في نابلي بايطاليا قبل أن يصير ملكا لمصر .

وفي نظري أن الملك فؤاد كان ـ بلا نزاع ـ من أجلّ ملوك المسلمين، ومن أقواهم عزيمة وحبا لجمع كلمة العروبة والرغبة الصادقة في الدفاع عن الحضارة الاسلامية ، مع الذكاء الوقاد الذي خصه الله به ، والثقافة الواسعة . ولا يخفى أنه من حين استقر أبوه إسماعيل باشا في بلاد

---

(١) في الحوليات « عهد » وهو سهو ، ومعهد كونت شيني أسسه سنة 1931 « فيكتور يوشيني » احد الاثرياء الكبار بالبندقية تخليدا لذكرى وفاة ولده ، وهو معهد للدراسات والبحوث ، ويوجه عناية خاصة لبلدان الشرق الاوسط وعلى وجه الخصوص ما يتصل بالعلاقات التاريخية بين البندقية وتلك البلدان / عن الموسوعة الايطالية .

إيطاليا ـ بعد التنازل عن الملك ـ انخرط البرنس أحمد فؤاد في المدارس الحربية هناك. ودرس بها إلى أن نال بكدّ يمينه رتبة أميرالاي(Colonel) في الخيالة بلا محاباة ولا مراعاة لاصالتـه . وكان يحسن اللغـة الايطالية كأحد أبنائها ، وكذا اللسان الفرنسي مع نبرة إيطالية واضحة للسامع .

وقد سألني مرة ـ تغمده الله برحمتـه ـ ونحن نتغدّى على مائدتـه بقصر القبـة بحضر وزيره الاكبر « محمد محمـود » عن حالة المغرب ، وتقسيماته ، ونظامه الاداري ، فأخـذت في الوصف بما يناسب المقام . واشتغلت بالكلام عن الطعام ، فالتفت الي وقال :

ـ حملتك مشقة الكلام كثيرا فلم تأكل إلا قليلا .

فأجبته بقولي :

ـ يا أفندينا . موائد الملوك إنمـا هي للشرف لا للعلف .

فانبسط منها كثيرا . وسالني مرة اخرى :

ـ كيف وجدت مصر ؟

فكان جوابي :

ـ يا أفندينـا . سئل أبو العباس المقّـري المغربي مصنّف كتاب « نفح الطيب » عما شاهده بمصر حين زارها فأجاب : (من لم يزر مصر لا يعرف عز الاسلام) وأنا أقول بقوله ولا أحيد عنه .

ولا ننسى أن الملك فؤاد كانت له مواقف حاسمة للحصول على استقلال مصر ، وكذا في الدفاع عن العروبة جملة . وليس هنا محل بسطها وشرحها . رحمة الله عليه وجزاه الجزاء الأوفى . وفي المثل المطروق « النار تترك الرماد » .

وهو الذي عيَّنني عضوا دائما في « مجمع اللغة العربية » لأول تأسيسه آخر سنة 1932 . وأنا اليوم آخر من بقي من الاعضاء الأولين للمجمع . وكنا في البداية عشرين عضوا لا غير : عشرة من المصريين ، وخمسة من الشرقيين ، وخمسة من المستشرقين . وقد شاركت بقدر الاستطاعة في الأبحاث والمناقشات الدائرة في المجمع منذ التأسيس ، ولا سيما عندما أثيرت الدعوى لابدال الحروف العربية بغيرها .

أما اللغات التي أحسنها فهي: أولا و بالذات العربية لغة أهلي وقومي، ثم الافرنسية ، وقليل من الايطالية : وكذا من التركية .

أما عنايتي بالثقافة وبث وسائلها داخل البلاد التونسية فقد درَّست التاريخ العام وخاصة التونسي في الخلدونية من سنة 1910 إلى سنة 1924 بعد المرحوم البشير صفر ، وكذا في المدرسة العليا للغة والآداب العربية « سوق العطارين » من سنة 1913 الى آخر 1924 .

ومنحتني جامعة العلوم بالقاهرة لقب الدكتوراه الفخرية في

سنة 1950 ، كما مُنِحت ذلك اللقب من « جامعة العلوم الجزائرية » ودعيت للحضور بنفسي سنة 1960 فلم أجب حيث كانت حرب التحرير قائمة على ساق حينئذ ، وسمّيت عضوا مشاركا في « المجمع الفرنسي للنقائش والفنون الجميلة » منذ سنة 1939 ، وكذلك في المعهد المصري ، وعضوا مراسلا للمعهد التاريخي الاسباني منذ أربعين عاما ، وعضوا في كل من المجمع العلمي العربي بدمشق منذ تأسيسه ، وكذلك في المجمع العلمي العراقي في بغداد ، وغير ذلك ٠

أمـــا أسفـــاري :

فإلى جميع القارة الاروبية بإدخال البلاد الروسية حيث دعيت من مجمعها العلمي ، فزرت علاوة عن موسكو جمهورية الازبكستان (تاشقند وهي بلاد الشاش قديما) و « سمرقند » حيث ضريح الصحابي الفاتح قثم بن العباس بن عبد المطلب ابن عم الرسول و « بخارى » حيث ضريح الامام محمد بن إسماعيل البخاري ٠

وفيما عدا ذلك تجولت في ممالك الشرق الأدنى ، وفي سائر أقطار أروبا جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ٠ كما طفت بجميع أقطار شمال إفريقية من المحيط الاطلنطي إلى السويس ٠

وحججت ثلاث حجات أولاها في سنة 1935 . وتعرفت مليًّا بالملك المرحوم عبد العزيز آل سعود. وقد أنابتني في المرة الثانية الدولة التونسية لتقديم رسالة من الباي أحمد الثاني مع أوسمة مرصعة بالحجارة الكريمة،وهدايا أهلية معتبرة ، فقبلني بحفاوة زائدة. وأقمت ضيفا على السعودية . واستفدت من محادثات الملك بكثير من أخباره وقيامه بالدعوة لاسرته وفتوحه وتوحيده للمملكة العربية الشمالية . [وكانت حجتي الأخيرة في خلال سنة 1944 وأنا وزير للقلم والاستشارة] (١)

وفى أثناء إحدى تلك الحجج تعرفت بالمستعرب الانكليزي المسلماني (عبد الله فيلبي). ولا أنسى أنه كان أفادنى كثيرا عن جولته العلمية في الربع الخالي والأحقاف من الجزيرة العربية ، تلك الجولة التي

---

(١) أصل الجملة التي بين معقفين والواردة في أغلب المصادر وبخط المؤلف أيضا هي «وكانت حجتي الاخيرة في خلال سنة 1950 وأنا رئيس الاوقاف» ويبدو أن هنالك سهواً من المرحوم ح.ح. عبد الوهاب . وقد اعتمدنا في تصحيح النص على الوثائق الرسمية للحجيج التونسيين ومجلة الثريا سنة 1944 عدد 11 ومقال المرحوم محمد الفاضل بن عاشور في مجمع اللغة العربية سنة 1969 بالاضافة إلى تأكيدات عائلة الفقيد .

قطع معظمها في سيارة وعلى الجمال. وقد أدرج فيها كتابا مفيدا جدّا . وهو عمدة الباحثين عن خفايا الجزيرة وجهاتها المجهولة .

وإني لأعتذر كثيرا إذ أني أطلت في ذكر حياتي وملابساتها. وما هي بأحسن من غيرها :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت وصوّح نبتها رعي الهشيم

ويعلم الله كم يخجلني أن أكون مثل بعض الأحباب، وهو الآن من الأموات كان يكتب على بطاقة زيارته أسماء كل الجمعيات التي كان مشتركا فيها ، ويرسم بآخر البطاقة « انظر محوله » لأن وجه الورقة غير كاف لاحتواء جميع الجمعيات والمؤسسات التي هو عضو فيها. ولو أردت إحصاء أحبابي في الشرق والغرب للزمني دفتر خاص ذو صفحات عديدة . وفيما ذكرت كفاية ، بل ربما كان من التطويل الممل .

وما أنزه نفسي ، فإن النفس أمّارة بالسوء . وإليه سبحانه أضرع أن يتغمّدني برحمة منه ، وأن يستر عيوبي : ما ظهر منها وما بطن ، بفضله تعالى وكرمه .

مؤلفات باللغة العربية :

* (بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق) طبع تونس 1912 (١) .

* (خلاصة تاريخ تونس) طبعة أولى : تونس 1918 ـ ثانية 1930 ـ ثالثة بتونس سنة 1953 (٢) .

* (المنتخب المدرسي من الأدب التونسي) طبعة أولى بتونس 1908 ـ ثانية في المطبعة الاميرية المصرية سنة 1944 (٣) .

* (الارشاد الى قواعد الاقتصاد) طبعة تونس 1919 .

* (شهيرات التونسيات) ـ تونس ـ ط ـ أولى 1934 ـ ثانية 1966 .

* (الامام المازري) ترجمة حياته مع بحث عن تسلسل السند العلمي في تونس منذ الفتح العربي ـ طبعة تونس 1955 .

---

(١) طبع ثانية بتونس سنة ١٩٧٠

(٢) ورابعة بتونس سنة ١٩٦٨

(٣) وثالثة بتونس سنة ١٩٦٨ بعنوان « مجمل تاريخ الادب التونسي » وفيه زيادات عن الطبعتين السابقتين .

* (ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية) (جزء أول) ط ـ تونس 1965 ـ (جزء ثاني) ط ـ تونس 1966 .

نشريات محققة :

* (رسائل الانتقاد) مقامات في النقد الادبي لمحمد بن شرف القيرواني طبع دمشق 1912 .

* (ملقى السبيل) ـ في الوعظ والحكم لابي العلاء المعري طبع دمشق 1912

* (أعمال الأعلام) قسم تاريخ إفريقية وصقلية) لابن الخطيب الأندلسي ، طبع بلرمو بصقلية 1910 .

* (وصف افريقية والأندلس) لابن فضل الله العمري ، طبع تونس سنة 1920 .

* (كتاب يفعول) بحث لغوي للصاغاني ـ طبع تونس سنة 1924 .

* (التبصر بالتجارة) للجاحظ ـ ط. اولى بدمشق 1933 ، وثانية بمصر 1935 ، وثالثة ببيروت 1966 .

* (الجمانة في إزالة الرطانة) في اللهجة الاندلسية والتونسية لمجهول ط ٠ المعهد العلمي بمصر 1953 ٠

* (آداب المعلمين) مما دون محمد بن سحنون عن أبيه ـ ط ٠ تونس 1934 (1350) ٠

* (رحلة التجاني) في البلاد التونسية وطرابلس لعبد الله التجاني ـ ط ٠ تونس 1958 ٠

مصنفات وأبحاث باللغة الفرنسية :

* (الاستيلاء الاسلامي على صقلية) ـ ط ٠ تونس 1905 ٠

* (امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي) ـ ط ٠ تونس 1917

* (تقدم الموسيقى العربيـــة بالمشرق والمغرب والاندلس) ـ ط ٠ تونس 1918 ٠

* (شاهد عيان لفتح الاندلس) ـ ط ٠ تونس 1932 ٠

* (منعرج في تاريخ الاغالبة : ثورة الطنبذي) ـ ط ٠ تونس 1937 ٠

* (بحث في دينارين نورمانيين بالمهدية) ـ ط ٠ تونس 1930 ٠

* (مدائن اضمحلت من البلاد التونسية) ـ ط ٠ باريس ٠

* (الجهة الوسطى من البلاد التونسية « قمودة » في القرون الوسطى)

ط ـ تونس ٠

هذا عدا ما نشر من الفصول في « دائرة المعـــارف الاسلامية) بالفرنسية وكذلك من الأبحاث في المجلات العلمية والادبية في المغرب والمشرق و في أروبا ٠

●

أنموذج من خط المرحوم ح. ح. عبد الوهاب باللغة العربية وهو الصفحة الاخيرة من الدراسة المنشورة بهذا القسم بعنوان « لمحة من تاريخ المهدية » .

pour cela un long voyage. Fait digne de remarque : [illegible] Mahdia au temps de sa splendeur, ne possédait pas de cimetière, ses habitants ayant pris l'habitude de faire transporter à Monastir par voie de mer les dépouilles mortelles des notables. Ajoutons que la famille régnante des Zirides elle-même possédera à Monastir une nécropole royale, le fameux sanctuaire de la "Saïyda" où sont enterrés les princes et princesses sanhajiens avec un faste tel que les chroniqueurs de l'époque le décrivent avec admiration.

Si nous [illegible] une chose certaine, [illegible] retenir notre attention : les titres [illegible] cités, les personnages importants inconnus de l'Histoire Tunisienne que certaines [illegible] nous révèlent.

Un premier exemple : il est question d'un certain [illegible] fils et petit-fils de qaïds, mort à Bari, en Italie, et dont le corps est ramené en Tunisie pour être inhumé à Monastir. [illegible] correspond exactement au titre de "Qaïd" dans l'acception [illegible] [illegible] qu'il ne s'agit pas moins que du commandant en chef de la flotte des derniers princes Zirides. On n'ignore pas en effet que ces souverains dans leur place forte de Mahdia (la ville Africa du moyen-âge chrétien), avaient tenu à développer leur flotte de guerre pour deux motifs principaux : le premier était la nécessité de se défendre contre les forces normandes installées en Sicile ; le second était l'appât des bénéfices de la course maritime. Il est clair que les moindres renseignements sur l'organisation navale des Zirides et sur les chefs de leurs flottes nous sont des plus précieux, l'Histoire étant restée muette jusqu'ici sur ces points.

Un deuxième exemple [illegible] au nom d'un "Amiral" qui [illegible] sur une inscription du XIe siècle. On sait longtemps [illegible]

أنموذج من خط المرحوم ح . ح . عبد الوهـاب باللغة الفرنسية
وهو صفحة من الدراسة المنشورة بهذا القسم عن المنستير والنقائش العربية بها .



في يوم 7 نوفمبر 1968 - وقبل وفاته بيومين - تسلم المرحوم حسن حسني عبد الوهاب «جائزة الرئيس بورقيبة التقديرية» عن مجموع إنتاجه . وفي الصورة أعلاه الدكتور الصادق المقدم رئيس مجلس الامة يوشح صدر العلامة المرحوم بوشاح الصنف الاكبر من الوسام الثقافي نيابة عن فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية .

السَّنَد العِلمي الإسلامي

بإفريقية

3 ورقات (ثالث)

السنـد العلمـى الاسلامى بافريقيـة

نشأة العـــلم الاسلامي

ظهر علم الشريعة ـ أول ما ظهر في افريقية،وخاصة في القيروان ـ على يد الصحابة فالتابعين الوافدين على المغرب إبّان الفتوح ، وعن هؤلاء وهؤلاء كان تسلسل السند فتلقّاه منهم ناشئة العرب المولّدون، وأبناء الافارقة والبربر ممن دخلوا في الاسلام . وما يكاد هذا النشء يحفظ القرآن حتى يروي عن اولئك الفاتحين ومن إليهم سنَّةَ رسول الله. وهي المنبع الثاني للشريعة ، والأصل التالي للقرآن العظيم في استخلاص أحكام الدين .

وقبل أن نسرد لك أشهر من حملوا العـلم، ورووا الحديث في إفريقية ، وهم الذين يتّسق بهم السند العلمي الافريقي، نستهل البحث بذكر بعض من وفدوا على البلاد وأقاموا بها بعد الفتوح . وقد روى عنهم الحديث والآثار رجالٌ من التابعين الأولين الذين اتخذوا تلك

البلاد وطناً لهم ، بعد أن مُهِّدت بها سبل الاقامة بتأسيس مدينة القيروان وغيرها من المدائن العربية .

البعثة الدينية

كان في مقدمة هؤلاء « العشرة التابعون » الذين عينهم الخليفة عمر ابن عبد العزيز سنة مائة من الهجرة لتفقيه الأفارقة في الدين ، وإرشادهم إلى هديه ، وإشرابهم مُثُلَه العليا . ونخصُّ بالذكر منهم :

ــ إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي: عامل عمر بن عبد العزيز على المغرب ورأس البعثة الدينية ،فقيه صالح ، يروي عن عبد الله بن عمر، وفضالة بن عبيد. وروى عنه الاوزاعي بالمشرق، وعبد الرحمن بن زياد وغيره بالقيروان . وعلى يده أسلم العدد الغالب من البربر . وكان على إسلامهم حريصاً . مات بالقيروان سنة ١٢٢ هـ .

ــ عبد الله بن يزيد المعافري المعروف بالْحُبُلي : يروي عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيّوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني ، وغيرهم. شهد فتح الاندلس مع موسى ابن نصير . ثم استوطن القيروان ، واختطّ بها داراً ومسجداً وكُتَّاباً في

ناحية باب تونس . وانتفع به جماعة من الافــــارقة . وبث فيهم علما كثيراً . مات سنة ١٠٠ هـ وقبره بالقيروان معروف .

عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخي : من فضلاء التابعين ، يروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعن جماعة من الصحابة . وعنه يروي عبد الرحمن بن زياد وغيره . وهو أول من تولّى القضاء بالقيروان بعد بنائها ، ولاّه إياه الأمير موسى بن نصير سنة ٨٠ هـ وكان عدلا في أحكامه. وهو الذي يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرّ بمجلس قوم يدعون الله ويرغبون إليه، ومرّ بقوم آخرين يتعلّمون الفقه، فقال: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون الله عز وجل ، ويرغبون إليه، إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه، ويعلّمون الجاهل، فهم أفضل . وإنما بُعِثْتُ معلّما، فجلس معهم» أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو . وتوفي ابن رافع بالقيروان سنة ١١٣ هـ .

ـ ومنهم إسماعيل بن عبيد الانصاري : كان من العلماء الفضلاء . يروي عن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص وغيرهم . ويروي عنه من أهـــل إفريقية بكر بن سوادة الجذامي ، وعبد الرحمن بن زياد وسواهما . ومن مواليه عبد الملك ابن

أبي كريمة الآتي ذكره . وانتفع به خلق كثير من الافـــارقة ، وهو الذي بنى المسجد الكبير المعروف بـ « مسجد الزيتونة » في القيروان ، كما أنشأ بها سوقاً للتجارة غربي مسجده ، كانت تسمّى «سوق إسماعيل» وقد خرج مجاهداً على سبيل التطوع في إحدى غزوات صقلية، فغرق في البحر سنة ١٠٧ هـ .

وما من واحد من بقية « العشرة التابعين » إلاّ كان يروي الحديث عن الصحـــابة ، ويتقن التفسير والفقه ، وإلّا اتخذ داراً لسكناه ، ومسجداً لصلاته ، وكُتَّاباً لتعليم الناشئة . وقد تفقه على أيديهم جمع كبير ، هم المربّون الأولون لأبناء البلاد . وهم الذين لقّنوهم علوم الشريعـــة .

ومن التابعين الذين دخلوا إفريقية وكثرت عنهم الرواية :

- يحي بن سعيد [بن قيس] بن قَهْد الأنصاري . وجدّه قَهْد من الصحابة [١] . وكانت ابنته خولة زوج حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم [٢] . وولد يحي بالمدينة . وروى الحديث عن جماعة

× (١) رياض النفوس ١ : ٩٣

× (٢) رياض النفوس ١ : ٩٣ - الاستيعاب ٤ : ١٨٣٣ - الاصابة ٤ : ٢٩٣

من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك ، ومعـــاذ ، والسائب بن زيد ، وعمرة بنت عبد الرحمن . وقد روى عنه أغلب أيمة الاجتهاد ، مثل أبي حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والليث بن سعد ، والزّهري ، والأوزاعي،وغيرهم.وكان يحي فقيها، محدثاً، ثقة، مأموناً.قيل إن جملة ما كان يحمله من الحديث ثلاثمائة يسندها إلى وجوه من الصحابة والصحابيات . ودخل يحي إفريقية على رأس القرن الثاني للهجرة ، أرسله إليها الخليفة عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات خاصة . ونزل يحي مدينة تونس ، وجالس بها خالد بن أبي عمران التجيبي . وأخذ كل منهما عن صاحبه ، كما سمع منه خلق كثير من أبناء تونس والقيروان .

ومما هو جـــدير بالملاحظة أن رواية الافارقة للحديث كانت أكثر ما كانت بطريق المدنيين وسندهم . ويلوح لي أن ذلك هو السبب الأصيل فى ميل الافارقة من بعد إلى الأخذ بآراء أهل المدينة في الفقه وإيثار الكثير منهم لمذهب مالك بن أنس وصحبه . وقد قال الامام الشافعي : « إذا جاوز الحديث الحرمين (المدينة ومكّة) فقد ضعف نخاعه »[1] .

---

(١) كتاب (آداب الشافعي ومناقبه) طبع القاهرة ١٣٧٢ ص ٢٠٠

ومهما يكن من أمر فقد سار يحي في إفريقية سيرة الأخيار البررة الساعين لنشر تعاليم الملة السمحة ، السالكين سبيل العفة والنزاهة في القول والعمل . وأقام يحي في تونس نحو عشرين سنة بثّ في أثنائها علماً كثيراً ، وأخلاقاً مرضية . وتوفي سنة ١٤٣ هـ.

مشاركة الإفريقيين في العلم :

ومن بين الرعيل الأول من الأفارقة الذين حملوا العلم الاسلامي:

ـ خالد ابن أبي عمران التجيبي ، وهو تابعي ابن تابعي . كان أبوه ممّن صحب قديما عبد الله بن سلام الصحابي . ثم قدم مع جيش حسان ابن النعمان سنه ٧٤ هـ .واستقر في مدينة تونس وَوُلِدَ له خالد ، فقرأ على أبيه وعلى غيره من حفظة القرآن ورواة الحديث . ثم رحل إلى المشرق وسمع من أعلامه . وروى عنه غير واحد من كبار الأئمة ، مثل الليث بن سعد ، وعبد الله بن لَهِيعَة وغيرهما . وروى له مسلم في صحيحه وكذا أبو داود والترمذي والنسائي . كما روى له مالك بن أنس في الموطأ بسند يحي بن سعيد الانصاري . وعاد خالد إلى إفريقية مزودا برواية زاهرة نقلها عنه جماعة من أبناء البلاد ، مثل عبد الملك ابن أبي كريمة ، وعبد الرحمان بن زياد وسواهما. وتولّى خالد قضاء

إفريقية في ولاية عبد الله بن الحبحاب . وتوفّي سنة ١٢٣ هـ وقد ترك ديوانا كبيرا فى الحديث فيه مروياته عن تابعيّ المدينة .

ـ عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري : كان أبوه من وجوه التابعين. وكان من جند حسان بن النعمان في دخوله إلى افريقية . وقد ولد له عبد الرحمان سنة ٧٤ هـ . روى جانبا كبيرا من الحديث على من كان في زمانه من التابعين المقيمين في إفريقية مثل خالد بن أبي عمران . وروى عن الفقهاء الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز مدة خلافته لتفقيه أبناء المغرب . ثم رحل في طلب العلم إلى المشرق : مصر والشام والحجاز والعراق . وصحب أبا جعفر المنصور العباسي قبل أن يلي الخلافة في مزاولة العلم بالكوفة . ورجع إلى القيروان وتولّى القضاء بها مرتين ، وأخذ عنه خلق لايحصون من أبناء بلده ، وتوفي سنة ١٦١ هـ .

ـ علي بن زياد التونسي : من أبناء مدينة تونس. قرأ بها على خالد ابن أبي عمران وغيره، وبالمشرق عن سفيان الثوري ، واللّيث بن سعد ، وابن لهيعة وغيرهم . وهو أول من أدخل « موطأ » مالك بن أنس و « جامع » سفيان الثوري إلى المغرب . وروايته للموطأ مشهورة بين الموطآت توجد منها قطعة صالحة في مكتبة القيروان العتيقة. وممن أخذ عنه من الافارقة : أسد بن الفرات ، وسحنون . وقد قال سحنون

في شانه : « كان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسالة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليخبرهم مَنْ على صواب فيها ». وتوفّي ابن زياد سنة ١٨٣ هـ وقبره في حضرة تونس معروف في أعلى الشارع الذي يحمل اسمه في ناحية القصبة .

تتابع الطبقات :

ثم تبتدئ طبقة ثانية يوافق ظهورها قيام الدولة الأغلبية في البلاد . ويمتاز رجال هذه الطبقة بالعكوف على أقوال الايمة المجتهدين في التشريع يجمعون شتاتها ، ويؤلفون بين موضوعاتها ، ويبوّبون مسائل الفقه ، وينسّقون أحكامها ، بعد أن وقفوا على تفسير القرآن، وعرفوا رواية الحديث والسُّنَنِ . وفي طليعة هذه الطبقة :

ـ أسد بن الفرات بن سنان من أبناء جند خراسان . قدم به أبوه صغيرا (ابن عامين) مع جيش محمد بن الأشعث الداخل إلى إفريقية سنة ١٤٤ هـ فاقام بتونس . ثم توجه إلى الحجاز، وأخذ عن مالك بن أنس . ثم انحدر الى الكوفة وبغداد ، فقرأ على أصحاب أبي حنيفة النعمان ، ولا سيما محمد بن الحسن الشيباني. وفيما هو عائد الى بلده عرّج على مصر، فاخذ عن عبد الرحمان بن القاسم ، وعبد الله بن وهب ، وغيرهما .

واعتمد على ابن القاسم في إنشاء مدونته المعروفة بـ« الأسدية »،وقد تلقى عنه أبناء إفريقية مثل سحنون،وسليمان بن عمران وسواهما.ويمكن أن نعدّ أسد بن الفرات أول مؤسس للمدرسة الفقهية القيروانية . بيد أن هذه المدرسة لم تكن تنتسب إلى مذهب معيّن ، بل كانت تروي أقوال كبار المجتهدين مع إيضاح ما بينها من فروق . وإنما كان ذلك ؛ لأن المذاهب السنية لم تكن قد تعيَّنت بعد ، واستقلّ كل منها بنفسه . فإن ذلك لم يتسق إلاّ في القرن الثالث للهجرة . وعلى أية حال فقد كان أسد بن الفرات يقرئ بالقيروان آراء مذهب أهل المدينة ، ومذهب أهل العراق بالسوية ، حينما أخذت كل طائفة تنحاز إلى مذهب بعينه .

قال المالكي : « والمشهور عن أسد ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان يلتزم من أقوال أهل المدينة ، وأهل العراق ما وافق الحق عنده . ويحق له ذلك لاستبحاره في العلوم وبحثه عنها ، وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين »[١] .

وقال معاصره أبو سنان زيد بن سنان الازدي: « وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشائخ كانوا يجالسونه ممن يذهب إلى

---

(١) رياض النفوس ج ١ ص ١٨١ ط مصر ١٩٥١

مذاهب أهل المدينه : أوقد لنا القنديل الثاني ، يا أبا عبد الله ! فيسرد لهم أقوال المدنيين » .

ويجدر بنا هنا أن نلفت النظر الى أن أشياع أهل العراق (أبي حنيفة وأصحابه) كانوا أوفر عَدَداً يومئذ من الذين يتابعون أهل الحجاز (مالك وأصحاب السُنن) . وما ذلك إلاّ لأن الأُمراء من بني الاغلب وسائر رجال دولتهم كانوا يقلدون ساداتهم خلفاء بني العباس .

وقد تولّى أسد قضاء افريقية لزيادة الله بن الاغلب . ثم خرج مجاهدا إلى صقلية زعيما للجيش العربي،فاستشهد في فتحها سنة ٢١٣ هـ .

كيف دخلت الحنفية إفريقية:

حكى المقدسي في رحلته ـ وقد زار المغرب آخر القرن الرابع للهجرة ـ رواية أخرى عن أخذ أسد بن الفرات لآراء أهل العراق. قال : « وسألت علماء القيروان كيف وقع مذهب أبي حنيفة إليكم ، ولم يكن على سابلتكم ؟ فقالوا : لما قدم عبد الله بن وهب من عند مالك ـ رحمه الله ـ من المدينة الى مصر ، وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن الفرات أن يدرس عليه لجلالته وكبر نفسه ؛

فرحل أسد إلى المدينة ليدرس على مالك ، فوجده عليلا ؛ فلما طال مقامه عنده قال له مالك : ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة ، فصعب ذلك على أسد . وسأل القوم : هل يعرف لمالك نظير ؟ فقيل له : فتى في الكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ؛ فرحل أسد إليه ، وأقبل عليه محمد بن الحسن إقبالا لم يقبله على أحد ، ورأى فهما وحرصا ، فزقّه الفقه زقًّا ، فلما علم محمد أنه قد استقل ، وبلغ مراده فيه سيّبه إلى المغرب ؛ فلما دخل اختلف إليه فتيان القيروان ، ورأوا فروعا حيّرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنّت على أذن ابن وهب . وتخرَّج على أسد الخلق ، وفشا مذهب ابي حنيفة ـ رحمه الله ـ بالمغرب » (١) .

ويبدو أن الحقيقة تجانب ما روى المقدسي ؛ فإن أسد بن الفرات لم يكن أول من أظهر آراء أهل العراق (أبي حنيفة وصحبه) بإفريقية ، بل سبقه الى ذلك بنصف قرن فقيه محدث جليل القدر ، هو :

ـ عبد الله بن فرّوخ ، أبو محمد الفارسي . أصله من خراسان ،

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ص ٢٣٧ ط ليدن سنة ١٨٧٧ م

وقدم أبوه إفريقيـة فولد له بها ابنـه عبد الله سنة ١١٥ هـ ، وقـرأ على محدثيها . ثم قصد المشرق واتصل في العراق بالاعمش (سليمان بن مهران) التابعي ، وحمل عنه كثيرا من الحديث . ثم اجتمع في الكوفة بالامـام أبي حنيفة النعمان وصحبه مدة طويـلة ، وكتب عنه مسائـل كثيرة ، يقال إنها عشرة آلاف مسألة . وكان ابن فروخ يميل الى مذهب النظـر والاستدلال ، فغلب عليه القياس على طريقـة أهل العـراق فيما يـتبين له أنه الصواب . ويروى أنـه ناظـر يوما زُفَـر في مجلس ابي حنيفة ، فازدراه زُفَر لهيئته الافريقية ولباسه المغـربي ، فلم يزل يناظـره حتى علا ابن فروخ عليه ، وقطعه بالحجة والدليل ، فأنكر أبو حنيفـة على زُفَر إزدراءه بابن فروخ وعاتبه . ثم تحول ابن فروخ من العـراق إلى الحجاز ، ولقي الامام مالك بن أنس ، وسمع منه وتفقه عليـه ، وكتب عنه مسائل كثيرة معروفة . ثم عاد آخرا إلى بلده القيروان ، وانتدِب لتعليم الناس ، وانتفع به خلق كثير من أبناء البلاد ؛ فعن ابن فروخ، وعن تلاميذه انـتشرت آراء أهل العراق في إفريقية . وكان هو أول من أظهرها بها . وكانت وفاته سنة ١٧٢ هـ .

من ذلك الحـين انـتشرت أقوال الامـام أبي حنيفـة وأصحابه في إفريقية أيَّما انـتشار . ولـبـثت تزدهر من أواخـر القرن الثاني الى أواسط القرن الرابع .

وقد نبه المقدسي في رحلته إلى الوفاق بين الحنفيين والمالكيين بقوله : « . . وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا ، وأقلّ تعصباً من أهل القيروان ، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم حكايات عجيبة حتى قالوا : إنه كان القاضي سنة حنفيا ، وسنة مالكيا » . (١)

وقد حدث مثل ذلك بالفعل في مدة بني الاغلب ، فلما سقطت دولتهم ، وقامت الدولة الفاطمية الشيعية النحلة تضاءل عدد المستمسكين بالمذهب الحنفي حتى انقطع تماما في آخر عهد المعز لدين الله قبل انتقاله إلى ملك مصر سنة ٣٦١ هـ . ولم يبق بإفريقية من أهل السنّة غير المالكيين ، أو بعض المقلّدين لمذهب الامام الشافعي .

وقد وفقني الله تعالى إلى جمع شطر جليل من تراجم علماء الحنفية الافارقة ، فخصصتهم ببحث مستقل عرّفت فيه بهم ، وجلوت سيرتهم ومآثرهم ، وسينشر فيما بعد إن شاء الله .

المدرسة المالكية :

- سحنون بن سعيد التنوخي ، من أبناء الجند العربي . وُلِد في القيروان سنة ١٦٠ ، وأخذ في إفريقية عن علي بن زياد ، وأسد بن الفرات

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وغيرهما . ورحل الى الحجاز ولم يـدرك مالكا ، ورجـع إلى مصر ، فسمع من عبـد الرحمن بن قاسم ، وعليه غالـب اعتماده ، وأخـذ عن غيره من كبار تلاميـذ مالـك . وعلى ابن القاسم راجـع مدوّنة شيخه أسد بن الفرات ، وقد ظهر لابن القاسم العدول عن بعض آرائه الأُولى واتخاذ آراء غيرها . وعاد سحنون إلى بلاده ، وأراد أن يحمـل أسـداً على إصلاح « الاسدية » على ما تلقّاه من ابن القاسم ، فلم يوافقه أسد . واستمر سحنون بما أوتي من براعة ومقدرة يبث فقه أهل المدينة خاصة مالكا وأصحابه ولا سيما بعد استشهـــاد أسد ابن الفرات في صقلية . ولذا عُدَّ سحنون أول من أظهر الفقه المدني ورجحه ، وأرسخ كلمتـه في إفريقيـة والمغـرب . وقد امتـاز سحنون بخصال نادرة ، منها : جمعه بين الاستقامة التامة والدِّين ، ورجحان العقل والعفة، واستقلال الفكر وقوة الشكيمة. وتوارد عليه عدد لا يحصى من المتعلِّمين من أنحاء المغرب ، ولا سيا الاندلس . وصارت حلقـــة تدريسه أكبر حلقـة عُرفَت لاستاذ ، قيل إنه كان يجلس فيها أربعمائة طالب علم . ولَمَا ناله سحنون من الشهرة والصِّيت البعيد أولاه الأمير الأغلبي قضاء إفريقية سنة ٢٣٤ هـ فاظهر مقدرة منقطعة النظير في تنظيم مهمة القضاء . بل إنه وضع الكثير من أصول المؤسسات الشرعية في إفريقية، مثل دستور

أحكام السوق (وهي وظيفـة الحسبة)، ونظام قضـاة الآفاق، وكشف الشهود ، وسنن التعليم الابتدائي ، وتعيين أيمة المساجد، الى غير ذلك من الاوضاع التي جرى بها العمل مئات السنين . وما يزال بعضها سُنَّةً متبعة الى يوم الناس هذا .

وفي مدة قضائه اجتهد سحنون في تعطيل الدروس التي كان يلقيها أصحاب الأهواء والنِّحَلِ الخارجة عن السُّنَّةِ في الجامع الكبير ، مسجد عقبة بالقيروان ، مثل الصفرية والمرجئة والمشبهة والمعتزلة وغيرهم ، حتى ألزمهم إخلاء الجامع من حلقهم ، ولم تعد إليه بعد .

وقصارى القـول أن سحنون بن سعيد يعـدّ بحق المؤسس الأول لمدرسة الفقه المالكي في افريقية ، بل في المغرب عامة . كما كان الاسوة الحسنة لمن جاء بعده من علماء السنة في دراسة العلوم الفقهية ، وشرح أصول السنة . وتوفي سنة ٢٤٠ هـ .

وتمتـاز الطبقة التي تـلي هذه بتفسير أقـوال من تقدمهم وإيضـاح آرائهم ، وتطبيق الفروع على الاصول ، وفي طليعتها :

ــ محمد بن سحنون . أخـرجه والده متخلقا بالكـــثير من هديه وخصاله. وجلس يدرّس أقوال أبيه. وعُـني بالتاليف، فوضع أكثر من مائتي جزء في فنون العلم ، ولا سيا شرح المجمل من مدوّنة أبيه . ومن

كتبه « آداب المعلمين » الذي بين أيدينا (١) ، وهو أول من فتح هذا الباب . وتوفّي سنة ٢٥٦ هـ .

ـ محمد بن عبدوس ، تلميذ سحنون ، وأحد البارزين من صحبه . كان بارعا في الفقه المالكي ، قوي الاستنباط . وهو رابع المحمّدين الذين اجتمعوا في عصر واحد من أيمة مذهب مالك . والثلاثة الآخرون هم : محمد بن سحنون وهو قيرواني مثله، ومحمد بن عبد الحكم ، ومحمد بن الموّاز ، وكلاهما مصري . وعن محمد بن عبدوس أخذ جماعة لايحصون من أبناء إفريقية والاندلس . وألف كتبا كثيرة منها كتاب « التفاسير » فسَّر فيه أصول الفقه ، وشَرح مسائل المدونة وغيرها . وتوفي سنة ٢٦٠ هـ .

ـ يحي بن عمر الكناني . وُلِد بالاندلس ، ثم استوطن إفريقية بعد أن جال في عواصم المشرق ، وروى عن كبار علمائه . واستقر أخيرا في مدينة سوسة . وأكثر اعتماده على شيخه سحنون . وتفقه به خلق كثير ، منهم : ابن اللبّاد ، وأبو العرب التميمي ، وأبو العباس الأبياني ، وصنف نحو أربعين مؤلفا في الحديث والفقه ، والردّ على أهل

× (١) حققه وطبعه المؤلف سنة ١٣٥٠ / ١٩٣١ بتونس

البدع ، وفي فضائل المرابطة . ومنها كتاب فريد في بابه ، وهو « أحكام السوق » (١) أبان فيه نظام المدائن في الاسلام ، ومهمة الحسبة ، وهو ـ فيما عرفنا ـ أقدم من ضبط أصولها وأحكامها . وتوفي في سوسة سنة ٢٨٩ هـ . ومكان قبره بها مشهور .

ثم كانت بافريقية طبقة أخرى من حَمَلَةِ علوم الشريعة على مذهب مالك . وقد شهدت هذه الطبقة سقوط الدولة الأغلبية ـ سنة ٢٩٦ هـ ـ وقيام الدولة الفاطمية الشيعية مكانها . وقد حاول ملوك العبيديين القضاء على مذهب أهل السنة ، وتسويد النحلة الشيعية . وقاسى علماء القيروان من جراء ذلك ألوان الاضطهاد والمناوأة ، فأُخْفِت صوتهم، ومُنِع نشرُ تعاليمهم مدة ستين عاما أو أكثر . كما لقي القائمون بالدعوة الشيعية من مقاومة علماء السنة ، واستنكار الامة الافريقية ما أدّى إلى وقوع أحداث دموية عنيفة في شوارع القيروان . وكان ذلك من أكبر أسباب يأس الفاطميين من نجاح دعوتهم في البلاد ، وتمكينها من

---

(١) لدينا منه نسخة كاملة حققناها وشرحناها ، وعلقنا عليها بما يناسب ونزمع نشرها في القريب إن شاء الله تعالى .

(×) لم ينشر الكتاب لحد الآن . وقد عهد به ـ قبل وفاته ـ إلى الاستاذ فرحات الدشراوي لنشره . وانظر فصلا عنه في هذا الكتاب .

معتقد الأفارقة ، حتى اضطر العبيديون إلى نقل عاصمتهم من القيروان إلى المهدية بعضَ حين . ثم ولّوا وجوههم قبل المشرق ، ساعين إلى امتلاك مصر ، حتى استولوا عليها وسكنوها سنة ٣٦٢ هـ .

وكان على رأس المقاومين للشيعة في نشر دعوتهم بين الافارقة :

ـ أبو عثمان سعيد بن الحداد الغساني ، تلميذ سحنون وغيره . عُني منذ صغره بعلم الكلام والجدل ، والقول بالنظر والحجة ، وكان مفرط الذكاء ، وَقَّادَ القريحة ، متفننا في سائر العلوم لا يُخلِد إلى مذهب من المذاهب ، بل كان يذمّ التقليد ويقول : « هو من نقص العقول ، وتقاعس الهمم » وهو أكبر مناضل عن السنة أنبتته التربة الافريقية . وله مواقف حاسمة مع دعاة الشيعة في « رقادة » منذ بزغت دولتهم . وقد سجل لنا التاريخ بعض مجالس الجدل بينه وبين الشيعيين ، حتى شبهه معاصروه بأحمد بن حنبل أَيَّامَ المحنة بخلق القرآن . وتوفي سعيد سنة ٣٠٢ هـ .

ـ أبو بكر محمد بن اللبّاد . وجدّه الأعلى أحد موالي موسى بن نصير . أخذ عن تلاميذ سحنون كيحيي بن عمر ، وسعيد الحداد وغيرهما . وبرع في الفقه إلى أن حاز رئاسة المالكية في إفريقية . ولذا امتحنه دعاة الشيعة ومنعوه من إلقاء دروسه بالمسجد الجامع . ثم سجن مع

المجرمين في المهدية . ثم أطلق وألزم الاعتكاف في بيته ، فكان تلاميذه ـ ومنهم عبد الله بن أبي زيد ـ يقصدونه خفية ، ويجعلون كتبهم في أوساطهم حتى تبتل بالعرق . ودام على الاقراء . وقد استفاد منه جيل كامل حافظوا على سند الشيوخ المتوارث . وتوفي سنة ٣٣٣ هـ .

تفرّد المالكية بافريقية :

ثم كانت طبقة أُخرى شهدت جلاء الشيعة إلى مصر ، وقيام الامراء من بني زيري الصنهاجيين مكان بني عبيد الله الفاطميين . وقد خَفّتْ وطأة التضييق على المالكية ، إذ أصبح جمعهم بمأمن من المقاومة والتنكيل . وفي ذلك الحين نبغ فقهاء أعلام ، في مقدمتهم :

ـ عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، أبو محمد ، تلميذ ابن اللبّاد وغيره . برع في علوم الشريعة حتى انتهت إليه إمامة المالكية ورئاستها في عصره . وإليه كانت الرحلة من آفاق المغرب ، حتى قيل فيه « مالك الأصغر » وعني بالتاليف ، وملأت مصنفاته البلاد . وهو الذي لخص المذهب المالكي ، ورجّح أقواله ، وجمع بين آراء المتقدمين، ولا سيما في كتابه « النوادر والزيادات » على المدونة ، إذ استوعب فيه فروع المذهب ، فصار بمثابة ، « مسند أحمد بن حنبل » عند المحدّثين .

وهو يخرج في أكثر من عشرين جزءا كبيرا ، وقال ابن خلدون فيه :
« وجمع ابن ابي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب « النوادر » فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرّع الأمهات كلّها في هذا الكتاب . . . وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين - المغربي والاندلسي - الى انقراض دولة قرطبة والقيروان»

وقد ألف ابن أبي زيد الرسالة المشهورة التي جمعت في أوراق قليلة عقيدة أهل السنة والفروض في أسلوب بديع، وتناولها المفسرون بأكثر من مائة شرح، وترجم أصلها إلى غير لغة أجنبية. وله أيضا ردود على أهل البدع والاهواء المخالفة للسنة ، وعلى الجملة كان ابن أبي زيد بعد حركة التشيع الظاهرة في البلاد كالمجدد للسنة ولمذهب مالك خاصة ، ويعد رأسا للمدرسة المغربية التي محت ما قبلها . وكانت بدءا للحركة الفقهية المنشورة في عهد الدولة الصنهاجية إلى إبّان الزحف الهلالي. وتوفي ابن أبي زيد سنة ٣٨٦ هـ .

وقد تلقّى عنه جماعة كثيرة من أشهرها :

- علي بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي ، من كبار الفقهاء المحدثين ، قرأ في القيروان . ثم رحل الى المشرق ، وسمع من علية رواة الحديث . وهو أول من أدخل صحيح البخاري الى إفريقية.

وألف كثيرا في الفقه والحديث مثل ملخّصه لكتاب الموطأ وغيره . أما أصحابه وتلاميذه ، فيعدّون بالمئات من أفارقة ومغاربة وأندلسيين. ولا ننسى أنه كان في أوائل من أظهروا آراء أبي الحسن الأشعري ومذهبه في العقائد. ولقد سعى الى نشر هذه الآراء في البلاد الافريقية. وأيدها برسالة في مناصرة الاشعرية وتوفي القابسي في سنة ٤٠٣ هـ .

ثم كانت طبقة أخرى عاصرت الدولة الصنهاجية بالقيروان في عنفوانها وازدهار حضارتها ، أعني في دولة باديس وابنه المعز ، وقد أسهمت في قمع بقايا المنتسبين الى مذهب الشيعة في إفريقية ، وحرّضت على قطع الصلة بالملوك الفاطميين المقيمين بمصر ، وشاركت الأمراء في النداء بتوحيد المذهب في المغرب عامة ، وفي حمل أهليه على استنان مذهب مالك دون سواه سنة ٤٣٠ هـ .

ومن أبرز هذه الطبقة :

ـ أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني ، من تلاميذ ابن أبي زيد والقابسي وحاز الذّكْرَ ورئاسة الدّين بالقيروان في وقته مع أبي عِمران الفاسي [1] ،

× (١) يقول عنه الدباغ في المعالم (ج ٣ ص ١٩٩) واشتهر بالقيروان الشهرة التامة ورحلت إليه طلبة العلم من البلاد وظهرت إمامته ،

وتخرَّج عليه أصحاب يزيدون على مائة وعشرين . وكلهم مقتدى بهم في المذهب. وتوفي سنة ٤٣٢ هـ .

ـ أبو الطيب عبد المنعم الكنـدي ، من أجلاء الفقهـاء وأصحاب النظر في علم الحساب والهندسة ، وبه تفقـه جماعـة منهـم : أبو الحسن اللّخمي وعبد الحميد الصائـغ وغيرهما . وتوفي سنة ٤٣٥ هـ .

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد اللبيدي من صغار أصحاب ابن أبي زيد والقابسي ، ألّف كتابا جامعا في المذهب المالكي أزيد من مائتي جزء في عامة مسائل الفقه وَبَسْطِها وتفريعها ، وزيادات على الأُمّهات ونوادر الروايات ، توفي سنة ٤٤٠ هـ .

انفصال إفريقية عن المشرق :

وفي تلك الحقبة كانت الكارثة العظمى بزحف بني هلال وبني سليم وإليك بيانها :

كان المعز بن باديس الصنهاجي الذي تولّى إمارة إفريقية في السادسة من عمره ، قد تولى تربيتَه رجالٌ مستمسكون بالسنة المالكية ، فكبر وترعرع في بيئة علم وأدب لم تَرْقَ البلاد رقيّها من قبل . والحضارة

يومئـــذ في الأوج ، فاطمأنت نفسه إلى إمكان التحرر من سيادة الفـاطميين بمصر ، مجـاريا في ذلـك ميول الأمـة الإفريقيـة ، فما فتئ يتخـــذ الوسائل للانفصال عن سلطان الفاطميين البعيد المتضائل على الأيام ، تؤازره على ذلك صفوة العلماء ، ويؤيده الشعب . وظـل يقاوم شيئا فشيئا خطـة ملوك الشيعـة في العقيدة ، وفي السياسة ، ماضيا في حركة الاستقلال بالبلاد ، حتى جـــاهر بلعن بني عُبيد على المنابر ، وأنكر سيادتهم ، وجحد ولاءهم ، وقاطعهم . وكانت باكورة أعماله حمـل الأهليين على الاستمساك بمذهب مالك دون سواه . ولم يكن قـد صنع ذلـك وحـده ، بل سبقه إليه بزمان طويـل ملوك بني أمية بالأندلس ، فانتهجوا هذا المسلك في حمل الأُمة على إيثار مـذهب مالك . وما كان المعـز بن باديس ليخشى غـائـلة الفاطميين ، وبينهم وبـين المغرب مفازة من الاسكندرية إلى قابس يتعـذر اقتحامها على جيوش دولة دبّ فيها الوهن والانحلال ، فأقبـل المعـز على أمـره يتحرّر من سلطان العبيـديـين، ويقطـع الأَسباب بينه وبـين المشرق الشيعي .

وبلغ المعز في ذلك مناه ، مستجيبا لرغبة شعبه ، فتمتعت البـلاد بالاستقلال نحـو عشرين سنـة . ولكن دهـاة رجـال الفاطميين دبّروا المكر بالمعز وبقومه الافارقة . ورموهم بجنود من أعـراب بني هـلال

وبني سليم كانوا يقيمون على الشاطىء الشرقي للنيـل ، فأباحوا لهـم أن يجوزوا المغرب ، فانحدروا كالسيل الجارف لا يبقي ولا يـــذر . ولما بلغوا تخوم إفريقية تصدَّى لهم المعز يحاول صدَّهم عن البلاد ، فانصبُّوا عليه وعلى عساكره ، وألحقوا بهم هزيمة كانت القضاء المبرَم على حضارة إفريقية العربية . واضطر المعز أَن يلتجيءُ الى حصن المهـدية ، فملك الاعراب القيروان دونه ، ورحل منها أمامهم ساكنوها متفرقين أيدي سبأ . ولم يبق بها إلاَّ قلة مستضعفة استكانت لغلبة المهاجمين ، وانقادت لسلطانهم سنة ٤٤٩ هـ .

وهكذا تقلصت ظلال العلم من رحاب القيروان ، وفارقها العلماء إلى خارج البلاد ، وإلى بعض مدائن الساحل التونسي ، إلاَّ ما يُذْكَرُ عن أحد الحُفّاظ ، آثر المقام بالقيروان بعد خرابها المشؤوم ، ذلك هو الامام بقية السلف الصالح ، وخاتمة الايمة النظار :

عبد الخالق التميمي المعروف بالسُّيوري ، فإنه لم يغادر العاصمة ، وبقي بها إلى آخر أيامـه . وكان من وجـوه أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمن وأبي عمران الفاسي ، ومن في طبقتهما ، وانتفع به خلق كثير ، لانفراده برواية الحديث والفقه . ومن مشهوري تلاميذه الناقلين عنه : عبد الحميد بن الصائغ ، وأبو الحسن اللّخمي. ويقول الدبـاغ في شأنه :

« السّيوري آخر طبقة من علماء إفريقية، وخاتمة أيمة القيروان » .(١)
توفي سنة ٤٦٠ هـ أو بعدها بقليل .

وهنا تبتدئ طبقة أخرى من علماء الشريعة الذين انتقلوا من القيروان الى الساحل التونسي واستوطنوه وأقرأوا به ، وعلى رأسهم فقيهان جليلان ، هما :

– علي بن محمد الربعي المعروف بأبي الحسن اللّخمي من أبناء القيروان ، قرأ بها على جماعة منهم ابو الطيب عبد المنعم ، وبخاصة الامام السيّوري ، فلما جلا السكان عن القيروان قصد مدينة صفاقس واتخذها مقرّا له ، فطار له فيها صيت ، وكانت له رئاسة ، يقصده طلّاب العلم يروون عنه ، منهم الامام محمد المازري . وقد وضع اللخمي مصنفات أجلّها « التبصرة » أخرج فيها الخلاف في مذهب مالك ، واستقراء الأقوال ، وربما اتبع في بعض المسائل نظرَه الخاص ، وخالف مشهور المذهب فيما يرجح عنده ، فخرجت مختاراته عن القواعد المالكية المقررة . وتوفي سنة ٤٧٨ هـ وقبره في صفاقس مشهور.
- عبد الحميد بن محمد الصائغ ، من أبناء القيروان أيضا ، أخذ عن ابي بكر بن عبد الرحمن وأبي الطيب الكندي ، والسيّوري وغيرهم ، وتحوّل الى سكنى المهدية وتولّى بها الفتيا ، وسمع منه خلق لا يحصون في

---

(١) المعالم ج ٣ ص ٢٢٥

مقدمتهم محمد المازري . ثم دارت عليه محنة من السلطان ، فانتقل إلى مدينة سوسة ، وبها قضى بقية عمره بين التدريس والتاليف ، وتوفّي سنة ٤٨٦ هـ وقبره معروف على مقربة من البحر ، خارج المدينة .

هذان الامامان هما شيخا المازري ، وعليهما اعتماده في الرواية والسند العلمي القيرواني .

والآن وقد جلونا كيف انتهت الطريقة العلمية إلى المازري [١] ، نبحث كيف انتقلت هذه الطريقة منه إلى أصحابه وتلاميذه ؛ لكي نرى كيف تحول سند العلم من مبعثه الاصيل (وهو القيروان) الى المهدية ، ثانية العواصم الاسلامية في إفريقية . ثم إلى مدينة تونس ، قاعدة الملك الأخيرة ، وكيف ظل السند موصولا إلى أن بلغ عصرنا القريب .

ونمهد لذلك بكلمة نجمل فيها مزية المازري ، فانه لما توفي الشيخان « اللخمي » و « ابن الصائغ » تعيّن على كبير تلاميذهما « محمد المازري » أن يخلفهما في حمل لواء العلوم الشرعية في الساحل التونسي ، بل في

---

(١) انظر عن المازري دراسة المؤلف له المطبوعة بتونس سنة ١٩٥٥ م. والتي كان هذا البحث توطئة لها .

افريقيـة كلها ، ولم يتقلد المازري هـذه الزعامـة بـأمر سلطاني ، بل باجماع الكلمة من أهل البلاد ، فتصدر لنشر التعاليم الدينية وتدوينها . وقد أقبل على التدريس بالمهدية ، والتفّ حوله طلّاب ممتازون تلقوا عنه سَنَدَ المالكية بالرواية المتوارثة الصحيحة ، وحملوا عنه مصنفاته الفقهية، وأماليه في شرح الحديث والسُّنَن ، وهو يمتاز عن غيره من متقدمي الفقهاء الاعـلام باسلوبه الواضح في التعبير والتقرير ، وما كتب في مسألة فقهية ، أو أصدر فتوى شرعية إلاَّ دعمها بتطبيق اقواله على قواعد الأصول ، متبعا في ذلك المنهج المنطقي. وما انتهى إلى قول من الاقوال إلاّ بعد أن مهد له بالحجة وأقام عليه البرهـان . وتلك طريقة مستحدثة فى التأليف والتدوين العلمي الاسلامي في أثناء القرن السادس الهجري ومـا تـلاه . وإنها لطريقة حكيمة في إثبـات الحقائق ، ولا سيما في الأحكام والمبادئ ، ومتى كانت هـذه الطريقة معززة بإنشاء متين كانت أوقع في النفس ، وأقوى على الاقناع .

ومن تعـداد تلاميـذ المازري والآخـذين عنـه سـواء بالتلقّي ، أو بالاجازة ، يستبين لنا ما بلغه صيته العلمي مدة حياته . ونجتزيء هنا بالاشارة الى من لازم درسه واستفاد بالنقل عنه . الى أن خلفه بعد وفاته في نشر ما كان يحمل من السند والرواية .

فمن أشهر تلاميذ المازري من الأفارقة :

ـ أبو يحي زكرياء بن الحداد المهدوي ، عُنِي به المازري عناية خاصة ، ورشّحه للمناصب الشرعية التي اعتذر عن قبولها لنفسه . وقد تحقق عنده دينهُ وعلمه وفضله ، فأشار على الأمير الصنهاجي يحي بن تميم بن المعز باختياره لمنصب القضاء بالمهدية ، فسار فيها سِيرةَ أهل العدل والصلاح . وقد خلف شيخه المازري في الرئاسة الدينية إلى أن توفّي في حدود سنة ٥٧٠ هـ . وتخرج عليه كثير من الفقهاء ، منهم :

ـ عبد السلام البُرجيني ، نسبة الى البُرجين، إحدى قرى الساحل. أقام فترة صغيرة بالمهدية في صحبة ابن الحداد ، وروى عنه ما يحمل من علوم الشريعة ، وانتفع به كثيرا . ثم تحوّل الى سكنى مدينة تونس بعد استيلاء الأُمراء الموّحدين عليها واتصل بأعيان الدولة ، ولاسيا الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ممهد المملكة الحفصية ، وتولى القضاء والافتاء في مدة ولايته ، وتصدّى مع ذلك لنشر التعاليم الدينية بين شباب الطلاب التونسيين، إذ لم يكن في عصره من هو قائم بها مثله . . كانت العاصمة الجديدة ـ مدينة تونس ـ في أشد الحاجة

إلى معلمين مرشدين لخلوّ البلاد من حَمَلَةِ العلم بعد خراب القيروان واستيلاء نصارى النرمان على ساحل البلاد ؛ فظهر البُرجيني كالعَلَمِ المفرد في الاستمساك بالرواية الفقهية والسند العلمي المأثور من لدن الفتح في طبقة بعد طبقة .

وقد وهم المؤرخون وأصحاب الطبقات الذين تحدثوا عن ذلك العصر ، إذ جعلوا البرجيني من تلاميذ المازري،وأنه روى عنه أصالةً على حين أن المازري مات سنة ٥٣٧ هـ . والبرجيني ولد بعد ذلك ، وعمّر حتى مات سنة ٦٣٠ هـ،فلا يصحّ في العقل أن يكون قد أخذ عنه. والذي تحقق لنا بعد المراجعة والتمحيص، أن البرجيني قرأ على الشيخ ابي يحي بن الحداد المهدوي ، فبذلك تصح الرواية ويتسق التاريخ .

وكان البرجيني على جانب من التقوى ، وهو الذي لَحَدَ صديقه خلف بن يحي التميمي المشهور بأبي سعيد الباجي دفين « جبل المنار » المسمّى اليوم باسمه ، وذلك سنة ٦٢٨ هـ .

ولا بد من التنبيه الى أنه في العهد الذي انتقلت فيه دراسة العلوم الشرعية من القيروان الى المهدية ، ومنها الى تونس ، كانت كتب الدراسة للعقائد وللفقه المالكي إنما هي أمهات من المؤلفات وضعها علماء القيروان ، مثل « الرسالة » لابن أبي زيد ـ وهي للمبتدئين ـ

و « تهـذيب المدونة » للبراذعي القيرواني ، و « التعليقة » وهي شرح المدونة لأبي إسحاق إبراهيم التونسي القيرواني ،و« التبصرة » لابي الحسن اللخمي ، الى كثير من المؤلفات يعـي بها الحصر والاحصاء .

– عبد العزيز القرشي المعروف بابن بزيزة، مولده في سنـة ٦٠٦ ﻫ وهو من كبار الحفّاظ المجتهدين المعترف لهم بالتقوى في علوم الشرع ، وفي الأدب الرفيـع ، كما تشهد بذلك مؤلفاته المتعددة ، وعليـه تخرجت طبقة من المشتغلين بالعـــلوم الدينية من طلبة الحضرة التونسيـة ممن أَحيـوا سُنَنَ البحـث ، وتـدريس الفقه : أصـوله وفروعـه . وتوفي سنة ٦٦٢ هـ .

ومن أشهر تلاميـذه :

أبو القاسم بن أبي بكر اليَمني المعروف بابن زيتون ، مفتي افريقية وقاضيها في مدة الأمـير ابي زكرياء الاول ، وابنـه محمد المستـنصر . مولده سنة ٦٢١ هـ . وقد تخرج عن ابن بزيزة وغـيره . ثم رحـل إلى المشرق وروى بمصر عن العـزِّ ابن عبـد السلام ، والحافظ المنـذري . وعاد الى تونس يحمل تعاليم المشرق وأصوله في التدريس ، وله رواية واسعة ، وأَخذ عنه من أبناء البلاد مَنْ لا يعدّ كـثرة . وهو الذي تولّى

تحرير عقد الصلح المنبرم بين المستنصر بالله وجيش الفرنسيس بعد موت لويس التاسع ملك فرنسا في قرطاجنة (المحرم سنة ٦٦٩ = ١٢٧٠ م) . وتوفي ابن زيتون سنة ٦٩١ هـ .

قال العلّامة ابن خلدون : « وبعد انقراض الدولة الموحدية بمراكش ، ارتحل الى المشرق من إفريقية القاضي ابو القاسم ابن زيتون في اواسط المائة السابعة ، فأدرك تلاميذ الامام ابن الخطيب ، فأخذ عنهم ، ولُقِّن تعليمهم ، وحذق في العقليات والنقليات ، ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن . وجاء على اثره من المشرق ابو عبد الله محمد بن شعيب الدكالي ، كان ارتحل اليه من المغرب ، فأخذ عن مشيخة مصر ، ورجع الى تونس واستقرّ بها . وكان تعليمه مفيدا . فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلا بعد جيل . حتى انتهى الى القاضي محمد ابن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلاميذه . . »[1] .

وقد يناسب هنا ان نورد ما قاله العلامة المقّري في كتابه « أزهار الرياض » في سياقة الحديث عن طريقة التعليم بفاس عاصمة المغرب

---

(١) المقدمة ص ٩٨٦ طبع مصر ١٣٧٩/١٩٦٠ .

الاقصى وأنها أقل درجة مما كانت في تونس . ولا ريب أن العلامة المقّري تفطن الى انّ السر في تفوق الطريقة التونسية يرجع الى عوامل أكبرها تواصل السند العلمي في الرواية، واليك مقالته : « ... والعلة في ذلك كون صناعة التعليم وملكة التلقّي لم تبلغ فاسا كما هي في مدينة تونس (في القرن الثامن للهجرة) اتصلت اليهم من الامام المازري، كما تلقاها عن الشيخ اللخمي، و تلقاها اللخمي عن حذاق القيروانيين؛ وانتقلت ملكة هذا التعليم الى الشيخ ابن عبد السلام، مفتي البلاد الافريقية [وأصقاعها] واتصل بها المشهود له بِرُتَبِ التبريز والامامة، واستقرت تلك الملكة في تلميذه ابن عرفة ... »[1]

يضاف الى ذلك أنه في أثناء تلك المدة وفد على حضرة تونس نخبة كبيرة من وجوه العلماء، نزحوا اليها من بلاد الاندلس بعد سقوط مدينتي « بلنسية » و « إشبيلية » في يد الاسبان نذكر منهم الحافظ محمد بن الأَبار، وأَبا المطرّف بن عميرة، وأَبا بكر بن سيّد الناس، وعبد الحق بن برطلة، وعلي بن عصفور، وحازم القرطاجنّي، واحمد بن عجلان، وأَبا جعفر اللبلي، والقاضي احمد بن الغمّاز الخزرجي، وبني خلدون الاشبيليين، وسواهم ممن لا يحصون

---

(١) أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٤ طبع مصر ١٣٦١/١٩٤٣ .

عدًّا . وقد أَثار مَقْدَمُ هؤلاء المهاجرين حركة نشطة كانت نواة حية للنهضة العلمية في تونس ، ولا سيما نهضة علوم الشريعة . وكان اللاجئون جميعا ممن يذهبون مذهب مالك ابن أنس كسائر سكان الأَندلس ، مما زاد السند العلمي الفقهي المنتقل من القيروان الى الساحل الى تونس ثباتا وقوة ، وانتشارا وسعة .

وقد نبغ من تلاميذ ابن زيتون وغيره جيل جديد من الفقهاء الأَعلام ، وقفوا حياتهم على التدريس والتأليف في مختلف فروع العلوم الشرعية من آخر القرن السابع الى آخر القرن الثامن، نذكر من بينهم:

ـ محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي المتوفّى سنة ٦٦٢ ه .

ـ ابو القاسم بن علي بن البراء التنوخي المهدوي ، قاضي الجماعة بتونس المتوفى سنة ٦٥٥ ه ٠

ـ أَحمد الانصاري المعروف بالبطرني التونسي المتوفى سنة ٧١٠ ه٠

ـ أَبو بكر بن جماعة الهوّاري المتوفى سنة ٧١٢ ه ٠

ـ محمد بن عبد النور التونسي ، المتوفى سنة ٧٢٦ ه ٠

ـ ابراهيم بن عبد الرفيع الربعي ، قاضي الجماعة ، المتوفى سنة ٧٣٣ ه ٠

– محمد بن راشد القفصي ، المتوفى سنة ٧٣٦ هـ .

– قاضي الجماعة الشيخ المتبحّر محمد بن عبد السلام الهوّاري التونسي ، مجدّد الحركة الفقهية ، وشيخ الجيل الآتي بعده ، توفي سنة ٧٤٩ هـ .

ومن أشهر تلاميذه :

– محمد بن عرفة الورغمي ، شيخ شيوخ عصره ، وجامع قواعد الفقه وحدوده ، توفي سنة ٨٠٣ هـ .

– عبد الرحمن بن خلدون ، نابغة الفلسفة التاريخية ، توفي على خطة قضاء المالكية بمصر ، سنة ٨٠٨ هـ .

وتتوارد بعد ذلك طبقات الفقهاء المالكيين في القطر التونسي ، وكل طبقة تعول على التي قبلها في روايتها ، وتستمد منها تعاليمها محافظة على موروث تقاليدها . وهكذا يتواصل السَّنَدُ العلمي الاسلامي ، لا ينقطع ولا يفتر ، الى ان يبلغ إلى القرن الهجري الأخير الذي شاهد بعضَ الشيوخ المعاصرين أفذاذا من حفظة الشريعة الاعلام ، أساتذة « الزيتونة » وورثة مجدها العلمي ، ومفخرة تونس مدى الأيّام !....

مذاهب الشعر في كلام الأعراب

مذاهب الشعر في كلام الاعراب

كان لزحفة بني هلال وبنى سليم ورياح وزغبة على إفريقية التونسية ـ أواسط القرن الخامس للهجرة ـ تأثير قوي على لغة التخاطب بين السكان ، اذ تزحزحت اللهجات المحلية امام هذا التيار المتغلب على كل النواحي،فتقهقرت لغة البربر الزناتيين المتوطنين في السهول والجبال، والتجأ متكلموها الى سكنى بعض المعاقل المنيعة النائية مثل مطماطة وغمراسن والدويرات والسند وجزيرة جربة المحاطة بالبحر ٠ هذا من ناحية ، ومن أخرى تسربت لهجة هؤلاء البدو الى كلام اهل الحضر ـ من عرب وافارقة ـ المقيمين في المدائن الكبرى كالقيروان وتونس وصفاقس وسوسة فغيرته تغييراً محسوساً ، ذلك الكلام الحضري الموروث من زمن الفتح عن الجاليات العربية الوافدة على البلاد من لدن الدولة الأموية في الشام ، ثم عن جنود بنى العباس القادمين من العراق وخراسان .

وكان من مفعول الصدمة الشديدة التى أوقعها أولئك الأعراب بالقطر التونسي أن أدخلت انقلابا حاسما على التقاليد القديمة الراسخة في البلاد من عهد بعيد ، وحولت الكثير منها الى عوائد عربية عدنانية

تمتُّ بأصولها إلى عادات وأخلاق منقولة عن الحجاز ونجد وتهامة ، مواطن عرب هلال وسليم الاصلية ؛ فلم يمض قرن ونصف على الزحفة الهلالية الاولى حتى امتزجت القبائل المتغلبة من الاعراب بالعناصر الاهلية امتزاجاً متيناً إما بحكم الغلبة او بالمصاهرات؛ فنشأت هيئة جديدة من الجيل الصاعد اخذ عن المتغلبين الكثير من أوضاعهم في لغة التخاطب علاوة على ما اقتبسته من التقاليد والعادات في الحياة الاجتماعية .

وقد اضطرت الحكومة المحلية الفتية من بنى حفص الى استعمال الشدة تارة والى المجاملة تارة اخرى رغبة منها في استمالتهم للانضمام الى قواتها واستخدامهم في جيوشها ، وتارة ثالثة كانت تبذل الجهد للاغراء بين القبائل البدوية لقمع اطماع أصحاب الشوكة من بطونهم وأفخاذهم اذ أن كثيرا منهم كانوا يحاولون بسط هيمنتهم وفرض سلطانهم الفوضوي على نواحي الجهات المتحضرة من البلاد وأطرافها.

ولا جدال أن هؤلاء الاعراب حين نزوحهم الى المغرب واستقرارهم بجهاته كان لهم من العصبية القبلية ، ومن النجدة الحربية، ومن النخوة والانفة التي أكسبهم اياها استقلالهم بسكنى الصحاري وانتجاعهم بالقفار ، وتقلبهم في الفدافد ، وابتعادهم ما أمكنهم عن الاختلاط بالحواضر والامصار المتمدنة ، واتقاء الاحتكاك بالسلطة المنظمة ، ما

جعلهم يمتازون ببلاغة القول في الكلام ، وبسرعة البديهة ، وبصوغ الشعر المطبوع القريب من اقوال الجاهليين. كل ذلك نتيجة محافظتهم على لغة عربية سليمة من شوائب التحضر ، بعيدة عن التصنع والتقليد والتشدق .

ولله در مؤرخنا الخالد عبد الرحمان بن خلدون حينما يصف بلاغة الاعراب الزاحفين فيقول : (١)

« لهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم الى إفريقية طرق في الخبر غريبة ... فيروون كثيراً من الاشعار ، محكمة المباني ، متقنة الاطراف ، وفيها المطبوع المنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وانما اخلّوا فيها بالإعراب فقط ، ولا مدخل له في البلاغة ... الا ان الخاصة من اهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها، ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون ان الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك ...

« ومن هذه الاشعار كثير دخلته الصنعة ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بايامهم ووقائعهم مع زناتة ، وحروبهم فى المغرب ،

---

(١) «كتاب العبر» وهو تاريخ ابن خلدون ـ باب دخول العرب الى المغرب .

وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم .. وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الامر فيه . »

ومن حسن الحظ ان وصل الينا شيء كثير جدا من الاشعار المنسوبة اليهم في الملحمة المشهورة بـ« سيرة بني هلال » وتعرف ايضا باسم «قصة أبي زيد الهلالي» المطبوعة غير ما مرة ، وهي - كما لايخفى - سمر شيوخ أعرابنا حتى الان ، كما انها ما تزال تروى في المقاهي العتيقة في مصر وفي غير مصر . لكن الناقد البصير يدرك بالبديهة مسحة الاصطناع على تلك الاشعار المضافة كما نبه اليه مؤرخنا الكبير فيماتقدم.

ومن حسن الحظ أيضا أن يصل الينا ثابت الرواية من ذلك القريض البدوي، وهي قصيدة فريدة أشار اليها ابن خلدون في تاريخه ، قالها أحد رؤساء قبيلة عوف من بطون بني سليم ، وهو «عنان بن جابر» شيخ مرداس من بني جامع بن عوف .

وبنو عوف هؤلاء كانوا ، في العقد الثالث من القرن السابع للهجرة ، يسيطرون على سائر ضواحي افريقية ، من قابس الى بونة (عنابة الآن) ، تغلبوا عليها قسرا . وكان من سياسة السلطان أبي زكرياء أول بني حفص أن أثبت كثيرا منهم في ديوان جنوده المرتزقة ، ورسمهم في زمام العطاء واختص بالولاية منهم اولاد جامع

المرداسي وقومه ، رهط عنان بن جابر ، لما كانوا يظهرون من الطاعة والولاء لسلطانه .

وفي وقت مّا تنكب أبو زكرياء العاهل الحفصي لقبيلة مرداس وأغرى بين رجالها وبين قبيلة « علاق » ؛ فنشبت فتنة دموية بين الفريقين كادت تقضي في النهاية على جميعهم . وعقب هذه الاحداث سخط عنان بن جابر - يعسوب مرداس وشيخها الكبير - على سلوك السلطان الحفصي مع قومه بعد مكانته المكينة من الدولة ، فذهب مغاضبا ورحل بناجعته من مرداس ومن اليهم من بني عوف الى ناحية « زاعر » بصحراء المغرب الاوسط - قبلى جبل تيطرى -

وبعد حين ظهر للسلطان أبي زكرياء أن يسترضي قوم مرداس ليعودوا الى مواطنهم الاصلية من بلاد افريقية - ما بين قابس والقيروان - رغبة منه في الاستعانة بهم وضمهم الى جيوشه المرتزقة ؛ فكلف السلطان حاجبه المقرب منه الاديب الطائر الصيت : (أبا عبد الله محمد بن ابي الحسين) بمخابرة عنان بن جابر رئيس مرداس لتحريضه على العودة الى الاوطان ، فسارع الحاجب بمخابرة عنان وأرسل اليه بقصيدة أولى لا نعرف منها غير الطالع الذي أورده ابن خلدون :

قـدِّ المهامِـهَ بالمهـريةِ القـودِ واطـوِ الفلاةَ بتصويب وتصعيدِ

ومن الاسف الشديد أنّـا لا نعلم ما كان جواب عنان بن جابر عن هذا القصيد اذ لم يتعرض لذكره المؤرخون ولا أصحاب المجاميع الادبيـة ، لكن بعد مدة اخرى خاطب الحاجب ابن ابي الحسين بقصيـدة ثانية عنان بن جابر في الغرض نفسه ، يؤنبه فيها عن المقاطعة ، ويلح عليه في الرجوع الى الاوطـان التونسية كما يحثـه على مراجعة السلطان والحصول على رضاه .

وهذه القصيدة الثانية مع جواب عنان بن جابر عنهـا شعرا هما اللتـــان عثرنا عليهما ضمن مخطوط قـديم كـثير التحريف ، فوددنا إدراجهما باكملهما مع التعرض الى شرح شيء من ألفاظهما .

هذا ، وقد بحثنا طويلا عن أصل ثان للقصيدتين ـ رغبة في المقابلة والتصحيـح ـ فلم نعثر لهما على عين ولا أثر في مجاميـع الادب التونسي ولا في التواريـخ المخطوطـة منها والمطبوعـة ، اللهم الا مـــا أورده ابن خلدون من طالعهما في تاريخـه [١] .

والواقـع أن القصيدين ـ الخطاب والجـواب ـ يمتازان بأسلوب

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، طبعة الجزائر ج ١ ص ٨٨ و ٨٩ و ٤٥٥ - وكنت نشرت مختصرا من القصيدتين في كتابي « المنتخب من الادب التونسي » طبع مصر ١٩٤٤ من ص ١٠٣ الى ص ١٠٧ .

مخصوص ونهج مخالف لما عرفناه من أوضاع الشعر الحضري الجاري في المخاطبات بين أدباء ذلك العصر .

وسيرى القاريء من خطاب ابن ابي الحسين الحاجب الحفصي أنه ربما تكلّف بعض التكلّف فى القول لما أراد أن يسلك الطريقة المعهودة في أشعار بني هلال وبني سليم ، فساق كلامه باستعمال ما كان مالوفا من الالفاظ والتراكيب المطروقة عند أعرابنا بخلاف مـــا يشاهد في قصيد الجواب الصادر عن عنان بن جابر البدوي ، فانه اعرب عن غرضه بسجيته وارخى العنان لسليقته التي فطـــر عليها ، والفرق واضح كل الوضوح لمن يتأمل مليا من القولين .

ومهما يكن من أمر فان القصيدتين ـ لا سيما الثانيـة ـ فريـدتان في بابهما في الادب التونسي ، وهما مثال رائـع لاشعار أعرابنـا الصرّح من هلال وسليم بعد نزوحهم الى القطر التونسي واستقرارهم به .

وقد أورد الحاجب في قصيدته أسماء بعض الاماكن التونسية يشير بها الى وقائع حربية معروفة كانت دارت بين ثوار الاعراب والجيش الحفصي حينما كانت قبيـلة مـــرداس تنـاصر عسـاكر ابي زكـرياء الاول قبل انتقال تلك القبيلة الى اواسط البلاد الجزائرية .

ويا حبذا لو تنبه ادباؤنا في مطالعاتهم الى مثل هذا القريض البدوي

الغـض فيشهروا فضيلتـه الشعرية ويلحقوه بأدبنـا التـونسي فيكسبه ثروة ثمينة وطابعا جديدا يميزه عن الشعر الحضري المعتاد .

وها إليك اولا قصيدة الحاجب محمد بن ابى الحسين[1] في مخاطبـة عنان ابن جابرا لمرداسى .وهي القصيدةالتيصارت سمير النادي،وهِجِّيرَ الحاضر والبادي :

---

(١) الرئيس محمد بن ابي الحسين ، ابو عبد الله ، حاجب ابى زكريـاء الاكبر ووزير ابنه محمد المستنصر الاول ، اصله من اسرة بني سعيـد رؤساء القلعة - قلعة بني سعيد - المجاورة لغرناطة بالاندلس ، وارتحـل الى تونس فاتصل بابي زكرياء لاول استقلاله بمملكة افريقية ، فغلب على هـواه ، ولما تملك المستنصر بعد أبيه ولاه حجابته - وهي بمثابة رئاسة الوزارة - واسنـد اليه مهمات أموره ، لذلك لقب بالرئيس ، وكانت وفاته بتونس سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) - قال ابن خلدون عند التعريف به :

« كان ابو عبد الله (محمـد بن ابي الحسين) في رئاستـه صليب الراي ، قوي الشكيمة ، عالي الهمة ، شديد المراقبة والحزم في الخدمة » ثم قال : « وكان متفننا في العلوم ، مجيدا في اللغـة يقرض الشعر فيحسن ، ويـرسل فيجيد ، وله من التواليف : كتاب (ترتيب المحكم) لابن سيـدة ، على نسق الصحاح للجوهري ، وله اختصاره وأسماه (الخلاصة) . ومن اشهر ما نقل عنه من شعره يخاطب (عنان بن جابر) عن الامير ابي زكريـاء لما خالف واتبـع ابن غانية (الثائر اللمتوني) وهي على روي الراء ، وكان له قبلها أخرى على روي الدال ، »

سَلُوا دِمْنَةً بيْنَ الغَضا والسواجِرِ
هل استنَّ فيها واكفات المواطِرِ[١]

والاّ فعندي دِيمة مستهلة
تطلع ما بين الحشا والمحاجر

مساحبَ اذيالٍ ومركزَ نُبَّل
ومرتبض آساد وملهى جآذر

عهدت بها عَلياء لا السر عندها
مُذاع ولا جدّ الوصال بغابر

إذا طرق الشوق المبرّح زُرتها
طُروقَ خيال بين راعٍ وسامر

ولو لا حذاري أن تُراع لزرتها
بأسمرَ عسَّال وأبيضَ باتر

ومُرْد على جُرْد إذا اشتَجرَ القنا
ترى الجنَّ تعروري ظهور الكواسر

فديتكمُ ما الشوقُ آل ولا الهوى
بِبالٍ ولا قلبي الغداة بصابر

---

(١) واكفات : سائلات

دعوها فان يسمح بها الدهر أغتفر
له ولهــا ذنب اللّيــالي الغــوابر
ودونكم يــا للرجال تحيّــةً
يخــصُّ بها عنّي (عِنان بن جــابر)
فــتًى ما دعته زلــةٌ فأجابهــا
فكيف طَوَى كشحاً على نفس غادر [١]
وقد كان بيني ـ يا عنان ـ وبينــكم
بواطنُ صنّاهــا بحفــظ الظواهر
وفي كل عام كان للجيش وقعــة
نجــرُّ بها أذيــالنا جَــرَّ سادر [٢]
على كل خوّار القِنان كأنّه
ربيبُ سعالٍ لاَحَ في شكل طائر
يريك على عطفيْه مسَحةَ مؤمنٍ
ويكتم في جنبيْه أضغان كافر
نمــدّ لها سمر القنــا فتخالها
كلين القــنا ما بين أُذنٍ وحــافر

---

(١) طوى كشحا : ولى معرضا
(٢) السادر : الذي لا يبالي

فتختال أعطاف وتُعسِلُ سُمْرنا
وتهتزّ كالسمر ابتغاء المفاخر
نشاوَى على خيل نشاوَى كأننا
وآسيافنا لم نستفق من تساكر
تظلّلنا الرايات وهي خوافقُ
على كل رِئبال بخفّاق خادر
وحشو القباب الحمر بيضٌ أوانس
عفيفات ما تحت اشتمال المآزر
يطالعن من بين الشفوف كأنما
يطالعن خِلسا من كِمام الازاهر
اذكّرك العهد الذي كان بيننا
وان كنت عنه ساليِاً غير ذاكر
أَلَمْ يعلق التوحيد قلبَك ناشئاً
أَلم تتكفّل حفظ تلك الاواصر
وكنتَ تجيرُ الناسَ في خير دولة
فاصبحتَ جاراً في هلال بن عامر
وكنتَ كليْثِ الغاب عِزًّا ومعنةً
فصرتَ كامثال الرئال النوافر

وكنتَ نزيــل الملك تجني ثمــارَه
أفــانينَ من أفنــان ريّان ناضر

وكنتَ تلقى العزَّ تحت ظلاله
فهـا انتَ تلقى الذلَّ تحت الهواجر

وكنت ترى الآبال كوماً غضاضةً
فـاصبحت في اتبـاع شاء وباقـر

تبّدلتَ بالسهلـيْن والعطف زاغـراً (١)
وبالصافنـات الجـرّد جـرُبَ الاباعر

كأنْ لم تجـرّر في زرود (٢) وصبرة
ذُيولَ التـصـابي في حِسَانٍ غـرائر

---

(١) (السهلين) و (العطف) أسماء أماكن غير بعيدة عن القيروان ، و (زاعر) بلاد متسع يقع بصحراء بلاد الجزائر في جنوب جبل طيري ،

(٢) (زرود) واد كبير ياتي من ناحية تبسة وينسرح في بسائط القيروان من قبليها (وصبرة) وتسمى المنصورية ، مدينة أحدثها اسماعيل المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ ، تقع في جنوب القيروان وتبعد عنها نحو الكلوميتر ـ و كثيرا ما يقصد بصبرة مدينة القيروان نفسها لانه في وقت ما اختلطت المدينتان ببعضهما ،

ولم تَلْهُ خطّاراً بِأكناف عَمْرَة (١)
ولم تُثنِ بالقصريْن أعصافَ ضامر
ولم تُدرك الاوتار بالقرن (٢) غالِباً
ولم تقِض بالالواح أوطار زائر
عزيز علينا ـ يا عنان ـ ضلالة
حدت بك لا تلوي على زجر زاجر
تبصّر ولا تحمل على النفس غيّها
أُعيذك من كرّات دهرٍ جواسر
فديتك لا تَشرِ الضلالة بالهدى
فديتك لا تَشرِ العمى بالبصائر
وما العَربُ العرباء الاّ بعهدها
فمن كان أوفى كان أوّلَ فاخر
فكم حفظت من ذمّةٍ قوس حاجب
وكم مَثَلٍ أبقى السموألُ سائر

---

(١) (عمرة) فحص متسع جدا في اواسط البلاد التونسية- (والقصرين) مدينة عتيقة في الجنوب الغربي من البلاد التونسية .

(٢) (القرن) جبل عال في الجنوب الغربي من القيروان، اسماه موسى بن نصير الوالي الاموي بهذا الاسم ، ويعرف الآن (بجبل الباطن) يعني باطن القرن .

كذلك كان الناس يوفون فابتغوا
سبيلَ الوفاء كابراً اثر كابر

وفي يوسف الوافي عليهم زيادة
أبي هجرس الندب الصفي المثابر

رأى الرشد حيث العزّ ألقى جِرانه
فخيّم مثواه عزيز المجاور

رأى الغيّ من يتبعه يضلل سبيله
فآوى الى ظلٍّ من الحق باهر

غلام غذاه [العهد] مذ كان يافعاً
فوفّى وما وفّيت يا للعشائر

وكم فتيَة من آل منصور أسعدوا
لدى خير منصور وأكرم ناصر

لدى مَلِك يعفو ويغفر دائماً
فأين الفرار من عفوٍّ وغافر

ومن تنفعَ الذكرى تَلَافَى تَلَافَه
وكَشّف عن وجهٍ من الرشد سافر

هدتك الهوادي ـ يا عِنان ـ وأمطرت
ذراك الغوادي بين بادٍ وحاضر

جواب عِنان بن جابر عن قصيدة الحاجب :

خليليّ عوجَا بين سلع وحاجر
بعوج [١] عناجيج نَواجٍ ضوامِر

قلاص [٢] خماص شازبات عرامس
مواضٍ نواضٍ مرقلات عوابِر

طوال الهوادي [٣] لا يخفنَ تنوفة
هَمَلَّعة الاطراف هدل المشافر

وعوجَا على دار لنا في جنابها
أَفانين لهو دائم غير دائر

---

(١) العوج ،ج عوجاء : هي الناقة الضامرة ، و العناجيج : الابل المختارة، واحدها عنجوج بالضم . والنواجي السريعة تنجو براكبها .

(٢) القلاص ج قلوص : الصغيرة من الابل . الخماص : الضوامر ، و في الحديث : « الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . والشازبات ج شازبة وهي الضامرة أيضا . والعرامس ج عرمس : الناقة الشديدة الصلبة . والمواضي : المسرعات في سيرها . ومثلها النواضي . والمرقلات التي ترقل اذا مشت ، والارقال : ضرب من السير الحثيث . والعوابر : النوق التي تعبر بركابها البر كما تعبر السفن في البحر .

(٣) الهوادي : الاعناق . والتنوفة . المغارة . وهملعة الاطراف ، أي سريعة حركة الاطراف ، يريد يديها ورجليها . هدل المشافر : أي مسترخيات الشفاه ، وهو ما تمدح به الابل عند العرب .

بجـــدّ وشيج (١) واختلاف سلاهب
وجمع غـــادات وغان وسامر

وقولا لسعدى والرباب هل انتما
على العهد أم ساعدتما زجر زاجر

وهـــل فيكما موفٍ بوعــــدي وقلّما
يكون الوفا من صامتات الاساور

خليليّ مـــالي كلّما رُمتُ سلوةً
دعاني منادي الشوق دعوة جابر

ولما رأيـــت الودَّ قد بان وانقضى
دعوتُ ونار الشوق تغزو ضمائري

ألَا ايها الغـــادي على متن ضامر
سليم القرى (٢) عبل الذِراعين فاطر

يزف (٣) زفيف الخاضبات وينثني
كحِقف لحتها لافحات الهواجر

---

(١) الوشيج : المختلط من الرماح بعضها ببعض - السلاهب ج سلهب : الفرس الطويل - السامر : القوم يسمرون .

(٢ . القرى : الظهر - الفاطر : البعير الذي فطر نا به اي طلع .

(٣) يزف : يسرع ، و في القرآن : فاقبلوا اليه يزفون - الخاضبات : ذكور النعام التي أكلت الربيع فاحمرت سوقها - الحقف : ج احقف وهو حمار الوحش [؟] - لحتها لافحات : اي ان الهواجر قشرت جلدها ، ولحا بمعنى قشر ، والهاجرة جمعها هواجر : شدة الحر في منتصف النهار .

عليـــه غـــلام لا يملّ من السُّرَى
علیم خبـــير بالصُّوى (١) والمخاطر

تحمَّلْ الى « ترشيش » (٢) عنّى تحيـــةً
كما سلّم الاحباب عنـــد الـتزاور

(بـــلاد بها نيطت عليَّ تمـــائمي
وفيها نَمَا عقلي ولُبِّي وخاطري (٣))

وبلّـغْ لنـــدب (٤) أريحي سميـــدع
سلامـاً يـؤدَّى عن عنـان بن جـابر

الى الماجد الأسنَى الى فارس الـوغى
مروىّ القنـــا يوم التقـــاء العساكر

أبي عـــابـد الله الكريم نجـــاره
حليف الايادى والنـــدى والمـآثر

---

(١) الصوى صوة : الاعلام من الحجارة العالية ـ المخاطرة ج مخطر : اي موضع الخطر .

(٢) تـرشيش : اسم لمدينة تـونس قديما .

(٣) هذا البيت لابن ميادة الشاعر تمثل به هنا عنان بن جابـر

(٤) الندب : السريع الاجابة لما يندب اليه ـ الاريحى : الذى يرتاح الى المعروف ـ السميدع : السيد الوطىء الاكناف .

بعثت أبا عبد الاله بدائع
محبّرة منظومة كالجواهر
تذكّرني الودّ الذي كان بيننا
وتزعم أني سالٍ غير ذاكر (١)
ليال وايّام نعمنا بوصلها
على كرم منا وحفظ سرائر
وكنّا إذا ما الجيش صفّت جنوده
تراانا على خيل عتاق ضوامر
عِراب طِرابٍ صافناتٍ سلاهب
خفاف التوالي مدمجات الحوافر (٢)
نجرّ القنا المرّان فوق خدودها
نقدّمها للطعن لا عن تشاجر

---

(١) قوله : تزعم اني سالي ردة الى الاصل فحركه

(٢) العراب من الخيل : العتيقة غير الهجينة ، و (الطراب) : التي في سيرها خفة ونشاط . وفي صحاح الجوهري : ابل طراب : نازعة الى أوطانها. و (الصافنات) : التي تقف على ثلاث من قوائمها و تثني الرابعة ، و في القرآن الكريم : (اذعرض عليه بالعشي الصافنات الجياد)

و باقي القصيدة و اضح المعنى لا يحتاج الى تفسير .

نخوض وغاها والقنا تقرع القنا
بكل حسام مشرفيّ وباتر
فلما بدا لي بعض ما كنتُ أتّقي
وحانت أمور ضيّقات المصادر
وعادت عليّ الأرض حلقة خاتم
بلا ذلّة مني سوى طوع آمر
رأيت رجالاً من رياح ومالك
وَعوْف ودبّاب وزُغب وماجر
لهم مقرب دوني وقد كنت قبلهم
بسيفي ورُمحي في الوغى وعشائري
تَبَيَّنْتُ حالا لا أطيق احتمالها
فحِدتُ بنفسي عن عدو وجائر
وسلّمت أرض الشرق لا عن مذلّة
ويمَّمتُ أرض الغرب لا عن تخائر
الى بلدٍ لا يعرف الذّلَ أهله
كرام الحشايا من هلال بن عامر
فسقياً لها من بلدة جادها الحيا
ولا زال فيها واكفات المواطر

بـــلاد بهـــا للغـــانيات مراتِـع
منمنمـــة أكنافهـــا بالازاهـــر
وعِزّ يصون النفس عن طارق الاذى
ويحمي الفتى عن جور بادٍ وحاضر
تـوافي إليـنـا كل يوم قبـائـلٌ
موشـحـة بالماضـيـات الـبـواتر
فمنها صـديق صـادق الودّ منصف
ومنهـا عـــدو كاشـح غير ناصر
فمن كان منّا نال عـزًّا ورفعـــة
و من حـاد دسنا أَرضـــه بالحوافر
فـــلا لـومَ أنّ الجـــود فـيا فعلتُه
فَلَلْموت أَحـــلى في ا لحشـا والحناجـر
من الذلّ إن الذلّ عـنـا بمعـــزل
وما شأننـــا غير اكتساب المفاخر
وفي الارض أوطـان ومـاوى ومسرح
وفي الناس من يُرْجَى لدفـع الضرائر
وسيفي ورمحي واعـترائي وسابقي
ودُرعي وقومـي كالاسود الهـزابر

حميتَ ـ أَبَا عبد الاله ـ من الاذى
ولا زلت تسمو في جميع المآثر

وعقب هذه المراسلة التحق (عنان بن جابر) بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن بمراكش محرضا له على محاربة آل بني حفص ملوك إفريقية ، لكن المقادير حانت دون وصوله الى مرغوبه إذ أنه هلك في سبيله هذه ، ومات بمدينة « سلا » من بلاد المغرب ، ولم ينل ما كان يصبو إليه (١) .

الاصمعيات

رأيت ـ أيها القاري الكريم ـ أن عنان بن جابر بنى قصيدته المتقدمة على قواعد علم العروض المعروفة ، كما راعى فيها شروط الإعراب ، وهذا قلما ياتي في الاشعار المنسوبة الى بني هلال وبني سليم حين نزوحهم إلى إفريقية ، بل الغالب على قريضهم ـ وان روعيت في كثير منه الاصول العروضية ـ أنه كان خاليا من الاعراب الكامل ، حسبما جرت به العادة في كلام جميع الاقطار الناطقة بالضاد من اول القرن الثاني للهجرة وربما قبله . وقد نقلنا لك فيما سبق راي ابن خلدون في الموضوع .

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون : فصل الخبر عن بني سليم وتصاريف أحوالهم

ونود أن نضيف الى ذلك ـ اتماما للفائدة ـ ما أورده ـ رضي الله عنه ـ في التعريف بأساليب الاعراب الضاعنين الى افريقية في قريضهم البدوي وطرائقهم في اشعارهم الخالية من الاعراب ، قال : [١] .

« فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم المستعربون فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بـ « ألاصمعيات » نسبة الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بـ « البدوي » [٢] » .

---

(١) المقدمة ، فصل في اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد ص ٥٧٧ .

(٢) أقول : تسمية الاشعار الشعبية عند اعراب الحجاز ونجد (بالبدوي) كانت في أيام ابن خلدون ، يعنى في القرن الثامن للهجرة ـ أما الان فان أشعارهم من هذا النوع تنعت (بالنبطى) نسبة الى النبط ، وهم قوم عدهم العرب « عجما استعربوا أو عربا استعجموا » ـ كما ان هذا الضرب من الشعر يسمى في اليمن وحضرموت (بالحميني) ولا أدري وجه نسبته .

ثم قال : وأساليب الشعر وفنونه موجـودة في اشعارهم هذه ، مـا عدا حركات الاعراب في أواخر الكلم،فان غالب كلماتهم (اي قصائدهم) موقوفة الاخر،ويتميز الفاعل من المفعول ، والمبتـدا من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعـراب اهـ

والحقيقة التي لا مراء فيها ان العربية وجدت نفسها ـ قبيل ظهور الاسلام ـ بين لهجات مختلفة تعود باصلهـا الى لغتين كبيرتين ، الاولى : لغة « عدنان » وتعرف ايضا بلغة مضر ، وهي لسان اهل الحجاز ونجد وما والاهما من شمال الجزيرة العربية .والثانية : لغة « قحطـان » سكان جنوب الجزيرة يعنى اليمن وحضرموت وما والاهما ،واللغتان الشماليـة والجنوبية ، وان كانتا في ارومتها من دوحة واحدة واصل متحد،فقد تختلفان في مفهوم كثير من الالفـاظ وفي كيفية النطق ببعض الحروف. وهذا الاختلاف مشهور معروف أبان أسبابَه علمـاء اللغـة والنحو من عصر جمع مواد اللغـة العربية في القرون الاولى من الهجرة ، ونسبـوه الى تغاير اللهجات التي كان يتكلم بهـا القبائل ، وهـذا صحيـح واضح لا يحتاج الى بيان .

ودأبت كل قبيلة متمسكة بلهجتها وبنطقها الخاص الى ما بعد ظهور الاسلام ، فلما جاء عصر الفتوح ، وقد اشترك فيها أبناء جميع القبائل أدخـــلوا الى الامصار المفتوحة مختلف لهجاتهم بما فيها من التبـــاين

والفوارق ، واستوطن الكثير منهم في العواصم الموجودة في البلاد، أو التي خططوها بأيديهم . وبعد حين من الزمن امتزجت لهجاتهم بعضها ببعض وكونت في كل جهة من جهات العالم العربي الجديد لغة حضرية تتميز كل واحدة عن غيرها بالمؤثرات الاقليمية وبالنطق المحلي ، بالاضافة الى ما تخللها من المفردات المقتبسة من لسان الاهالي الاصليين، شأن تطور كل لغة عند انتقالها من أمة الى أمة . ومن إقليم إلى إقليم آخر . فكان ذلك السبب الاول في ايجاد الخلاف المشاهد الآن في اللهجات بين الاقطار المتكلمة بالعربية .

* * *

ومن المناسب ان نأتي هنا بأمثلة مما بلغنا من اقوال الاعراب الهلاليين بعد دخولهم المغرب ، فمن قول بعض شعرائهم يفتخر بقومه من « دريد » ويحن الى منازل القيروان ـ وهي صبرة ـ التي حلوا بها لاول مقدمهم :

تحنّ الى أوطان صبرة ناقتي	لكن مع جملة دريد حُوارها
دريد سراة البدو للجود منقع	كما كل ارض منقع المآء خِيارها
وهم عرّبوا الاعراب حتى تعرّفت	بطُرق المعالي ما يوفي قصارها
وتركوا طريق البارمين ثنيه	وقدكان ما تقوى المطايا حجَارها

ومن مروياتنا الخصوصية عن صديقنا المرحوم «محمد أحمد علان» رائد الصحراء الكبرى وخبراتها ، قول الجازية - وتسمى سعدى أخت حسن بن سرحان أحد أقيال هلال ورئيس عشيرة دريد - تخاطب ولدها الصغير و تنصحه :

لا خير في الطفل الصغير إذا نشا وكان رقّاد كثير همائده

إذا ما قضّ الشرق والغرب السوا وقطّع بين الثنايا مزاوده

إما يموت ويرتاح من عيشة الردى والاّ يعود كما الصقر مالي مخالبه

وفي هذا القول من بديع التشبيه ما يكفي للدلالة على بلاغة البدو الخالية من الاعراب .

ويلاحظ أن الجزء الرابع [؟] من هذا المقطوع على غير روي الأجزاء الثلاثة المتقدمة [؟] ، وهذا من مذاهب قريض الاعراب وأساليب شعرهم . وقد تنبه الى ذلك ابن خلدون حيث يقول :

« ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيؤون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة تشبيها بـ « المربع » و « المخمس » الذي أحدثه المتاخرون من المولدين . »

لنعد الى أقوال بنى هلال وبنى سليم، فانهم ينسبون إلى «الجازية»[١] هذه كلاما منظوما كثيرا في معنى الحكمة والموعظة ، وفيه من حسن الديباجة وحلاوة التعبير ما لا مزيد عليه .

وكان للجازية من الجمال البدوي الباهر ، ورصانة العقل ورجحان التفكير ما يجعلها بطلة « الزحفة الهلالية » وابرز ذواتها عندهم . فمما يحكى أنها كانت ذات يوم في خيمتها ، وقد نظرت الى وجهها في المرآة فاعجبها جماله وصباحته ، وخطر ببالها أن زوجها بدرا - ويدعى عندهم بدران - شيخ كبير علا رأسه الشيب ، ففاهت بعبارة تحسر على شبابها ولم تنتبه أن زوجها بدران كان من ورائها ينصت الى حديث نفسها ، فقال على البديهة يخاطبها :

تعايرني جزاة الناسْ أختُ أَبو علي
تقول شبت ، يَا بَدر ، انّ شيبك لَاح

فقلتْ : ما في الشِيب شيٌ يعيبني
ولكن أيام الشَّباب صبَاحْ

حنَّا إِذَا شِبْنَا وشَابتْ لِحَانَا
نَاخذوا من سودِ العيونْ مَلاحْ

---

(١) راجع شيئا من ترجمة (الجازية) في تأليفنا « شهيرات التونسيات » طبع تونس ١٩٣٤ ص ٥٦ - (×)وص ٩١ -٩٣ طبع تونس ١٩٦٦ .

وأنْتُنّ إذا شِبْتِنْ وشَابَتْ شُعُورُكُنْ
تَغْدُنّ كَرَادِيسْ حَلْفَا فِي سنِين شِحَاحْ

فانظر - يا رعاك الله - الى قوله: (كراديس حلفا في سنين شحاح) وما فيه من التشبيه الغريب ، مما يذكرك باشعار الجاهليين. ثم انتبه الى المحافظة على « نون النسوة » في كلامهم . وما زالت هذه النون مستعملة الى يوم الناس هذا في تخاطب أعرابنا المتوطنين الان في الناحية الجنوبية من البلاد التونسية، فهي جارية على ألسنة قبيلة « المحاميد » و « المرازيق » و « أولاد يعقوب » وغيرهم ، فيقولون مثلا : (النساوين يشربن) و (ياكلن) و (يغزلن) وقس على ذلك ، لكن هذه النون ضاعت من لهجة أعراب شمال القطر التونسي ووسطه ، ولم يحتفظ بها سوى عرب الجنوب منهم .

وفيما عدا تونس نرى « نون النسوة » منتشرة في كلام الاعراب المقيمين في ناحية طرابلس وبرقة من الهلاليين والسليميين ، وهي مبثوثة في أقوالهم الشعرية ، ونجدها سائدة ايضا في كلام الأعراب من بني سليم المستقرّين الآن بمصر في جهة الفيّوم والبهنسى من الصعيد . وقد سمعتها بنفسي من افواههم في تخاطبهم . وما زالت كذلك رائجة في لهجات عرب الحجاز ونجد وتهامة وبين عشائر العراق والشام وفي اليمن وحضرموت وما والاها من الاصقاع العربية الاخرى .

وكم كنا نودّ لو كان لدينا من أشعار أعراب الحجاز - أجداد الهلاليين وبني سليم - ومن بقاياهم قبيلة «حرب» المخيمة الان بين «جدة» و« مدينة الرسول » ، اذن لتمهدت لنا السبل للمقارنة بين اقوالهم الحالية واشعار اسلافهم المنتقلين الى افريقية في اواسط القرن الخامس .

وسمعت انا في احدى زياراتي الى الحجاز بدويا من قبيلة « حرب » يحدو جماله ببيتين من الشعر ، أثبتهما هنا ، ولادري أكان الجمّال هو القائل لهما أم هما من محفوظه ، وهو الغالب على الظن :

وظبيان من وادي تهامة اقبلا وقالا لنا حِنّا نبي منكما حِنّا
فقلت : ابسطا كفيكما وتخضّبا وحِنّا على المُضنى بوصلكما حِنّا[1]

وفي هذين البيتين من الجناس الكامل ما هو ظاهر .

ومن المفيد هنا أن نورد مقطوعة من الشعر العامي التونسي قيلت بلا شك في العصر الحفصي[2] كما تدل عليه ألفاظها وسبكها ، والشيء يذكر مع ما يجانسه ، وهي[3] :

---

(١) قوله في البيت الاول : حنا بمعنى نحن - و حنا الثانية : اسم الحناء النبت المعروف - و حنا في البيت الثاني من الحنان - وقوله : نبى أي : نبغى

(× ٢) هذا المقطع ختم به لسان الدين بن الخطيب أحد موشحاته في المدح وأن ذلك كان مقالة بائعي التمر إذ ذاك . انظر أزهار الرياض ١ : ٣٨٦ ونفح الطيب ٧ : ٦٨

(٣) انظر رسالة « المنطق الحضرى » تأليف الشيخ المرحوم محمد النيفر - ط تونس ١٣١٢ ص ٥ - وقوله : سجلماسة يعنى بها البلاد الكائنة في الجنوب الشرقي من المغرب الاقصى ، وتسمى الان : تفيلالت

غَرَّبتك الجمالُ يا حفصهْ ... من مكان بعيد
من سجلماسه ومن قفصهْ ... وبلاد الجريد

ومن المؤسف جدًّا أن لم يصل الينا من الاشعار الحضرية التونسية الا هذه القطعة . اما اشعار البادية من كلام الاعراب الهلاليين فقد تعهد ابن خلدون بايراد قسط كبير منها حسبما ياتي بعد .

وليس لدينا من الاقوال الشعبية للحضر في العهد الحفصي الا ما ينقل من كلام الشيخ الصالح « احمد بن عروس » المتوفى ٨٦٨ هـ . وزاويته مشهورة بالحاضرة التونسية ، مثل قوله :

صوّبت للواد نشرب ... وطلعت من ثَمْ ضامي
كلّمت من ليس يفهم ... أوَّاه ! خسارتْ كلامي

وله أشعار كثيرة من هذا النمط ساق البعض منه مؤلف مناقبه الشيخ عمر الراشدي . وقد أكد أنَّ ما قاله الشيخ من الملحون « لا ينافر الميزان العروضي ولا يخرج عنه لموافقته وزن الرجز من الاوزان » [١]

---

(١) انظر كتاب « ابتسام الغروس ، في مناقب سيدي أحمد بن عروس » طبع تونس ١٣٠٣ ص ٢٤٣ و ص ٥٠٦

الأعراب أهـل « الـڨــالة »

وهناك مظهر آخر يستحق الانتبـاه إليه وهو ان بني هـلال وبني سليم المستوطنين في البلاد التونسية،سواء أهل الجنوب منهم او الشمال ، ينطقون دائما أبدا « القاف » بصيغة القاف المعقودة « ڨ » كما هو جار عند جميع الاعراب في اطراف العـــالم العربى ، من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلنطي . ولهـذا السبب نفسه يطـلق أهــــل الحواضر التونسية اسم «أهل الڨالة» على أعرابنا. ولا يخفى أن أصحاب القراءات القدامى أكّدوا أن أهل البيت النبوي كانوا لا ينطقـون الا بالقـــاف المعقودة حتى في تلاوتهم للقرآن الكريم .

ومن المفيد جدّا أن نرجـع في هذا الخصوص الى ما رواه علامتنـا ابن خلدون عن نطق العرب بحرف القاف ، قال : [١]

« ... ومما وقع في لغة هذا الجيل العربى لهذا العهـــد حيث كانوا من الاقطار شأنهم في النطق بالقاف ، فانهم (اي الاعراب) لا ينطقون بها من مخرج القاف عنا أهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربية ... بل يجيؤون بها متوسطة بين الكاف والقاف . وهو موجود للجيـــل

---

(١) المقدمة : (فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة) ص : ١٢٧٣

أجمع حيث كانوا من غرب أو من شرق ؛ حتى صار ذلك علامةً عليهم بين الامم والاجيال ،ومختصًّا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم . حتى أن من يريد التعرّب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحا كيهم في النطق بها . وعندهم انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف.ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها،فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا من ولد منصور بن عكرمة . . بن سليم بن منصور (أي بني سليم) ومن بني عامر بن صعصعة .. بن هوازن بن منصور (بني هلال) . وهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم ، وهم من أعقاب مضر . وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة .وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة.ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الاولين ؛ ولعلها لغة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعينها ، وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت . وزعموا ان من قرأ في أم الكتاب : (اهدنا السراط المستقيم) بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته . ولم أدر من أين جاء هذا ؛ فان أهل الأمصار أيضا لم يستحدثوها وإنما تناقلوها من لدن سلفهم ،وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضا (اين من الاعراب) لم يستحدثوها إلا أنّهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الامصار . فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة

لديهم أنه من لغة سلفهم . هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها ، وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من المجين الحضري ، فتفهم ذلك ، والله الهادي المبين ، اهـ .

أقول إن شأن هذه القاف غريب في تقلبات نطقها على مر الدهر ، فقد تقلب الى (أ) في كثير من المدائن العربية المتحضرة ، مثل مدائن المغرب الاقصى وتلمسان ، وكذا كان أمرها في كلام أهل غرناطة بالاندلس ، وفى جزيرة مالطة إلى الآن . وفي قسم كبير من الاقليم المصري وغيره .

وفي اعتقادنا أن هذا النطق يرجع إلى عوامل حضرية بحتة،لان أهل المدن في سائر المعمورة يميلون غالبا الى ترقيق الحروف في مخارجها تسهيلا للتلفظ بها .

ويتلخص مما تقدم أن حرف القاف في هذا العهد لها ثلاثة وجوه في النطق بها : (قاف حضرية) كما ينطق بها أهل مدينة تونس و (قاف معقودة) كما هي عند الاعراب شرقا وغربا ، و (همزة) في كثير من الامصار .

وفى غير (القاف) اعتبر التغاير الملحوظ في النطق بحرف (الجيم) كيف يتحور ويتباين من ناحية إلى أخرى ، فبعضهم يلفظ بها كالقاف

المعقودة(ڤ) والبعض يجعلها جيما ليّنة ـ كما في تونس ـ والبعض الآخر ينطق بها (جيما معطشة) إلى حد أن يصير مخرجها ما بين التاء والشين مثل الجيم التركية كما هو الشان عند عرب الصعيد والعراق ، إلى غير ذلك من الاوضاع التي يكسبها النطق في سائر البلاد العربية .

هذا ، ولا تظنن أن اختلاف النطق ببعض الحروف مما انفردت به العربية بل هو مشاهد في كل اللغات الكبيرة في العالم ، خذ مثلا الامم الجرمانية فإنها غير متفقة ولا متحدة في التلفظ بحرف « الكاف » فقد يكون أحيانا (ك) وتارة (خ) وأخرى (ش) في الكلمة الواحدة في مثل اسم المدينة الالمانية المشهورة ، فقد يلفظ بها (مونيك) و (مونيخ) و (مونيش) وقس عليه .

وهذا التغيير وأضرابه لا يدخل تحت حصر إلا لمن يعالج البحوث اللغوية والصوتية خاصة منها حروف الصفير .

ومن باب إبدال نطق حرف بآخر في اللهجة التونسية : قلب الجيم إلى الزاي ، فيقولون مثلا في لفظ : عجوز (عزوز) ـ وفي الجزار (الززار) ـ وفي المجاز (المزاز) ـ وفي فعل جاز (زاز) وفي مضارع يجزي (يزي) بتشديد الزاي ، وقس على ذلك . ولا يقع

هذا الابـدال إلا في الكلمات الـتي في متنهـا (ج) و (ز) و (سين) من حروف الصفير . وهي قاعدة مطردة تـكاد لا تختلف في جـزء عظيم من أقاليم المغرب كالبلاد التونسية وطرابلس وبرقة .

وفي اعتقادنا أن عرب هلال وسليم إنما قلدوا الامم البربرية في اتخاذ هذا النطق . وقد يفيدنا ابن خلدون عند تفسيره لاسم « زناتـة » : « أن أصلها مشتق من (جانا) وهو أبو القبيلة ، فجمع أهـل القبيـلة في اسم (جاناتـــة) ولم يكن نطق البربر بهذه الجيم من مخرج الجيم عند العرب . . فهم (أي البربر) يبدلونها (زايا) محضة . »

وأمثلة هذا القلب كثـيرا مـا تجري في لغة التخاطب الشائعة لدى البـدو والحضر على السواء .

ولسنا نقصد في هذه العجالة دراسـة مخارج الحروف ومـا يعتريها من القلب والابدال ؛ فقد وضع في هذا الغرض عشرات المؤلفات . وانما تعرضنا لبعض العوامل النطقية التي تدخل بكثرة في المفردات الواردة في الاشعار الشعبية فتظهر في مظهر الغلط والوهم لمن لم يستوعب تطور اللهجات العمومية ومـا يعرض لحروفها من القلب والتغيير .

* * *

وإذا ما وصل بنا البحث لهذا الحد فلنضع بين كفتي الميزان ما قام به أعراب بني هلال وبني سليم من الفساد ، وتخريب المعالم ، وتعطيل الحضارة النضرة التي كانت تتمتع بها إفريقيـة قبل مجيئهـم ، وقضائهم على الامـن العام الذي كان سائدا في البلاد ، وتقويض السلطة الحاكمة المحلية التي سعت وسعها للنهوض بالقطر والرفـع من شأن سكانـه في شتى الميادين المادية والادبية ؛

وما كان لهؤلاء الاعراب من مزية تذكر ، فإنا نرى أنهم أسدوا إلى اللغة العربية في عموم المغرب ـ وفي إفريقية خاصة ـ أجل الخدمات ، إذ أنهم بامـتزاجهم بأقـوام البربر الاصليين أجبروا العنـاصر الاهلية ـ بحكم الغلبة ـ على استعمال اللغة العربية في تخاطبهم بـدلا من لهجـاتهم البربرية التي لم تزل وقتئذ رائجة في جميـع البلاد،فأخذت من ذلك الحين في التقهقر رويدا رويدا أمام لغة المهـاجين . والتجأت بقاياها إلى الجبال والمعاقل المنيعة . لكن العربية البدوية لحقتهم هنالك وزعزعت منعتهم، وتسربت الى أبنائهم وأحفادهم فاضطرتهم إلى استعمال العربية خاصة، وتقليد أوضاعها وآدابها وأشعارها .

وقد أثبـت ابن خلدون سريان اللغـة العربيـة قسرا الى القبائـل

البربرية وتغلغلها بينهم عندما تكلم على « هوارة » وهي من أضخم مجموعاتهم ، فقال :[١]

« وصارت قبيلة هوارة ظواعن في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي ، وسكنى الخيام ، وركوب الخيل ، وكسب الابل ، وممارسة الحروب ، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، وقد نسوا رطانة البربر ، واستبدلوا منها بفصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم » .

فهذه المزية العظيمة هي الوحيدة التي يمكن أن توضع في ميزان الاعراب إذ أنهم فرضوا لغتهم العربية على سكان البوادي والارياف فرضا دائما مستمرا . وبفضل ذلك أيّدوا بصفة نهائية ما كان قام بنشره عرب الفتح العربي في الحواضر والعواصم الافريقية أربعة قرون قبل هذا العهد .

واعتبر أيضا تمسك بقايا بني هلال وسليم بتقاليدهم العربية لا في اللغة فحسب بل في كل مظاهر الحياة الاجتماعية كعادتهم في الافراح

---

(١) تاريخ ابن خلدون : فصل في اخبار البرانس من البربر في أخبار هوارة .

والاتراح وحتى في ألعاب صبيانهم المنقولة عن سكان جزيرة العرب .

والواقع أن هذا الموضوع الهام يحتاج الى دراسة عميقة واستقصاء شامل يجتهد فيه الى إبراز خصائص تلك التقاليد الموروثة ، وعن اصولها ، وإظهار خفاياها للعيان .

ولله در ابن خلدون في لفته النظر إلى أهمية هذا النوع من الابحاث، حيث يقول : « وكثير من أمثال هذه الاخبار التي لو انصرفت اليها عناية الناقلين لملأت الدواوين » .

وأرجو أن يتاح لسواي من الباحثين ما لم يتح لي من البيان في الموضوع . واني لأرجو أخيرا أن يحقق هذا الغرض شبابنا المثقف . وليس ذلك على همته الوطنية وغيرته على تراثه القومي بعزيز ! .

●

مشاهـير الـقوّالـين

من المناسب جـدا لموضوعنـا أن نشير إلى بعض من الشعـراء القوّالين من الأعـراب الهلاليين والسليميين الذين اشتهروا بالقريـض الملحون في مدة الدولة الحفصية بتونس . وقـد أورد ذكرهم عبد الله التجاني في رحلته وابن خلدون في تاريخه ومقدمته ، منهم :

١ ـ « قائد بن جرير » شيـخ اولاد وشاح ، وقيل من المحاميـد ، قال ابن خلدون : « كان من فرسان العرب المشاهير ، وله شعر متداول بـينهم لهـذا العهد : سمر الحي وفكاهة المجالس » وكان يعيش في أيام أبي زكرياء الاول من بني حفص .

٢ ـ « رحاب بن محمود بن طوق » المرداسي ، من وجوه بني سليم حاول القيام بثورة على الدولة الحفصية ، فاعتقله أبو زكرياء في مقـره من بلاد الزاب ، ثم أشخصه مع ولده الى المهدية وأودعهما سجن المطبق بها الى ان توفيا .

٣ ـ « سلطان بن مظفـر بن يحي » الذوادي ، من رؤساء قـبيلة رياح ، ثار أيضا على أبي زكرياء الأول فـاعتقـله / بعد الظفـر به / في

مطبق المهدية ، وكان مظفر هذا متعلقا بابنة عم له ، فقال من كلمة في محبسه يتشوق إلى محبوبته ، ويتأوه لمفارقته لها ولقومه ، حسبما نقل ذلك ابن خلدون في مقدمته ، ننتقي الأبيات التالية من قصيدته :

يَقولُ وفي نوح الدّجا بعد ذهبة	حرام على أجفان عيني مَنَامها
أيا من لقَى حالف الوجد والأسى	ورُوحا هيامي طال ما في سقامها
حجَازية بدوية عربية	عداويَّة ولها بعيدا مرامها
مولعة بالبدو لا تألف القُرَى	سوا عابل الوعسا بوالي خِيامها
ومَرْباعها عشب الأراضي من الحيا	لو اني من الحور الحلايا حِسامها
تسوق بسوق العين مما تداركتْ	عليها من السحب السواري غمامها
وماذا بكت بالما وماذا تَبَلحَطَتْ	عيون عَذَارَى المُزْن عذبا جمامها
كأن عروس البكر لاحت ثيابها	عليها ومن نور الاقاحي حِزامها
فلاةٌ ودهنا واتساعٌ ومنَّة	ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
ومشروبها من مخض ألبان شولها	عليهم، ومن لحم الحوارَى طعامها
فكافأتها بالودّ منّي وليتني	ظفرت بأيام مضت في ركامها
ليالي أقواس الصبا في سواعِدي	إذا قمتُ لاتخطي من ايدي سِهامها
وفرسي عديداً تحت سرجي مسافة	زمان الصبا سرجا وبيدي لِجامها
وكم من رداح أسْهَرَتْني ولم أرَ	من الخلق أبْهى من نظام ابتسامها

وكم غيرها من كاعب مُرجْحَنَّة	مطرّزة الاجفان باهي وشامها
ونار بحطب الوجد توهَج في الحشا	وتوجج لا يطفا من الما ضرامها
أيا من وعدتي الوعدَ هذا إلى متي	فنى العمر في دار عَمَاني ظَلامها
ولكنْ رأيت الشمس تكسف ساعة	ويغمى عليها ثمَّ يبرى غمامها
أرى في الفَلا بالعين أظعان عزوتي	ورمحي على كتفي وسيري أمامها
إلى منزل (بالجعفرية) للذي	مقيم بها ما لذّ عندي مقامها
وتلقى سرَاة من هلال بن عامر	يزيل الصدا والغلّ عني سلامها
بهم تضرب الامثال شرقا و مغربا	إذا قاتلوا قوما سريع انهزامها
عليهم ومن هو في حماهم تحية	من الدهر ما غنّى بقبه حمامها
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى	ترى الدنيا ما دامت لأحد دوامها

٤ ـ « خالد بن حمزة » شيخ الكعوب من أولاد أبي الليل ، عاش أواسط القرن الثامن للهجرة ، ومن قوله في معاتبة قومه :

يقول بلا جهل فتى الجود خالد	مقالة قوّال وقال صوابْ
مقالة حيران بذهن ولم يكن	هريجا ولا فيما يقول ذهاب
بني كعب أدنى الاقربين لدمّنا	بني عمّ منهم شايب وشباب
جرى عندفتح الوطن منا لبعضهم	مصافاة ودّ واتساع جناب
وحزْناحِمِي وطن بـ « ترشيش » بعدما	نفقنا عليها سبقا ورقاب

ومنها :

وعن فاتنات الطرف بيض غوانج رُبوا خلف أستار وخلف حِجَاب
يتيه إذا تاهوا ويصبو إذا صبوا بحسن قوانين وصوت رباب

ويختمها بقوله :

أيَا واكلين الخبز تبغوا إدامه غلطتوا أدمتوا في السموم لبَابْ

٥ ـ « شبل بن مكيانة بن مهلهل » من رجالات القرن الثامن .

٦ ـ « علي بن عمر بن إبراهيم » من رؤساء بني عامر من زغبة ، كان حيا أواسط القرن الثامن معاصرا لابن خلدون ، ومن قصيد له يعاتب بعض بني عمه المتطاولين لمزاحمته على الرئاسة :

محبَّرة كالدرّ في يد صانع إذا كان في سلك الحرير نظام
ألا يا ربوع كان بالامس عامر بيحيي وحله والقطين لمام
غيد تدانى للخطا فى ملاعب دجى الليل فيهم ساهر ونيام
ونعَم يشوف الناظرين التحامها لنا ما بدا من مهرق وكظام
واليوم ما فيها سوى البوم حولها ينوح على أطلال لها وخِيَام
وقفنا بها طورا طويلا نسألها بعين سخينا والدموع سجام
ولا صحّ لي منها سوى وحش خاطري وسقمي من أسباب عرفت أوهام

ومن بعد ذا تِدِّي لمنصور بو علي   سلام ومن السـلام سـلام
وقولوا له يا بو الوفـا كلح رايكم   دخلتم بحـور عامقـات دهـام
زواخر ما تنقاس بالعـود إنمـا   لهـا سيلان على الفضـا وأكام
ولا قستموا فيهـا قياسا يدلكم   وليس البحـور الطاميات تُعَام

إلى آخر القصيدة وهي طويلة .

ولكل من هؤلاء الادباء قصائد ومقاطيـع من نمـط « الا صمعيات » التي أسلفنا الكلام عنها . وقد أثبت البعض منها علامتنا ابن خلدون وصلت اليه برواية الصغير عن الكبير ، لكنها وردت في تاريخـه بغير شكل لمفرداتها ، ولذا قد يصعب التلفظ بها كما كان ينطق بها اصحابها . ومهما يكن ففي غضونها يجـد الباحث البصير كثيرا من العبـارات المستعملة في اللهجة التونسية الحالية مما يميزها عن غيرها .

وقد يلاحظ الواقف على هذا النوع من « الاصمعيات » انه لاتراعى فيه قواعد الاعراب ، ولا يلتزم فيه قائله النحو والصرف في المفـردات إن اقتضى الوزن تانيث المـذكر أو تذكير المؤنث ، أو قصر الممدود ، أو مخالفة القياس فى الجمع والمفـرد ، بل يجرّ الفعل المضارع إن أتى في قافية مجرورة . ولا تعجب إذا وجدت الكلمة مشددة وهي ليست كذلك أو بالعكس ، أو وجدتها والكلام لا يتطلبها ، أو تطرق

مسمعك « لغة البراغيث » ـ وما أكثرها ! ـ أو حصرت قاعدة الاسماء الستة كلها في الواو رفعا ونصبا وجرا ، فلا تعجب فكل هذا فداء لسلامة البيت » .

والواقع أن أشعار الأعراب لم توضع في الأصل لأن تقرأ أو أن تتلى ، وإنما قيلت ليتغنى بها فحسب ، وطريقة التغني بالشعر هي الطريقة العربية الصحيحة من زمان الجاهلية ، فإن الشاعر منهم إذا نظم قصيدة لا يخطر بباله أنها قيلت لأن تكتب أو أن تحفظ ، لكنّه هو أو « صناجته » ينشدها إنشادا في محفل من المحافل ليطرب سامعها أو ليستثير شعوره . وفي هذا المعنى يقول الشيخ حمد الجاسر أديب نجد : « إن هذا النوع من الشعر لا يستلذه السامع عندنا إلا بطريقة التغني ، ولا نجد شاعرا في نجد إلا يتغنى بشعره » .

نماذج مختارة

ولننتقل من ماضي الأيام إلى الحاضر القريب منا ، ولنلتفت إلى أقوال الأدباء الشعبيين الذين عاشوا في جنوب القطر التونسي وفيما جاوره من أرض طرابلس في القرنين الفائتين ، وهم جميعا من أعراب هلال وسليم .

وتتفرع أقوالهم إلى أنواع كثيرة من أصناف الشعر الملحون حسب الأغراض المقصودة بالذات ، فمن ذلك « المخمس » و « المسدس » اللذان أشار إليهما ابن خلدون فى مقدمته كما بيناه فيما سلف . ومنه ما يسمى بـ « القسيم » و « البرق » - وجمعه بروق ، وهو في الغالب في وصف الطبيعة . ومنه : « الموقف » و « الملزومة » وهي تتركب من ملازم - وبه سميت - ولهم نوع يعرف بـ « الزندالي » وهو مخصوص للنسيب والغراميات [1] . ونوع يسمى « المحسوس » وهو مقام على مدخل ويعرف بـ « الركاب » ثم من « جريدة » وهي أصل القصيد [2] .

وأما ما ينعت بـ (العروبي) المشتق أصل اسمه من (الاعراب) فهو مقطوع يتالف من بيتين أو ثلاث (؟) ويقابل في التاريخ الشعري ما كان يعرف بـ « الصوت » في الغناء العربي القديم . وبالعروبي يبتديء القوّال والمغنّي من الاعراب ، وقد قلدهم أهل الحواضر في تلك الطريقة .

(×) (١) الزندالي نوع من الغناء الحضري الخفيف المناسب للحركات الراقصة ولا يختص بالغزليات انظر (الادب الشعبي في تونس) ص ١٢٣ ٠

(×) (٢) الظاهر انه يقصد « المحزوز » وهو نوع يجمع بين القسيم والمزومة - الادب الشعبي ص ١٠٩

ولا يفوتنا أن الأديب القوّال إذا كان من علية القوم وكان مشهورا بين عشيرته بالجاه والشجاعة وعلو الهمـة ، فانه يتحاشى من إنشاد شعره بنفسه في المجتمعات والمحافل ، بل كان يلقّن كلامه الى بعض العبيد السود من توابعه فينشدونه بدله في الافراح [١] .

وهذه عادة عربية قديمة توارثوها جيلا عن جيل من أيام الجاهلية وما بعدها . وقد نعتوا من ينشد بالنيابة عن غيره بـ« الصنّاجة » كما هو معروف فى الأدب العربي الجاهلي والمخضرم .

وفيما يلي نعرض عليك نماذج متنوعة مختارة من الانواع المتقدم ذكرها .

فمن (قسيم برق) من كلام الاديب بلقاسم من عرب الجنوب [٢]

بَرْق ِ ان تبَسَّمْ ِ باذْنْ رَبِّي خَفَّقْ — تَحْتِ الْحْجِبْ عَلَّمْ بْنُورَه تَاقْ

يْشَيِّرْ وْيُومِي ِفي السّمَا مِتْفَرِقْ — يَسْطَعْ يَجْمَعْ غَابْ عَ الْأَرْمَاقْ

تْبَدّلْ تْنَقَّلْ ِفي الشّعَاعْ وْشَرَّقْ — يْغَبّي وْيَظْهَرْ فُوقْ م ِ الاَشْفَاقْ

(×) (١) بقيت هذه العادة عند عرب الحمارنة من ولايـة قابس الى السنوات الاخيرة .

(×) (٢) الطالب بلقاسم الورشفاني من طرابلس وعـاش بتونس وهو من فحول شعراء بداية القرن ١٩ م . والملاحظ أن حرف « القاف » هو من القاف المعقودة في سائر النصوص الواردة .

سِبْقَتْ رْيَاحـه فِي الشَّجَرْ تْفَلَّقْ   دَارَتْ عَجاجَهْ عَامْلَهْ طَوَّاقْ

الْعَمُودْ الْيَا بِسْ مِنْه طَاحْ إِطَّرْشَق   طَاحِ الشّجَرْ وتْحَطَّمَتْ الأَوْرَاقْ

كَمْ مِنْ عَرُوسَهْ فِي اِلْحِجِبْ تِدَرَّق   صَاحَتْ وَقَالتْ نَا نَجْعِي سَاقْ

طِلْعُوا الْبنَاتْ وكُلّهُمْ فِي الازْرَقْ   رَبِّي إِلآهِي تُلْطُفْ بْالاَخْلاَقْ

هَذَا سحَابَهْ مِنْ بْعِيدْ يوَهِّقْ   وَالْبَرْقْ بَاقِي بِالضّيَا خَفَّاقْ

وِالرَّعْدْ صَادِي فِي سْمَاهْ يْنَقْنَقْ   بَكُّوشْ عَجْمِي مَا يْدِلْ أَطْرَاقْ

نِخْزِيهْ مَدْفَعْ فُوقْ حِصْنْ مْرَشَّقْ   وَالاّ صْيُودَه بَيْن زُوزْ أَخْنَاقْ

تِحْلِفْ تْلَاحِيقْ مِنْ الْجَعَبْ تْصَدِقْ   فِي يُومْ خَطْره فِي نْهَارْ نْفَاقْ

خَلَّف حَشِيشَه بِالْخْضَارْ مْفَتَّقْ   دَفْلَه ورَقْمَه مْعَاهُمْ السَّمَّاقْ

حِنَّه، وفَصّ الشِيحْ عفَاه المرتقْ (!)   نَا رايت وُلامَه مَرْتَعْ الفَيَّاقْ

الرّيم فَالِي فِي العفا يِتْفَتَّقْ   لَمّ الطُّيُورْ وجَاتْ لِيهْ افْرَاقْ

فِرْق الْحْبَارَى كِيف طَارْ وصْلْفَقْ   جَاتَه النّعَامَه رَاتْعَه بِالسَّاقْ

جَاتَه النّوَاجِعْ بِالّجحَافْ تِدَّرِق   سَبَّقْ خبِيرَه فُوقْ مِنْ حَمَّاقْ

وَلَّى وبَرَّمْ قَالْ لَهُمْ مْبَلْحَقْ   هَذي حْشَايِشْ صَنْعْةِ الْخَلاّقْ

قَشَّعْ خيامَهْ وقْتٍ تَوَّقْ (!)   صَنَّعْ جحَافَهْ عْلَى ظْهُورِ نْيَاقْ

صبَحْ الصُّبْح الْقُومْ جَاتْ ادَّفِقْ   مِنْ كُلْ شِيرَه نَاصْبَه الاَوْطَاقْ

رْسَمْ بينْهُمْ ضَرْبِ الرْصَاصْ يْدَقْدِقْ
رْقَدْ خَالْهَا رَمْقَاتْ بُو الاَسْمَاقْ

نَاشُوهْ بْحَارَهْ عَلَى الْكْنِينْ تْمَزِقْ
قَالَتْ : خْوِيلِي مَا وْجَدْت فْرَاقْ

وُعَادَتْ تِبْكِي بِالدُّمُوعْ تْغَرِّقْ
يَا نَارْ قَلْبِي سَامْرُو حَرَّاقْ

لَانِي عَلَى ضَرْبِ الرْصَاصْ يدَقْدَقْ
لَافِتْنْ عِنْدَ اهْلِ الْعَرَبْ شَرْيَاقْ

قُولِي عَلَى الْبَرْقِ الْ لَعَجْ فِي الاَغْسَقْ
مِنْ عُقْبِ لِيلَه بِالْمْطَرْ دَفَّاقْ

الطالب (بِالقَاسِمْ) فِي كَلَامِهْ ضَيَّقْ
أَنَا الصِّيدْ الاَدْرَعْ نقْمْةِ الْعِيَّاقْ

ومن « مربع » منسوب الى « زغبيب » أحد مشاهير القوالين بالناحية الجنوبية [١] .

---

(١) هو الحاج محمد زغبيب من « الدويرات » معتمدية تطاوين .

بَرْقٍ انْ لَعَجْ بَانْ شَيَّارْ   يَسْطَعْ بْالاَنْوَارْ
خَفَّقْ خَفَقْ طَالقْ اسْرَارْ   حَيَّف وْدَكَّنْ سَحَابَهْ
حَرَّجْ دْرَزْ بِشْبُوبْ الاَمطَارْ   والرَّعْدْ نَقْمَارْ
سِيلَهْ غَطَّى سَهَلْ وَوْعَارْ   وِتْكَوَّنَتْ بِيهْ صَابَهْ
خَلَّفْ عْشِبْ زِينْ يُخْضَارْ   حَافِلْ بْالاَنْوَارْ
يْجَلِّي عَلَى القَلْبْ الاَكْدَارْ   بِالسَّعْي نِزْلُوا تْرَابَهْ
أَهْلِ الاَعْطَيَّاتْ وَالاَقْدَارْ   الْعُرْفْ وَالْكَارْ
أَهْلِ الْفِتْنَاتْ وَالاَقْهَارْ   لَا يُطْرُوا بِالْخِيَابَهْ
رْحَلْ نَجْعْهُمْ خَلْفِ الدَّارْ   مِنْ بُكْرِتْه سَارْ
نْزِلْ حَطْ فِي صَحْنِ قِيفَارْ   فِي فَجْ موحَشْ سْرَابَهْ
صَفْ العَدُوْ جَاهْ غَوَّارْ   عَلْ سَعْيْهُمْ غَارْ
فِزْعُوا شَيَابِينْ وِصْغَارْ   مِثْلِ صْيُودَهْ غَضَابَه
ظْهَرْ طُفْلْ فِي النَّجْعْ مَا صَارْ   بْغَدْرِي وْبِنْيَارْ
بِطْوِيلْتَه وْسِيفْ بَتَّارْ   نَصْنَصْ حْمَقْ عْلَى اصْحَابَه
صَوَّبْ عَلَى القَومْ مُخْتَارْ   كْمَا جَمْرَةِ النَّارْ
خْرِبْ فِيهُمْ يْمِينْ وْيسَارْ   وَالْغِيمْ كَثَّحْ تْرَابَه
وْقَعْ بِينْهُمْ سُوقْ مِشْوَارْ   وَالسِّيفْ نَحَّارْ

وِالْحَبْ قَصَّافْ الاَعْمَارْ مِنْ يِمْكْنَه يَا عْذَابَه !
خَلُّوا الجَنَايِزْ أَسْطارْ غِلْبُوا الْفُجَّارْ
أَعْطُوا الاَمَانْ سَلْمُوا جْهَارْ مْجَارِيح رَاحُوا عَطَابَه
لاَنِي عَلَى الْفِتَنْ وْالاَقْهَارْ لاَ نَجْع يُذْكَارْ
بَدْلتْ نَحْوْ الْغْنَا دَارْ جَا مِسْتْوِي عَلَى صْوَابَه
« زَغبِبْ » فِي الْقوْلْ يَخْتَارْ لاَ نِيشْ فَشَّارْ
نَقْرَا سْلاَمِي عَلَى الدَّارْ وَلِّي هْنَا يَا حْضَاتَه

ومن «مسدس» منسوب الى (منصور) [1] احد القوالين

نْبَحْ كَحْ[2] بَارُودْ سُو رِي رْزَمْ رَصَاصَهْ رْشَمْ
وْرَآ جِحْفْةِ الرِّيمْ خَاضِبِ الفَمْ

نْبَحْ كَحْ بَارُودْ سُوري ضْرَبْ رَصَاصَهْ عْطَبْ
وْرَآ جِحْفْةِ الرِّيمْ سُودِ الْهَذَبْ نْهَارْ فَارِسِ الْخِيلْ طَاحِ انْقَلَبْ
الْخَائِن هَرَبْ حْذَا النّسَا جَازْ تَحْتِ الْهْدِمْ

(×) (١) منصور العلاقي طرابلسي الاصل عاش في عصر احمد باي الاول وهو الذي اسكنه بلدة (سليمان) بالوطن القبلي ولا يزال نسله موجودا هناك.
(×) (٢) في رواية أخرى : ضْبَحْ كَحْ .

نْبَحْ كَحْ بارود سُوري جْدِيدْ رِصَاصَه غْرِيدْ
وْرآ جِحْفَةِ الرِّيمْ سُود السْهِيدْ نْهَارانْ وْقَعْ فِيهْ جَبْدِ الْحَدِيدْ
الْفَالْحْ يْزِيدْ يْدَيِّرْ عَلَى أَطْنَابْهِمْ وِالْخِيمْ

نْبَحْ كَحْ بَارُودْ سُورِي كْحَالْ رْصَاصَهْ انْهَالْ
وْرَآ جِحْفِةِ الرِّيمْ سُودِ النْجَالْ نْهَارْ الْعَرَبْ سَرّْحُوا لِلْقْتَالْ
فُوقْ الْعْتَالْ نَفَّاتْ وَهْمَامَّه وَالْحْزِمْ

نْبَحْ كَحْ بَارُودْ سُورِي يْصَيِّحْ رْصَاصَهْ يْطَيِّحْ
وْرآ جِحْفْةِ أمِّ الْغْثِيثْ الْمفَوَّحْ نْهارْ خالْهَا فِي الْمْقَاتِلْ مْلَوَّحْ
لِيهَا مْرَوِّحْ نْهَارْ اللِّي فِيهْ غَدَّرْ الدَّمْ

نْبَحْ كَحْ بَارُودْ سُورِي مْهَنْكَرْ رْصَاصَه يْنَقْمرْ
وْرَآ جِحْفَةِ أمِّ الْغْثِيت الْمْعَطَّرْ (مَنْصُورْ) جِبْتِ الْكْلَامْ الِمْعَبَّرْ
لَفْظِي مْشَهَّرْ نِسْقِي الْعَدُوْ كَاسْ عَجْرَمْ وْسِمْ!

ومن مثال « الزنـدالي » وقد تـقـدم أنه مخصوص بالغراميات .

شْفَرْ هِنْـد مَسْمُوم ِ الْحَـدِيدْ نْطِيقَهْ
وْلَا لَحْظْ مَصْبُوغ ِ الْعُيُـون ْخلِيقَهْ

شَـفْــرَه قَـتَّــاله
وْلَا لَحْظْ مَصْبُـوغ ِ الْعْيُونْ ذْبَالَـهْ
صَـوّبْ عَلَى كَبْـدِي مِثِيلْ الْبَالَـهْ
نْزَلْ هَسّ قَصّ الْقَلْبْ وْمْعَالِيقَه

شَفْــرَهْ مَسْمُومَـــه
تُو مي عَلَى الصَّمَّه تْجِـي مَقْسُومَـه
نْعَانِيهْ وِنْلَاوِي بْـلَاهْ وْشُومَـه
وَلَا لْحَظْ جانِي دْوَاهْ كَانْ فِي رِيقَه

حَـدِيــدْ مْنَبّــل
وْلَا لَحْظْ كَاحْلِةْ الْعُيُونْ تْذَبّلْ
جْرَى لِي كَمَا فَدَّانْ وَقْتِ يْسَبَّلْ
جِبْدِتْ عَلِيهْ النَّوْ وارْضه رْقِيقَهْ

حَدِيـــدْ جْرَحْـــنِي

وَلَا لَحْظْ منْ سُودِ الْعُيُونْ شْبَحْـنِي

مِنْ خَزْرْتَهْ نَا عُدْتْ نِمْشِي مِحْنِي

لَوْ زَادْنِي نَغْدِي رْمَادْ حْرِيقَة (١)

ولولا خوف الاطالة لاوردنا من اقوال المتأخرين ـ بين عرب وحضر ـ الشيء الكثير على مختلف أنواعه وأوزانه . ومن ذلك كله يتبين للقاريء العلاقة المتينة التي تربط بين هذه الاقوال وبين أشعار أعراب القرون الماضية في البلاد التونسية . ويلاحظ ايضا ما في هذه الاقوال من المعاني المبتكرة والتشبيهات المبتدعة . وكذا من الخيال المتسع ، الامر الذي امتازت به اللغة العربية ـ وما تفرع عنها من اللهجات ـ عن سواها من اللغات ، بالرغم من أن الناطقين بهذه الاشعار هم في غالب الاوقات من الاميين . ولله في خلقه شؤون .

التقبيـــل

ولا يفوتنا ان نلقي نظرة خاطفة على انتشار الأدب الشعبي العربي

(×) (١) في أصل هذه الاغنية هنات كثيرة أصلحنا منها ما في المستطاع .

في غير القارة الافريقية . وكلنا يعلم ان لغة التخاطب لأهل جزيرة « مالطة » هي لهجة لا غبار على أصلها العربي ، وقد استعيرت من اللهجة الدارجة في القطر التونسي ـ وبخاصة من لغة أهل الساحل ـ اذ نزحت منه جالية العرب الافريقيين حينما انضوت هذه الجزيرة تحت لواء الدولة الاغلبية في منتصف القرن الثالث للهجرة ، وظلت العربية مستعملة فيها من ذلك الحين الى الوقت الحاضر ، وان دخلت عليها عوامل قاهرة أبعدتها شيئا ما عن الأصل المستقى منه ، وبالرغم من ذلك ما زالت « المالطيــــة » لهجة عربية يكثر فيها التحريف والتصحيف بلا شك لانقطاعها عن أخواتها العربية الاخرى ، ولا تصالها الديني القوي بالايطالية [١] .

---

(١) كلمة عن مالطة العربية :
تسنى للدولة الاغلبية ان تفتح (مالطة) بصفة نهائية في جمادى الاولى من سنة ٢٥٥ هـ ابريل ٨٦٨ م في ولاية الامير (محمد بن احمد الملقب بابي الغرانيق) ، وظلت الجزيرة تابعة لافريقية الى ان انتزع سيادتها الملك (روجار) النرمندي صاحب صقلية في سنة ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م وبقى المسلمون بها تحت ذمة النرمند مدة مائة وستين عاما في امان وراحة نسبية ، ولما آل حكم الجزيرة الى (فريدريك الثاني) امبراطور المانيا أجبر من كان بها من المسلمين على اخلاء مالطة ، واجلاهم جميعا الى جنوب ايطاليا ، وانزلهم قسرا بناحية مدينة (الملف Amalfi) في سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م - على عهد محمد المستنصر بالله الحفصي بتونس .
واقاموا هناك الى ان اندمج اعقابهم في اهالي الجهة ، وبمر الزمان تنصروا ، ومن ذلك التاريخ لم يبق بمالطة غير المسيحيين ، وبالرغم من ذلك بقيت لغة تخاطبهم عربية الارومة ، وهي المنتقلة اليهم من افريقية التونسية كما سنبينه .

ومهما يكن من أمر فإنها على علاتها عربية المبنى والهيكل . وقديما قال الشاعر :

هل امروء راجع يوما لشيمته وإن تخلّق أخلاقا الى حين

من أجل ذلك وددنا أن نوقف القارىء على بعض أقوال مالطة الشعبية ، وتسمى عندهم « التقبيل » حتى يكون على بيِّنة من الصلة المتينة التي تربط بينها وبين الشعر التونسي الملحون .

فمن ذلك قول بعضهم (١) .

يَنَّا ـ حَنِينَهْ ـ سَايِرْ نِسَافِرْ سَافِرْ مَانَاحْدُكْش ـ مِيعِي
مُورْ وَهَيّا بِالسَّلَامَهْ الله يَزُمُّكْ فِي المَحَبَّه تِيعِي

شرحه : ينا : بمعنى انا ـ وحنينه : بمعنى الحبيبة ، منادى محذوف منه حرف النداء ـ سائر نسافر : أي عازم اسافر . والنون في نسافر علامة لفرد المتكلم لا الجمع فانه : نسافروا كما هو فى التونسي ـ وناحدكش الحاء فيها مبدلة من الخاء ، والشين لازمة بعد النفي عندهم

---

(٢) اعتمدنا فيما نقلنا عما روى المرحوم « فارس الشدياق » ، وكان اقام بمالطة مدة طويلة اثناء القرن الماضي ، واستقصى اخبار هذه الجهة وعوائد اهلها في كتابه « الواسطة في معرفة احوال مالطة » طبع الجوائب باستنبول سنة ١٢٩٩ هـ .

كما في التونسي ـ وميعي : أَصلها : معي ـ ومــور : فعل أَمر من مار يمور أَي ذهب ، كما في الفصحى ـ وهيـا : اسم فعـل بمعنى : أَقبل ، ، هـو فصيح ـ ويزمـك : أصله يضمك ، لمبتضادها زايا ـ وتيعي : محرفة عن متـاعي ، مثلما تستعمل في اللهجـة التـونسيـة .

ومن قول مالطي آخر ، وهـو معنى جميـل ، لكنه قبيـح اللفظ والسبك :

المَحْبُوبْ تَا قَلْبِي سَافِرْ لِيْـلِي ونْهَـارِي نَبْـكِـيحْ
جَعَلَت لَهْ بدْمُوعِي البَحَرْ وَبالتَّنْهِـدَات تَا قَلْبِي الرِّيحْ

شرحه : تا : ادغام لمتاع وتكون بين المضاف والمضاف اليه . و نبكيح : الحاء مبدلةمن الهاء ـ والبحر ، محر كة وهو جائز على القياس في الفصحى . وهو كذا في تونس .

ومعنى البيتين المتقدمين يشبه قول الوزير الاندلسي لسان الدين ابن الخطيب :

والبحر قد خفقت عليك ضلوعه والريح تبتلع الزفير وترسل

ومن قول بعض المالطيين أَيضا :

يَنَّا اشْتِقْتْ نَجِي فُوقْ سِدّتِكْ   نَجِي شَبِيهْ تَا العَصْفُورْ
نَطْفِي المُصْبَاحْ بِجْوَانْجِي   نَعْطِيكْ بُوسَهْ وَنَرْجَعْ نَمُورْ

شرحه : ينا أو ين : أنا ـ اشتقت : القاف تبدل عندهم دائما بهمزة كما ينطق بها أهل القاهرة . سدتك بمعنى : فراشك .

وفي نماذج الاقوال السالفة حجة قوية على ما قدمناه من ان لغة مالطة الدارجة هي فرع من دوحة العربية « وشيصة من تمرها » كما يقول الشدياق . وليس من شك أن القارىء تنبه الى أن المقاطيع الشعرية عندهم تتركب من بيتين ولا تزيد عليهما ، وهي مما يتغنى بها أهل الريف من الجزيرة ، ويعرفون عندهم باسم « الرحولة » جمع « رحلى » يعني ساكن الرحل وهي القرية .

وفي حالة الغناء يرفع القروي صوته ويمده طويلا على طريقة ما يعرف في البلاد التونسية بـ « العروبي » المشتق من اسم الاعراب ، وهذا النوع الاخير هو مثيل ما كان ينعت بـ « الصوت » في الاغاني العربية القديمة .

وأما اللهجة المالطية فإنها تختلف عن أمها التونسية في النطق ببعض الحروف الحلقية وغيرها . وقد مرت بك أمثلة من ذلك في

شعـرهم الملحـون ،فمن ذلك أنهم يلفظون القاف همزة ويشمّون الالف في نحو : قال وباع ـ وينطقون بالعين غينا أينما وقعت ، وبالخا حاء فيقولون : الحبز بدل الخبز ـ وبالضاد دالا ـ وبالطاء تاء ـ وبالذال دالا او طاء : مثل النبيط في لفظة النبيذ ـ فأما (العين) فلا يكادون ينطقون بها اذا وقعت آخر الكلمة ، فيقولون : تلا ، وقلا ، في طلع وقلع ، ويحذفونها اذا اتصل بها ضمير ، مثل : طليت وسميت في طلعت وسمعت . وقس على ذلك .

ومهما يكن من الامر،فإن بقاء هذه اللهجة في مالطة لظاهرة عجيبة بل حجة قوية ومعجزة بالغة في حيوية اللغة العربية ورسوخها العميق في قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال . الا ترى هذه الجزيرة المسيحية النِّحلة قد تعاقبت عليها ـ منذ ثمانية قرون ـ أمم ودول متعددة آخرهم الانكليز وودوا لو يحملون أهلها على التخاطب بلغتهم فلم يتهيا لهم ذلك . وبقي المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفا عن سلف ؟ وإن في ذلك لذكرى لاولي الالباب .

أقوال أعراب برقة :

وقبل أن نعبر من المغرب الى العالم العربي الشرقي فلنقف هنيهة في أرض جارتنا الليبية حيث تخيّم بطون عديدة من « بني سليم » ومن أهم فروعهم « الحاميد » بناحية طرابلس ، وهم يعيشون في جوار قبيلة « هوارة » البربرية ، وفي ولاية بنغازي - وهي برقة - تقطن بقايامن « بني هلال » - ومن أجلّ أفخاذهم « أولاد علي » - المتساكنون مع فريق من قبيلة « لواتة » البربرية .

ومما يمتاز به أعراب ليبيا الحاليون هو محافظتهم على أوضاع أجدادهم في التقاليد والعوائد خصوصا في اقوالهم التي لم تتحوّر الا نسبيا ، وذلك لقلة امتزاجهم بالعناصر الاجنبية مما جعلهم أقلّ تعرّضا للزعزعة والتغير .

فجماهير العرب بمملكة ليبيا لم تزل تتكلم بلهجة أسلافهم من هلال وسليم شأنهم في ذلك شأن الاعراب المخيمين بإفريقية التونسية وبالجزائر والمغرب الاقصى .

وقديما أدرك الرّحال المغربي « العبدري »[١] هذا المظهر في كلام أعراب ليبيا ، فأتى في رحلته على بعض الافادات المهمة حين مروره بأحيائهم ، ننقل منها هنا ما يتعلق بلهجة بني هلال وبني سليم المقيمين هناك ، قال :[٢]

« وكلام عرب برقة من أفصح كلام عربي سمعناه . وعرب الحجاز أيضاً فصحاء ، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيرهم ، وهم الآن على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل ، ولا يخلون من الاعراب إلا بما قدر له بالاضافة الى ما يعربون . وقد سألت بدويا لقيته يسقي إبله في «الحصوى» على ماء يقال له « أبو شمال » : هل نورد عليه ؟ وذكرته يالواو في موضع الخفض على عادة أهل المغرب ، فقال لي : نعم ، تطؤن أبا الشمال . وأثبت النون في الفعل ، ونصب المفعول . وليس في المغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك

(١) هو : محمد بن محمد بن علي العبدري من بلاد حاحة في السوس الاقصى ، وقد ابتدأ رحلته الى الحجاز في سنة ٢٨٨ هـ - ١٢٨٩ م - ومر في طريقه على جانب من المغرب الاقصى وعلى الجزائر فتونس فليبيا فمصر فالحجاز حيث حج وعاد برا ، وتقييد رحلته من أمتع التقاييد ، منه نسخة خطية بمكتبتي نقلت عنها ،

(×) (٢) انظر النص بتحقيق محمد الناسي وقارن ما بين النصين من خلاف ص ٨٨ ، ٨٩ .

« ومررت باطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم : يا حجاج ، عند كم شيء تبيعونه ؟ » وأثبت النون وسكن الهاء للوقف . ورأيت اعرابيا منهم وقد ألحت عليه امرأة تساله من طعام يأكله ، فقال لها: « والله ما تذوقينه » فأتى بضمير المخاطبة على وجهه ، وأثبت النون وسكن الهاء . وسمعت شخصا في الركب ينشد مكتري راحلة ، ويقول : من يكري زاملة ؟ فسمعه بدويا آخر فقال له لا تقل من يكري ، وقل : من يستكري » .

« وذكر لي بعض اصحابنا ممن حج معنا ان شخصا شرب من بئر فقال : في هذا الماء رائحة الحبل . وحرك الباء على لغة أهل المغرب يعني الرشاء المستسقى به فسمعه أعرابي فقال له : ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء ، فأشار المغربي إلى الرشاء ، فقال له الاعرابي : قل الحبْل ، ولا تقل : الحبَل .

ثم قال : « وأما نادر الفاظ اللغة ومـا جرت عادة أهل المغرب بتفسيره ، فهم حتى الآن يتحاورون به على سجيتهم ؛ فمن ذلك أن شخصا منهم وقف علي بموضع نزولي من محلة الركب ، وكانت الترعة بعيدة ، فقال لي : يا سيدي تدعني أظهر ؟ يعني أخـرج . وسالت شخصا منهم على الطريق فقال لي : إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صواب

كذا « يعني إذا خرجتم منها » . وسمعت صبياً منهم ينادي في الركب: يا حجاج ، من يشتري الصفيف ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس ، فقلت له : « اللحم معك ؟ » فقال : « نعم ! » وأبرز لحم ظبي مقدد قال العبدري : وهذا ذكره الامام مالك ـ رضي الله عنه ـ في « الموطأ » وتهمّم بتفسيره فقال باثر الحديث : « والصفيف القديد » ـ وسألت شخصاً عن ماء هل هو معين ؟ فقال لي : هو ماءٌ عِدٌّ [1]. وهذا اللفظ فسره أبو عبيد في غريبه [2] .

ثم قال العبدري : « وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى . وبالله تعالى التوفيق » اهـ .

ومما نقلناه من رحلة العبدري وماسنذكر من أقوالهم فيمابعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الاعراب لم تتغير وأنها الى الآن قريبة جدا من أمها الفصحى.

ونكتفي هنا بايراد بعض أشعار أهل برقة الشعبية التي قيلت في هذا العصر المتأخر لا سيما بعد احتلال الايطاليين لوطنهم . وقد أثارت هذه الكارثة في نفوس فرسانهم وقوّاليهم الشعور بالغلبة والقهر ، فجاشت قرائحهم بقصائد حماسية .

---

(١) العد هو الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع (الوسيط) .
(٢) يريد « غريب الحديث » لابي عبيد القاسم بن سلام ، وهو شرح للحديث .

مثل قول أحدهم في مطلع نشيده :

يَا وَطْننَا ما حَالْ دَائِمْ ديمَهْ الايامْ لا بُدّ لهُنْ مِنْ تَبْرِيمَهْ

وقول شاعر آخر من قصيدة طويلة يصف حاله في معتقل الايطاليين بـ « العجيلة » :

مَا بِي مَرْضْ غِيرْ دَارْ العجِيلهْ وَحَبْس الجَبِيلهْ
وبُعْد القَبَا من بلاد الوُصِيلهْ (١)

ومنها :

ما بي مَرَضْ غِيرْ فقد الرجال وْفَنْيَةْ الْمَالْ
وَحبْسَة نسَاوِينَّا والعْيَالْ

ومنها :

والفارس اللّي كَانْ يَمْنَعْ الْمَالْ نْهَارِ الجِّفِيلَهْ
طَايِعْ لْهُمْ كِيفْ طُوعِ الْحَلِيلَهْ

---

(١) القبا جمع قباية : وهي المفازة (وفي لهجة الجنوب التونسي : الجبا ، بالجيم) .

طايعْ لْهُمْ كِيفْ طُوعْ الْولِيَّه   انْ كانَتْ خَطِيَّه (١)
ترمي الطاعهْ الصَّبَاحْ والعَشِيَّهْ

ما بِي مَرْضْ غِيرْ خِدْمَةْ بْنَاتِي   وَقِلَّةْ هْنَاتِي
وفْقَدْت اللِّي مِنْ تِرِيسِي مُوَاتِي (٢)

وْغِيبَةْ غِزِيرْ النَّصِي بُوعْتَاتِي   الْعَايِزْ مِثِيلَهْ (٣)

ومنها يندد بسيادة بعض الاراذل :

الرَّاعِي مْعَقِّلْ جْمَالِ الْقَنَاطِرْ   فْحُولَهْ كْحِيلَهْ
مْطَلِّقْ قْعَادِينْ فُوقِ الْخَوِيله (٤)

ومن قول أديب ليبي آخر :

حيَاةِ الْهُونَه   غْرِيقْ دَمْع لُولَا النَّارْ تَحْمِي دُونَهْ

---

(١) قوله : خطية ، يعنى يطيعهم كما تطيع المرأة الخاطئة زوجها لخوفها منه ،

(٢) التريس : الرجال ، مفرده التراس وهو الرجل ، كما عند اعرابنا .

(٣) غزير الناصية : الحصان واسمه بوعتاتي

(٤) يعنى ان الراعي يعقل الجمال الاصلية ويطلق سراح القعدان وهي صغار الجمال .

[هُوَ] انْحَرَقْ لُولَا دْمُوع عْيُونَه   مَجْرُوحْ غَارِقْ طُولْ عُمْرِي كُلَّهْ (١)

وقال الاخر :

يَا قَهْرْتِي مِنْهَا حَيَاةِ الذَّلَّهْ   حُكْمِ الْأَجَانِبْ وِالْعَوَزْ وَالْقِلَّهْ (٢)

وسن قصيد لاديب يصف حملته مع قبيلته للانتقام من أعدائه :

قابلهم ذراع الحِيرَانْ (؟)   جْرَاد عْمَا رِيحَهْ طَايِرْ (٣)
اللِّي فَاقِدْ غَالِي كِيبَانْ   حْذَاهُمْ خْذَا لِيلْهْ سَاهِرْ (؟)
زْقِيقْ عَوِيلَهْ وِالنّسْوَانْ   قْطَا جَاشَا يِلْ
هفاسم ايَّام قْبَايَل (٤) (؟)

فهذه الامثلة المختارة تدل على أن لهجة ليبية بصفة عامة هي عربية

---

(١) معنى البيتين : انه صار في حياة الهوان غريق دمعه لولا ان النار تحميه، وهو يكاد يحرق بهذه النار لولا دموع عينيه تطفىء نارة ، فهو مجروح وغارق طول حياته .

(٢) يظهر ان هذا هو طالع القصيد الذي منه البيت السابق : حياة الهونة الخ .

(٣) قوله : عما مقلوب مع ، كما يتلفظ بها أعرابنا .

(٤) يقول زقيق عويله هو ونسوانه مثل طير القطا اذا هفته ريح السموم الآتية من القبلة اي الجنوب .

خالصة و بصفة خاصة هي هلالية لا غبار عليها ، وان اعتراها ما اعترى سائر اللهجات العربية من تحوير الاسلوب ، وإهمال للاعراب.

ويلاحظ أن هذه اللهجة تمتد إلى جهة الفيّوم والبهنسة من أرض مصر. وبينهما يقيم قسم كبير من بطون بني سليم وغيرهم . [١]

النبطـــي :

وبمناسبة الكلام على طريقة الانشاد عند قبائل جزيرة العرب ، نذكر ان صديقنا المغفور له « عبد الوهاب عزام » كان أنشدني ـ منذ سنوات مضت ـ شيئا من القصائد الشعبية من نوع « النبطي » المشابه للاصمعيات ، وهو الشائع الآن بين عرب الحجاز ونجد وبادية الشام [٢] .

فمن ذلك قصيدة للاديب « محسن الهزاني » نسبة الى هزان بطن من عرب عنزة ، وهو من رجال القرن الثالث عشر :

غَنَى النفس معروف بترك المطامع   وليس لمن لا يجمع الله جامعْ

---

(١) راجع الخطاب الممتع الذي القاه حبيبنا الاستاذ فريد ابو حديد في مجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٦٠

(٢) انظر أيضا المحاضرة القيمة التي القاها زميلنا الدكتور عبد الوهاب عزام في مؤتمر مجمع اللغة العربية بمصر سنه ١٩٦٠

ومنها :

خليلي قم لي في دجى الليل بعدما جفا النوم عيني والبرايا هواجعْ

ومن قصيدة نبطية لـ « الشريف بركات » ، كان حيا في القرن العاشر للهجرة .

عَفَا الله عن عين للاغضا محاربهْ وجسم دنيف زايد الهمّ شاعبهُ

يقول فيها :

إذا نَبَحَتْنَا من قريب كِلابُه ودبَّت من البغضا علينا عقاربهُ
نجينا باكوار العطايا ويمَّمت بنا صوب حزم صارخات ثعالبه
بيوم من الجوزاء يستوقد الحصا تلوذ باعضاد المطايا جخادبه

ومن نظم « محمد العوني » وكان من كبار أدباء « القصيم » مات في سجن الملك عبد العزيز آل سعود في منتصف القرن الحالي للهجرة . قوله من قصيدة حماسية :

خلوج تجذب القلب بأعلى عوالها تكسر بعبرات. تحطم سلالها (١)

---

(١) الخلوج : الناقة المتبوعة بولدها ـ تكسر : ترجع ـ سلالها : السيوف المسلولة .

تهيض مفجوع الضماير بحسّها إلى طوّحت صوت تزايد هجالها[١]

ويقول فيها مخاطبا لقومه :

لا تتبعون الهون والعجز والعسى

أو ربما أوليت يتعب سؤالها

ترى مركب الأخطار هو مصعد العلى

ولا يدرك العليا غيور شكالها

ومن شعره :

تقولون دنيانا علينا تغيّرت تغيّ تو أنتم ما تغيّرْ مرورها

الأيام هي الآيام ما زاد عدّها هذي لياليها وهذي شهورها

لا شكّ غيركم هماليج مبغض وذلّ حشا لبّاتكم في صدورها

ما تأنفون العار والذلّ والردى أنعو نِساكم يوم ضاعت بزورها

لا شك أن القارىء الكريم تنبه الى المشابهة القوية الموجودة بين الاقوال السالفة وبين ما نعرف من أشعار أعرابنا الهلاليين ، ولا غرابة

---

(١) هجالها : أي اضطرابها ـ قوله : الى : بمعنى : اذا

البتة في ذلك ، فإن كلا من عرب الجزيرة وعرب شمال إفريقية أسرة واحدة ، وإن فرق بين عناصرها الزمان وبعد المكان ، إلا أن طريقة التعبير عن العواطف والخيال لم تزل عند الفريقين متقاربة كل القرب في الاوضاع والتمثيل .

الحميـــني :

ثم انظر - يا رعاك الله - إلى ما هو أبعد من ذلك ، واعتبر تقارب مذاهب الادب الشعبي عند الامم العربية المعاصرة الأخرى ، فإن في الشعر الملحون المسمى بـ « الحميني » المنتشر الآن بين عرب اليمن وحضرموت ما يقيم الحجة على أن اللغة العربية - قديما وحديثا - لم تزل خاضعة - بالرغم من تباين اللهجات - إلى نظام واحد ، وخيال واحد ، وسجية في الاقوال تربط بينها وبين الفصحى قربا أو بعداً حسب الظروف ، والاوطان والعصور .

وها نحن أولا ننقل إليك من كتاب (مختارات من الادب العامي الحضرمي) ما يدل على صحة ما أسلفنا [١] .

---

(١) جمع الاستاذ ر . سارجنت ، ط سنة ١٩٥٠

فمن قصيد للاديب الحضرمي « الربيع بن سليم الدويخي » يصف حربا جرت بين بعض قبائل حضرموت في خلال القرن الماضي :

بروقُ الظَفَرْ والنَّصَرْ فِي الأُفق نَمْنَمَتْ
وثَجَّتْ عَلَى الغنَّا (١) خَوَاصِبْ مُزُونَهَا
وَرَعْدُ الهَنَا قَاصفْ يَزُوع الشوامـخ
وزَلْزَلْ ديَار الظُّلم وَاهْـــدَمْ حُصُونَهَا
وَسَالتْ سُيُولا هَا يِـــلًا تِمْلِيَ الفَـضَا
مَحَتْ اثْرَة الظُّلَمَهْ وخـــابَتْ ظُنُـونها
وصَارتْ ديار الظُّلمْ عِبْرَهْ لمن يَرَى
كأنْ لم يكن فيهَا عَــرَبْ يَسْكُنُونَها
خلتْ خاويَهْ تِبْكِي عَلَى من سَكنْ بِهَا
ويستوحِش الفَضّ الغَضَبْ من سُكُونها
وظَـلّ غُـرَاب البين يَنْعِي على اهْلهَا
وباتتْ طُيُور البُـوم تُنْدبْ فنـونها
فَلوْ طفْت فِي تلك المنازلْ وَدُورها
وشُفْـتَ البِنَا العـالي ومَحْكمْ زَبُـونَهَا

---

(١) الغنا : هي مدينة « تريم » عاصمة حضرموت

لارْتَعَـدَتْ منك الفـرايصْ وأَظْلمتْ
عليك الدّنَـا مما ترى من حـزونها

ومنهـا :

فَمَا لِي أَرَى «الُموزِع» خربْ أصلَ سَاسه
واجْتَثَّتْ الشَجْرَهْ و يِبْستْ غصُـونَهَا
ولكِنُّهُمْ بِالظُّلم والجُـور والهَـوى
رُمُـــوا فِي مهاويها وهم يَحْذَرُونَهَا
ولما عَتَـوْا واسْتَعْظَمُـوا رفـع شَأنهم
وهَلْكُـوا رَعَايَاهُم ولم يَرْحَمُـونها
أتتهم مَصَايبْ شَـتَّـتَتْ جَمـع شَمْلَهم
جزا ذَلِك الافعـالْ لِي يفعلونهـا [1]

ومنهـا :

وظلتْ وُحُوش الارضْ ترْعى لُحومهم
وبَقْيَتْ عَلايم لحْمَهُـم في سُنُـونَهَا

---

(١) لي : بمعنى : اللي ، الذي والتي .

وفـرّت بهم في الجـوّ مثل الحـوايم
وَهدْمَـتْ مَرَاتِبِـهُمْ وهُمْ يَنْظِـرُونَها

ومنهـا

وَتحْقِيق نَصْر اللهِ يَاتِيه من يَشَا
فكم ذلة قد عَزّهـا بَعْد هُـونَهَا
ولله تَـدْبير العـوالمْ كمَا يَرَى
وَدُنْيَا النَّـدَمْ يَا نَاسْ لا تـامَنُونها

ومنها قول الاديب « حسن الكاف » الحضرمي ، في ضرب آخر من النظم الشعبي :

بَنِي مَغْرَاهْ قَلِبـي فِي العَشْقَهْ معَذَّبْ
وكِبْدِي محْرَّقَهْ وَسْطَهَا نِيرَان تَلهَبْ
ودمعي دمّ فَوْق الوَجنْ والخَدْ قَدْ صَبْ
ورَاسِي بعد مَا يَبْلغ العشرينَ شَيَّبْ
وجِسْمِي مِثْل خَيْط الوِترْ والصَّوْت شَحَّبْ
جَفَا نَوْمِي عُيُونِي زِعِلْ منهَا وجَنَّبْ
كَمَا المَلدُوغ أبيت على فراشي اتقلَّبْ

سَمِير الشهُبْ لِي غاب كوكَبْان كوكبْ
بُلِيتُه فِي المحبَّهْ بَعِين اللهْ مَن حَب

ومنها وهي طويلة :

بِطُول الهَجَرْ قَطَّعْرَا كِبْدِي وعذّبْ
فَلا لِي نَوْم يحلو ولا مَطْعَمْ ومَشْرَبْ
حَيَاتِي حين يَرْضَى، ومَوْتِي حين يَغْضَبْ

ومن قول بعضهم في الحكمة :

يِقُول بُو عَامِرْ ؛ عديَم الشَّوْر مَن لا يستشير
الشَّوْر للحَاذِقْ وَلا هُو عَار مِن شَاوَرْ صَغير
يِقُول بُوعَامر : خِيَار العِلم قَوْلَةْ ما دَرِيتْ
ان قُلت شِي ما قلت ، وإنْ حَدْ حَكالي مَا حكيت
يِقُول بو عامِرْ : نشَدْتُونَا وَلا عِنْدي صِفَاتْ
مَا انْقَطَعْ رزْقُهْ سُوَا مَنْ جَدّوا كفانُهْ وَماتْ

وبجمل القول في لهجة عرب الجنوب ـ يعني اليمن وحضرموت ـ أنها من أقرب اللهجات الى الفصحى في الوقت الحاضر ، لما حافظت عليه من التراكيب الصحيحة ، ولما يتخللها من المفردات الفصيحة ،

كما يستفاد من شعر شعـرها العامي « الحميني » ، وربما يجوز تعليل ذلك بقلة اختلاط سكان تلك الجهات بغيرهم من الاجيال العربيـة التي لها اتصال مباشر ومستمر بوسائل المدنية العصرية .

وإنّا لو أردنا تـتبـع أقوال الاعراب في الغرب والشرق لاثـبـات المجانسة التي تربط بينها ومشابهتها بعضها ببعض ، وتناسق أوضاعها وموضوعاتها لادى بنا الكلام الى التطويل الممل، ولخرجنا عن الغرض الذي قصدنا . فلنكتف بما أوردنا منهـــا على سبيل المثـال . وبالله التوفيق .

●

آل التجاني

أدباء وكتّاب الدولة الحفصية

آل التجـــانـــي
ادبــاء وكتـــاب الدولــة الحفصيــة

كل من يبحث عن تراجم رجـال الحركـة العلمية في عصر الدولة الحفصية يعجب كيف أغفل أصحاب الطبقـات ذكر فحـول من الأدباء ومشاهير من الكتاب البلغاء أهّلتهم صفاتهم وميزتهم نحائزهم بـأن يكونوا في صف من يجب الاعتنـاء بأخبارهم وتعريفهم بما يستحقون . وإذا ما أجهد الباحث نفسه في التنقيب عنهم لم يجد من أنبائهم سوى نتف مبعثرة هنا وهناك في غضون المخطوطات لا تستقيم إلا بِلَمّ الشتات .

ومن بين هؤلاء المهملين المجهولين « بنو التجاني » التّونسيون . وقد نجب منهم غير واحد من الفحـول ممن أكسبوا القطر الافريقي ـ مدة طويلة ـ صوتا بعيدا ، وسمعة شريفة في العلوم والآداب .

ينتسب أفراد هـذه الأسرة الماجـــدة إلى قبيلة « تِـجَان »

ـ بكسر التاء ـ من قبائل المغـرب الأقصى . ويظهر أن أول من قـدم منهم تونس هو « أبو القاسم التجاني » وكانه جاء مع جيش الموحدين الفاتـح لإفريقية بقيادة رجل المغرب ومنقـذه : الخليفة عبد المؤمن ابن علي ، ذلـك البطل الذي قضى على أمـراء الطوائف المستقلين في أنحاء البلاد كما قهر نصارى « النرمند » المتغلبين وقتئذ على الساحل التُّونسي وقاعدته المهدية . وبفضل هذا الانتصار تمكن عبد المؤمن من إنشاء وحدة المغرب الكبير سنة ٥٥٥ هـ ـ ١١٦٠ م .

وبعد الظفر وأمـد الاستقرار وقع اختيـاره على مدينـة تونس فاتخذها مركزا لجيشه ، ومقرا لولاته ونوابه في تسيير شؤون البلاد ، ونصب بها هيئـة عليا تشرف على الادارة . وهم « مشائـخ الموحدين » اصطفاهم من خيرة دُعاته ، كما رتب بها مصالح الحكومة الفتية ، فكان « أبو القاسم التجاني » من جملة من استوطن حيـنـئذ تونس . ويظهر أنه كان في ديوان الكَتَبَة ـ وقـد تزوج فيها واشـترى دارا لسكناه مع جملة رباع أخرى ـ لا ندري في أيـة ناحيـة من المدينة ـ وبعـد حين كان لأبي القاسم ولد وهو « محمـد » اقتفي أثر أبيـه في الخدمات المخزنية .

ويستفـاد من خبر أورده حفيده الأصغر عبد الله الرحال الآتي

أن في مدة حياة محمد هذا كانت ثورة « بني غانيـة الميورقيين » وهم من بقـايا المرابطين الذين شاغبوا الخلفاء الموحدين بالعبث في بلاد إفريقية ، فقد خربوا عمرانها ، وأرهقوا سكانها بالظلم والعسف بما لا يطيقون كما هو مبسوط في التاريخ .

وقد تمكن أحـد الثائـرين الميورقيين وهــو « يحي بن إسحاق » من اغتصاب مدينة تونس من يد المشائخ الموحدين ؛ فالحق بأهلهـا من القساوة والتنكيل بالغرم المالي ما باعوا فيه أملاكهم . ومن جمـلة من نالته عقوبة التغـريم الفادح « محمد التجـاني » المتقدم . قـال حفيـده : « وقد وقفت له ـ يعني الثائر الميورقي ـ على ظهير بصرف بعض أملاك بني التجاني عليهم ، مما تطرق إليه النزول ـ أي المغرم ـ حين دخـوله وقبل ذلك . وتاريـخ الظهير الثامن لذي القعدة من سنة ستمائة » [١] .

ثم تدارك الموحدون حـال إفريقيـة فحاربوا الثائر وشردوه شر مشرد . وعاد بنو التجاني إلى مناصبهم المخزنية .

---

(١) رحلة التجاني (ص ٢٥٤) طبع تونس سنـة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧م

إبراهيم وأحمد التجانيان :

حتّى إذا ما استقل بنو حفص الهنتاتيون بمملكة إفريقية - سنة ٦٢٥ هـ - رأينا أفراد آل التجاني في زمرة رجال دولتهم و كتّاب دواوينهم . منهم الاخوان : « إبراهيم » و « أحمد » ابنا محمد بن أبي القاسم المتقدم ، فإنهما كانا من كبار الموظفين المنظور إليهم بعين التجلة والاعتبار في بَلاط أبي زكرياء الأول مؤسس الاسرة الحفصية . وقد ذكر رواة الأخبار أن « إبراهيم التجاني » كان ممن انتصر للحافظ الكبير محمد بن الأبّار القضاعي لما وفد سفيرا من قبل أهل الأندلس مستصرخا بالملك الحفصي لنجدة بلده بلنسية . وقد تقدم إلى أبي زكرياء بتلك القصيدة العصماء التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيلَ إلى منجاتها درسا [١]

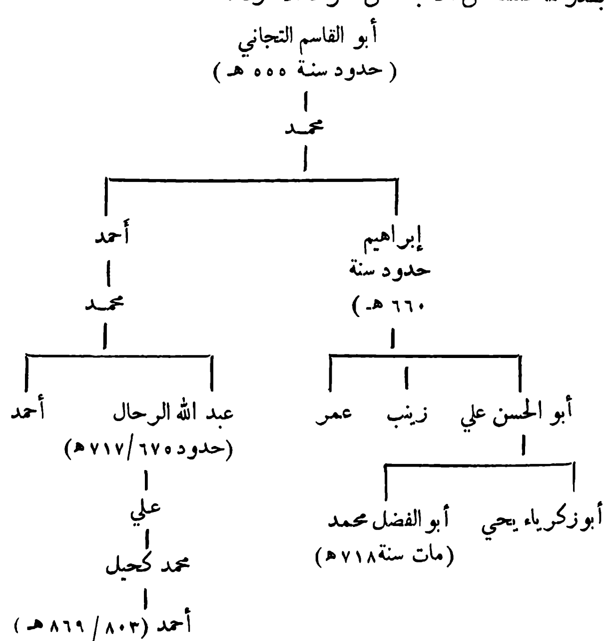
فانتقدها جماعةٌ من أدباء العصر المغرضين ممن يحسد قائلها ، فانتصر له إبراهيم التجاني في تأليف مستقل أسماه « مؤازرة الوافد

---

(١) انظر كامل القصيد في ازهار الرياض ٣ : ٢٠٧ ، ٢١٠ وفي نفح الطيب ٤ : ٤٥٧ ، ٤٦٠ .

ومبارزة الناقد » في الانتصــار لابن الابـار . وقد نال هذا التأليف إعجاب المعاصرين لما احتوى من تحقيق علمي وبلاغة تحرير .

وهكـذا تهيأ للاخوين « إبراهيم » و« أحمـد » الظهور في المحافـل الأدبية والاشتهار بالعلم الواســع والأدب الغض ، ومن الأخـوين المتقدّمين تفرع نسل التجانيين حسبما هو مبيّن في الشجرة التي رسمناها بقدر ما علمنا من الأنباء عن أفراد الاسرة .



ونحن مـوردون هنا بعض أخبار من أمكننـا الوقوف على ذكره من أعيان هذه الأسرة التي رفعت راية العلم والأدب في البلاد التونسية مدة لا تقل عن الثلاثمائـة سنـة . ولنبـتدىء بنسل إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم الذي ترك ابـنـين وبـنـتا وهم : علي ، وعمر ، وزيـنـب .

(١) ـ أما أبو الحسن علي بن إبراهيم فهو مِمّن أخذ عن علماء أعلام مثل ابن الأبّار ، وحازم القرطاجني ، وعلي بن عصفور ، والكلاعي، وغـيرهم من جهابـذة الأندلس المهاجرين إلى تونس في منتصف القرن السابع للهجرة . لكن يظهر أن أبرز أستاذ تخـرج عليه هو أحمـد بن محمد المعروف بابن الغمّاز قاضي الجماعة بتونس ومحدثها الكبير ، وقد انتفـع عليّ بالقراءة عليـه والاسنـاد إليه ، فلما توفّي شيخـه هذا ـ سنة ٦٩٣ هـ ـ جمع تلميذه أخباره وآثاره وما قيل فيه من النثر والشعر في سفر خاص [١] .

والتقى بعلي الرحال المغربي محمد العبدري الذي زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج ـ سنة ٦٨٨ هـ وعند رجوعه ـ سنة ٦٩١ هـ ـ قال العبدري [٢] : « ولقيت بتونس الشيـخ الاديب ، الحسيب الكاتب

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون ـ ص ٧٩

(٢) رحلة العبدري ـ خط بمكتبتي (×) وانظر الرحلة (٢٥٧ ـ ٢٦٣) تحقيق محمد الفاسي .

البليغ ، ذا الفضائل المذكورة ، والمآثر المأثورة شيخ الأُدباء ، وواحد البلغاء ، وزين الناظرين والشعراء « أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني التونسي » له بيت عريق في العلم و الأَدب ، قال لي بمسجد إقرائه : « أنا الثاني عشر مدرّسا من آبائي على نسق كلهم قد قعدوا هنا للاقراء وبيتهم بالعلم شريف شهير وقلّ من لم يَقُل الشعر. وأما أبو الحسن فهو فيه آية الزمان : إجادة معنى ، وتنقيح لفظ ، وسرعة بديهة ، وكثيرا ما يمليه ارتجالا فيجوّد ويتقن . . . . وهو بالجملة من خواص أهل العلم وآحادهم ، جالسته كثيرا وسمعتُ كلامه في الأَدب وغيره ، وقرأت عليه مقامات الحريري ، وكان يرد فيها وينتقدها نقدا محققا . . . . وقرأت عليه قصيدة الشيخ الحافظ أبي عبد الله « ابن الابار » التي مدح بها الأَمير أبا زكرياء بن عبد الواحد ابن أبي حفص وهي مشهورة، وأولها :

أدرك بخيلكِ خيلِ الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

وحدّثني بها عن مؤلفها سماعا منه . . . . وقرأت عليه قصيدة الشيخ الأَديب الفاضل أبي الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجني الأَندلسي وهي المقلوبة من قصيدة أمرىء القيس في مدح المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقد حدثني بها عن منشئها المذكور، وهي :

لعينيك قـل إن زرت أفضـل مـرسل
قـفا نبك من ذكـرى حـبـيب ومنزل
وفي طيبة فانزل ولا تغـشَ منزلا
بسقط اللّوى بين الدخـول فحـومل

* * *

فيا حاديَ الآمـال سر بي ولا تقـل
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل .. (١)

وقد ساق العبدري أخبارا وأشعارا كثيرة مما روى عن أبي الحسن علي التجاني . ومن جهة أخرى نعلم أن عليا هذا كان استوطن طرابلس برهة من الزمن ، ومنها توجه الى الحج ـ سنة ٦٨٤ هـ ـ ثم عاد إلى وطنه واجتمع بالعبدري كما مر ، وتوفى علي بعد سنة ٧٠٨ هـ يعني بعد عودة ابن عمّه عبد الله الرّحال كما سيأتي ، ونسب السيوطي ـ نقلا عن غيره ـ المقطوع الآتي الى أبي الحسن علي (٢) .

إن الذي يروي ولكـنـه   يجهل مـا يروي و ما يكتب
كصخـرة تنبـع أمـواهـهـا   تسقي الأراضي وهي لا تـشرب

---

(١) انظرها كاملة في المصدر السابق (ص ٢٥٨ ، ٢٦١)
(٢) بغية الوعاة للسيوطي ط مصر ـ ص ٣٢٧

(٢) زينب بنت ابراهيم التجاني :

وهي من شهيرات هـذا البيت ، بل من شهيرات الأُدبيات التُّونسيات في العصر الحفصي ، ذكرها العبدري أيضا في رحلته عرضا ولم يسمّها . وكنت عثرت اتفاقا على اسمها في بعض المخطوطات وخصّصتها بترجمة في غير هذا [١] . وأورد لها العبدري [٢] مقطوعين من شعرها أنشدَهما له أخوها علي . فمن ذلك قولها ملغزة فيمن اسمه تميم :

يقولون لي : هـذا حبيبك . ما اسمه ؟
فما استطعت إفشاءً وما استطعت أكتُم
فقلت : اسمـه مـيم وحـرف مقـــدم
فهذا اسم من أهوى فديتكمُ افهموا

ومن قطعة لها في وصف شَعَر إحدى صويحباتها :

---

(١) راجع شيئا من أخبارها في كتابنا « شهيرات التونسيـات » ط تونس سنة ١٣٥٣ ص ٧١

(٢) الرحلة ص ٢٦٢

إذا انسدلت منه عليها ذؤابة
كغصن أرَاكٍ عانقتْه أراقمُ

أثيث ، طويل ، فهو يستر جسمها
إذا نزعت عنه الملابسَ أسحمُ

كأنَّ الصباحَ ارتاع من خوف طالبٍ
بثارٍ فالوى بالدجى يتكتَّمُ

أقول : وكان مقطوعها الأخير ينظر إلى قول زميلتها الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد الوادي آشية من أبياتها المشهورة [١]. وعلى كلّ فإن الواقف على هذا النزر القليل من نظم الأديبة التجانية يحكم بأنه كلام عارفة بقوانين الصنعة ، متمكّنة من الأدب وأوضاعه تمكّنا صحيحا ، وهي مع ذلك ذات خيال واسع ممّا لا يقع مثله إلاّ لحذّاق الشعراء . ولم نقف على طريقة تعلّمها ولا على تاريخ وفاتها .

(٣) عمر بن إبراهيم التجاني :

هو أخو كل من علي وزينب المتقدمين . وكان أيضا من العلماء

(١) نفح الطيب ٤ : ٢٨٨

الكتّاب اجتمع به الرحالة العبدري في تونس وأورد له مقطوعا من شعره : [١] .

سرك إن أعلمتَه ثانيا فاعلم بأن قد آن أن تفشيه
لأن ما أضمرتَ في حالةِ الا فراد تستخرجه التَثْنِيه

وعلّق العبدري على البيتين بقوله : « وهذا الاستدلال بالتمثيل النحوي مليح مناسب، جدّا » .

ولانعلم من أنباء هذا التجاني إلاّ ما تقدّم .

(٤) ـ ومن ولد أبي الحسن علي السابق الذكر **« أبو الفضل محمد »** أحد أعلام البيت التجاني ، كان في جملة كتّاب ديوان الانشاء . واشتهر بالأدب وتميّز في فنّ الرسائل ، خدم الدولة الحفصية بآرائه وقلمه في أيام السلطان أبي عصيدة ، ثم السلطان أبي يحي زكرياء اللحياني ، ثم ابنه السلطان محمد الملقّب بابي ضربة المستبد بأمر إفريقية بعد أبيه؛ فكان أبو الفضل كاتبَ سرّه ومدبّرَ أمره ، وقد صحب مخدومه هذا لما زحف السلطان أبو بكر الحفصي ، صاحب المملكة الغربية ، على تونس فاوقع بابي ضربة وجموعه في فحص مصبوح ـ من تراب أولاد عون الآن ـ وقتل جماعة من أنصاره ، ومن بينهم أبو الفضل

---

(١) الرحلة ٢٦٢ ، ٢٦٣

ـ سنة ٧١٨ هـ [١] ـ والحق أن هذا التجاني كان من نوابغ أهل بيته ومن مشاهير شعراء عصره ، وقد أوردنا له شيئا من نظمه في غير هذا [٢] . وكان ابن عمه و تِربه عبدالله يحبّه كثيرا و يُعْجَب ببلاغته ، وطالما يروي له في تقييد رحلته نص رسائله وقصائده ، فمن ذلك قوله يصف إحدى عشاياه بقابس في بعض حدائقها المعروفة بـ « ساحة عنبر » :

اذكر عشيّتنا بساحة عنبر	والجوُّ يتحِفنا بنكهةِ عنبرِ
حيث النخيل عرائس بسط الحيا	بسطاً لها من أخضر أو أصفرِ
والشمس تستحيي فتستر وجْهَها	منّا بستِرٍ للعروس محَبَّرِ
والنَّورُ بين مَفَضَّضٍ ومذهَّبٍ	والنُّورُ بين مُدَرْهمٍ ومدنَّرِ
والنهرُ والغُدُرُ أدَّرَعن تحصُّناً	إذ صُفَّتِ الغابات صَفَّ معسكرِ
والبحرُ يرمقنا بمقلةِ أزرق	والبَرُّ يرمقنا بمقلةِ أعفرِ [٣]

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ من طبع الجزائر ١٨٥٠ وجاءت هناك نسبته محرفة إلى البجائي بدلا من التجاني ـ ونفح الطيب ٢ ـ ٤٠٥ طبع مصر

(٢) ـ المنتخب التونسي ـ ط مصر سنة ١٩٤٤

× (٣) انظر الرحلة ٩٦٤ ـ والمنتخب ص ١٠٩

وهذا القول ـ على تـدلي الشعر في ذلـك العصر ـ من أروع النظم وصـف ناحية مـــا زالت معـروفة في واحـــة قابس .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أبا الفضل هذا له مصنفـات حسان في التـاريـخ والأدب منهـا كتـاب « النـاسم » جمـع فيه تراجم ومختارات لشعراء عصره ، وله « الحلى التيجانية والحلل التجانيـــة » أثبت فيه أخبار النابغين من أفراد بيتهم وما لهم من الآثار العلمية والأدبية . ومن المؤسف أنه لم يبلغنا من ذلك كثير ولا قليل .

أما أعيان الاسرة الثانية المتفرعة من نسل أحمد بن محمد أخي إبراهيم المتقدم فقد اشتهر من بينهم :

(٥) محمد بن أحمد التجاني :

نعلم أنه قرأ بتونس على من كان بها من وجوه العلماء وكبار الأدباء ممن جمعتهم البيئة الحفصية في أول نشأتها فامتزج بحلق تدريسهم العالي ، وكانت حضرة تونس أو ـ الحضرة كما كانوا يسمونهـا ـ حافلةً بأعلام الوافدين عليهـا من الأندلس والمغـرب ، مثل الحافـظ الجليل محمد بن الأبّار المتوفى سنـة ٦٥٨ هـ ـ وأبي محمد بن برطـلة ، وأحمـد

الغماز البلنسي قاضي الجماعة بتونس المتوفّى سنة ٦٩٣ هـ ، والحسن بن عمر الهواري الطرابلسي، وسواهم كثير . وانخرط محمد بعد تعليمه في سلك ديوان الانشاء ، وظهرت عليه البراعة في الترسل ، ونجده بعد سنين قليلة يتحول إلى مدينة بجاية بطلب من أميرها ، فيتولّى كتابة العلَامة السلطانية للواثق بالله أبي زكرياء يحي بن أبي اسحاق - سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م - صاحب المملكة الحفصية الغربية ، ويعرف هناك محمد بصدق اللهجة وصفاء الطوية والمقدرة على التحرير الراقي . وبقي بين بجاية وقسنطينة الى أن تولّى الأمير أبو يحيى زكرياء بن أحمد المشهور باللحياني مشيخة الموّحدين بتونس ،فاجتهدفي إعادة محمد الى مسقط رأسه ، وأسند إليه خطة عالية في ديوان الرسائل . وكان يرأسه وقتئذ العلّامة أحمد بن الخباز المهدوي ، فاستعان به في مهمات مكاتباته . وأقام محمد على هذه الوظيفة محمودَ السيرة الى أن عزم الأمير زكرياء هذا على السفر إلى المشرق مظهرا الرغبة في الحج ، وهو غير ما كان يضمر في باطنه ، فترك على ديوانه لمباشرة شؤونه الكاتبَ الأمينَ محمد التجاني - سنة ٧٠٦ هـ بعد عودة ابنه الرحالة بسنتين أو أقل من ذلك . وكان شيخا وقورا حنّكته التجارب، محبوبا عند الخاصة والعامة لطهارة سِيرته ، وسلامة سريرته .

عرّف به أحد أمراء الأندلس في كتابه [١] فقال :

« ومنهم ـ أي كتّاب العلامة ـ الكاتب الأديب صاحب القلم الأعلى محمد بن أحمد التجاني التونسي ، صاحب الشعر النفيس ، المجرى واديه كنفيس ، الممتطى صهوة النثار ، والخائض في نقعه المثار ، ورب الأحاجي المرموزة ، ومعدن سر الآداب التي ليست بمغموزة ، ومثبت حروفها الساكنة والمهموزة » .

ويفهم من كلامه هذا أنه يشير إلى تأليف ـ أو مقامات أدبية ـ من وضع محمد التجاني ، ولم نتوصل إلى معرفته ، ولا الوقوف على حقيقته .

وعلى كل فانه كان أديباً ضليعا يقرض الشعر الطيب بالمناسبات ، كقوله يتشوق إلى ابنه عبد الله حينما كان في رحلته وكتب بها إليه :

حمَّلتم القلبَ إذ جدَّ الرحيل بكم ... من الصبابة ما لا تحمل الإبلُ

---

(١) « مستودع العلامة » تصنيف الامير إسماعيل ابن السلطان يوسف النصري الغرناطي – مخطوط في بعض المكتبات التونسية – ص ٢٣ (×) لعل الاشارة تعني مخطوطة السيد محمد التركي . وقد طبعت بتطوان (١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م) بتحقيق محمد التركي ومحمد بن تاويت ، وترجم لمحمد التجاني فيها بصفحة ٣٤ .

فلو سلكتم سبيلَ الحزم ما عجزت إذ ذاك منِّيَ عن دفع النَّوَى الحِيَلُ
لكن عراني ذهول يومَ بَيْنِكم كما يكابد مَنْ أحبابُهُ رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل فالخيرُ أجملُ ما في نَيلِهِ العَجَلُ

وترك محمد من الأبناء - فيما علمنا - ولدين هما : أبو محمد عبد الله صاحب الرحلة الآتي ،وأبو العباس أحمد . وهو أصغرهما .

٦ - صاحب الرحلة :

في تلك البيئة المخزنية الراقية ، وفي تلك الأُسرة العلمية الماجدة نشأ « عبد الله » أبو محمد نشأة جدّ وعمل ومحافظة على تقاليد موروثة من لدن جدّه الأعلى . ولد عبد الله بحضرة تونس ما بين ٦٧٠ - ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦ م) وتربّى في حجر أبيه العالم الأديب المتقدم الذكر. وهو أول من لقّنه القراءة والكتابة كما صرح به الابن غير مرة . فيقول مثلا : « وقد أخبرني بهذا الحديث الوالد قراءة عليه ، قال أخبرنا الشيخ الحافظ محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (أي ابن الابار). وأقبل من صغره على حضور دروس الشيوخ في التفسير والحديث وأنواع العلوم ما بين دينية ولسانية وأدبية حتى ترعرع وحصل ملكة التمييز . ويناسب أن نشير هنا الى المشاهير من الشيوخ الذين

أخذ منهم الحديث والفقـه والتاريـخ والأدب ، غير والـده محمد .

شيوخـه :

وفي مقدمتهم أبو بكر بن عبد الكريم العوفي العلّامة المغربي الوافد على تونس والمتوفّى بها سنة ٦٩٨ هـ قال صاحبنـا التجاني وقد ذكره في أحد تصانيفه (١) :

« أخبرني الشيـخ الفقيه العدل الصالح أبو يحي أبو بكر بن أبي محمد عبد الكريم العوفي فيما أجازنيه وقرأته بلفظي عليه سنة ثلاث أو أربـع وتسعين وستمائة ، وهـو أول من استفدت منه بالقراءة عليه ومثلـت بالتعليم بين يـديه . وكان ـ رحمـه الله ـ قـد نال من المعارف ما اشتهى ، وحاز فيما حاز من الاحاطة بأقوال الفقهاء غاية المنتهى ... »

ومنهم الشيـخ أبو القاسم بن أبي محمد عبد الوهاب بن قائد بن علي الكلاعي ، قريب صاحب السيرة النبوية المشهورة بالسيرة الكلاعية ، أحد علماء الأنـدلس اللاجئـين الى تونس . روى عنـه التجـاني كثيرا

---

(١) « الوفاء ببيان فوائـد الشفاء » من تأليف عبد الله التجاني مخطوط ، وسيأتي ذكره .

ويقـول في إسناده : « أخبرني الشيـخ الاكرم أبو القاسم بقراءتي عليه».

ويظهر أن دراسته المتينة في الحديث والأدب إنما تلقّاها عن الأخوين التجانيين : علي وعمر . وقد تقـدم التعريف بهما ، فيقول عن الأول :

«وهذا الحديث حدثنا به الشيـخ اللّغوي الأكتب أبو الحسن علي ابن الشيـخ إبراهيم التيجاني ابن عمّ الوالد بقراءتي عليه عـام سبعة وتسعين وستمائة ، قال حدثنا . . . الخ » .

ويقـول في مكان آخر عن الثاني :

« أنشدني الشيـخ الجامع المتـفنن أبو علي عمر بن الشيـخ المرحوم أبي إسحاق إبراهيم التيجاني وهو ابن عمّ والدي ... »

ومن شيوخه : أبو علي عمر بن محمد بن عـلوان التُّونسي . وكان أخذ التجاني عليه في خلال سنة ٧٠٢ هـ وتوفي بتونس عـام ٧١٠ هـ حسبما نص عليه صاحبنـا (١) .

فهذه نخبة من الشيوخ الذين لقّن عنهم . أما لو أردنا استقصاء من عرفهم من رجال العلم المبرزين ومن الأُدباء المجيدين لَلَزِمَنا قِمَطْرٌ

---

(١) تحفة العروس ـ ط مصر سنة ١٣٠١ هـ

ضخم لحصر مكاتباتهم له ، ومساجلاته لهم . وقد دوّن جانبا مهمّا منها في غضون الرحلة . ومن فحواها يتهيأ لنا تقدير علاقات التجاني وصلاته الوثيقة بالعلماء وأهل الأدب المعاصرين له داخل القطر وخارجه ، وذلك أظهر دليل على اجتهاده ـ طول حياته ـ في ميدان العرفان وعنايته الكاملة بالعلم والأدب ، وسعيه المتواصل في التعرّف بأهله والمنتسبين إليه .

مكتبته

وتعجبني من صاحبنا ظاهرةٌ أخرى يتضح منها شغفه القوي بالثقافة ووسائلها ، وهو اهتمامه الزائد بالكتب في كل صنف وفي كلّ فن ، يتبيّن ذلك جليا من مطالعة ما وصل الينا من تآليفه ، فانظر مثلا الى وصفه المخطوطات النادرة التي يلاقيها في سبيل رحلته في طرابلس وغيرها .

وليس من شك أنه كان يملك مكتبة ضخمة من مختار المصنفات كما هو الشأن غالبا في ذلك العصر لكبار الكتّاب . ومن يتتبع مؤلفاته يُعْجَبُ من كثرة ما يذكر منها وينقل عنها . وها هو ذا يخبرنا أنه كان لديه نسخة كاملة من « سيرة الرسول » لابن إسحاق

فينقل منها مباشرة . ولا يخفى أن هـــذه السيرة مفقودة الآن ، ولا نعرف منها إلاّ ما نقل ابن هشام ، كما كان لديه نسخة من « تفسير يحيى بن سلام » الذي حرره بالقيروان حوالي سنة ١٧٥ هـ .

ومن ناحيـة أخرى نعـلم أنه كان تحت تصرفه مصنفات وتقـاييد بخطوط أصحابها منها كتاب « العمدة » في صناعة الشعر . قال التجاني : « ونقلت من خط أبي علي الحسـن بن رشيق حكاية عن المفصل في هذا البيت [١] » ومنها بعض تآليف علي بن سعيد الغرناطي الاديب الطائر الصيت ، قال : « ونقلت من خط أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد في بعض تقاييده [٢] ... »

ويفيدنا أيضا عن تصـانيف اللغوي الكبير « إبراهيم بن إسمـاعيل الأجـدابي » صاحب « كفـاية المتحفظ » في فقـه اللغـة وغيره ، أنهـا كانت في خزانته ، قـال التجاني [٣] : « وأكثر هذه التـآليف ملكتُهـا بخطه . وكان ــ رحمه الله ــ من أحسن الناس خطًّا » عـدَّد منها نحو الاثني عشر كتابا .

---

(١) « الوفاء » للتجاني مخطوط
(٢) الرحلة ١٨١ طبع تونس (١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٧)
(٣) الكتاب المذكور ١٨٩

ولا ننس أنه كان في متناول صاحبنا مجموعة بديعة متنوعة من الكتب المنتقاة . وهذه المجموعة هي مكتبة السلاطين الحفصيين بقصبة تونس . ونعلم أنها اشتملت على عشرات الالاف من المخطوطات الخزائنية النادرة الوجود . وقد بذل السلاطين السالفون جهدا كبيرا ومالا كثيرا لجمعها وتكوينها في مائة سنة أو أكثر .

ويمكن الحكم الآن على نفاسة ما احتوت عليه من خلال الكتابين أو الثلاثة الواصلة الينا مما سلم منها . وهذه المكتبة هي التي لجأ اليها عبد الرحمان بن خلدون لما أراد مراجعة الاصول التاريخية والتوسع في كتابه «ديوان العبر» . وكان ذلك بعد وفاة التجاني بنحو نصف قرن .

وفي اعتقادنا أن صاحبنا كان يستعين بالمكتبة الحفصية التي بالقصبة استعانةً مستمرة ، ويثابر على مواصلة المطالعة والمراجعة بها علاوة على ما كان يملكه شخصيا من الكتب الثمينة كما هو الشأن في كل بيت من بيوت العلماء والكتّاب والأُدباء . ناهيك مـــا كان عند التجانيين من المخطوطات على مختلف ميولهم وأذواقهم . ومن يطالع مصنفا واحدا مما وضع التجاني ويحصي ما يذكره من أسماء الكتب التي ينقل عنها أو يحيل عليها يجد المئات من المؤلفات ذات القيمة الثمينة . وكثير منها لم يصل الينا .

ولا يخالجنا شك أن كثيرا مما كان في خزائن القيروان ـ قبل خرابها بسبب الزحفة الهـلالية ٤٤٩ هـ ـ انتقل الى حضرة تونس . ثم تسرَّب الى مشارق الارض ومغاربها .

حياتـه الادارية والادبيـة :

ولما تهيأت الاسباب للتجاني الشاب ، وقد امتـلأً وطابه علمـا وأدبا انخرط في سلك الكتّاب في ديوان الانشاء حيث كان يباشر أبوه وآخرون من اقاربه ، منتهجا صراط الاباء والأجـداد منذ أجيال . وقـد امتزج في ذلك الوسط الادبي بثلة من اصحاب الاقلام المعروفين مثل ابي ابراهيم ابن حسينة وأبي زيد عبد الرحمان بن نزار ، وأبي عبد الله محمد الهواري، ومحمد بن أبي زالي البلوي ، ومحمد بن يعيش ، وأحمد الرصافي وغيرهم كثير . ومـا منهم إلا من ينتهج الترسـل البديـع ويقـول الشعر . وفي غضون تقييد الرحلة يرى القارىء اتصالهم الوثيق بصاحبنا وما جرى بينه وبينهم مدة انتقاله من المراسلات الادبية المناسبة لذوق العصر .

كان انخراط التجاني في زمرتهم في مـدة السلطان محمـد المعروف بأبي عصيدة في بداية القـرن الثـامن . ولم يكد يستقر في الديوان حتى ظهرت عليـه مخايـل النّجابة وعلامـات النبوغ فاصطفاه لنفسه كبيرُ

الدولة وشيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكرياء بن اللّحياني ، وقرّب منزلته منه ، ورسمه في خواص كتّابه ، فلما عزم هذا الأمير على تفقد شؤون المملكة ، وأذاع نيته على محاربة الاسبان المغتصبين لجزيرة جربة ، وحدّد موعدَ سفره إلى تلك الوجهة عين « أبا محمد عبد الله التجاني » لمصاحبته وفوّض اليه الاشرافَ على رسائله ، وذلك في منتصف سنة ٧٠٦ هـ (ديسانبر ١٣٠٦ م) فكانت تلك الانتقالات والجولات التي يراها المطالع مبسوطة في تقييد الرحلة التجانية ، وتنتهي بعودة صاحبنا الى حضرة تونس في شهر صفر من سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . وقد فارق مؤلفنا مخدومَه من تراب طرابلس لأسباب صحية وسياسية معا : « فكان أَمَدُ الغيبة عامين وثمانية أشهر وأياما . وهي بحساب كمال الأشهر ونقصها تسعمائة يوم وخمسة وسبعون يوما » كما نبّه عليه التّجاني .

ويهمنا من هذا أنّ عبد الله كان في كامل تلك المدة محلّ الثقة والعناية الفائقة من مخدومه شيخ الموحدين . انظر الكتاب الذي أرسله الامير حين مقامه بطرابلس الى والد التجاني في تونس ، نقل إلينا رحّالنا فحواه قال : « وكان الامير - أعزه الله - وَجّهَ لوالدي كتابا بخطه يعرّفه فيه بحالتي معه ، ويصفني فيه بما يليق بذاته الشريفة ومرتبته الرفيعة المنيفة ... »

الاضطراب الداخلي :

ويعود التجاني بعد رجوعه الى تونس الى ديوان الرسائل . ويقيم على خطته السابقة الى أن يرجع مخدومه من تجـوّله في المشرق ، وحجه الى البيت الحرام . وفي أثناء مغيب الامير طرقت البلاد أحداث جسام غيّرت وضعية الحكم من جراء ثورات المتـوثبين على الملك بمجرد وفـاة السلطـان ابي عبد الله محمد بن الواثق بالله الملقب بابي عصيدة في خـلال سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) . وقـد أشرنا آنفا أنّ هـذا السلطان كان اتخذ ابن عمه الامير زكرياء بن اللحياني وزيرا مفوضا لمباشرة سياسته وذلك من حين تولّيه الملك سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) أعني مـدة خمسـة عشر عاما . وبوفاته انفتح باب الثورات والتنـازع بين المتزعمين من الاسرة الحفصية . وهمّ كلٌّ واحد منهم باغتصاب العرش ومحاولة اعتلائه ،ودامت الحرب على قدم وساق مدة عـامين بين الامـراء : ابي بكر ابن ابى زيد المسمى بالشهيد ، ثـم ابي البقاء خـالد وغيرهما . ولم يستقر لهم الملك الا قليلا .

وفي أثناء هذه الاضطرابات المتواليـة كان شيخ المـوحدين أبو يحي

زكرياء بن اللحياني قد عاد من الحج كما أسلفنا ، واستقر بمدينة طرابلس يراقب الامور من بعيد ويتربص الفرص لِمَا عسى أن يحدث في تونس ؛ فلما أيقن أن الظروف قد سنحت برفع القناع عن مرغوبه هجم من مكمنه على البلاد التونسية في جموع عظيمة من أعراب وحضر ، وقصد العاصمة . وتمت له البيعة العامة فى « المحمدية » من أحواز تونس ٢ رجب ٧١١ هـ (١٤ نوفانبر ١٣١١ م) . ودخل القصبة ، وتلقّب بالقائم بأمر الله ، وتسلّم زمام الامر . ومن أول أعماله أن عهد لكاتب سرّه القديم صاحبنا عبد الله التجاني برئاسة دواوين رسائله - وهي خطة العلامة الكبرى - ووزع بقية المناصب على من يثق به . ومن باكورة أعماله أيضا أن أسقط من الخطبة اسم المهدي الموحدي التي جرت بها عادة الحفصيين ، واستبدلها باسم محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام لما كان بينه وبين هذا السلطان المملوكي من الولاء والمجاملة (١) .

---

(١) ولد السلطان أبو يحي زكرياء بن احمد اللحياني في تونس سنة ٦٥١ (١٢٥٣ م) وامه مسيحية تسمى « محرم » وكان عالما محدثا كاتبا شاعرا اخذ في صغره بالمشرق عن علماء مشهورين منهم شيخ الاسلام ابن تيمية . وقد استقر آخرا بعد تخليه عن الملك الحفصي بالاسكندرية حيث وافاه أجله المحتوم في المحرم ٧٢٧ هـ (ديسمبر ١٣٢٦ م) وقد جمع ديوان شعره مدة اقامته بمصر والف خطبا جمعية اسماها « روضات الجنات » طبعت على الحجر في الهند .

ولا مِراءَ أنّ عبـد الله التجاني باشر ما أُلقِي على عـاتقه من المهات أحسن مباشرة طيلة إقامة هذا السلطان في الملك. ويظهر أنَّ والده قد مات قبل ذلك بقليل ، ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة ، الى أن عقد مخدومه العزمَ على مغادرة تونس لما كان يتوقع من سوء عاقبة الاحداث ، وكأنه أحس بعدم اقتداره على مقاومة قريبـه وقريعـه الامـير أبي يحي أبى بكـر صـاحب المملكة الحفصية الغربية ، فتهيّأ ابن اللحياني لمبـارحة البلاد وباع كلَّ ما لديه من غال ونفيس وأخرج حتّى المجموعة النادرة للمخطوطات التي كانت بقصورهم في القصبة ، وأشهرَها للبيـع بالمزايدة في الاسواق، فتفرقت أيدي سبا ، ولم يسمع لها بعد بنبا .

تخـــلِّي اللحيـــاني :

وخرج السلطان ابن اللحياني من الحضرة بدعوى تفقد الاوطان. وترك مكانه ابنَه ووليَّ عهده محمدا المعروف بابي ضربـة في زمن الربيع سنة ٧١٧ (١٣١٧ م) ولم يمض غير قليل حتّى فاجأ الامير أبو يحي أبو بكر تونـسَ في جنود جـرّارة وأسطول عتيد . وحـاول أبو ضربـة مدافعته بصبر وشجاعة نادرة فلم يقدره .وتحوّل ميدان الحرب الى أوساط

المملكة فانهزم آخرا جيش الامير أبي ضربة في فحص «مصوج» قرب سليانة في خلال ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ولاقى حتفه هناك الكاتب أبو الفضل محمد التجاني المتقدم ذكره . وخلا الجو للسلطان أبي بكر الذي تمكّن من توحيد المملكة الحفصية وإرجاع شيء من نضارتها المفقودة ، وفاز بالعرش الافريقي بعد ذلك دهراً طويلا .

مصير التجاني :

وهنا تقف بنا أحداث الاضطرابات السياسية والخطوب الدموية التي عاش في غمارها رحّالنا عبد الله التجاني . وهنا أيضا يحلّ بخاطرنا مشكل من أعصى المشاكل على الحل ، إذ لم نهتد لكشف القناع عن غامض سرّه ، وهو ماذا كان مصير صاحبنا إثر تلك الانقلابات ؟ فإنّا لم نعد نسمع له بخبر بعد سنة ٧١٧ هـ . ويختفي عنا نبؤه ـ وأنباء آل التجاني جميعا ـ سواء في ذلك الكبير منهم والصغير . ولم نعثر على ذكر لواحد منهم ، فماذا دهاهم يا ترى منذ أن سيطر السلطان أبو بكر على تونس ، فهل قُتِلُوا عن آخرهم كما استشهد أبو الفضل محمد في المعمعة ؟ أم فرّوا بحشاشات أنفسهم في أثناء تلك المحنة إلى بعض الأماكن القاصية

البعيدة لسبب انتسابهم لمن سلف من الملوك وإخلاصهم في خدمتهم ، فاختفوا هناك ؟ هذا ما لم ندرك حقيقته [١] .

ومبلغ الظن أن الذوات البارزة من أفـــراد الأسرة ممن شارك مشاركة فعلية في مقاومة المتوثبين قد أبيدوا بالقتل في تلك المشادات الدمـوية وفي مقدمتهم عبـد الله صاحب الرحلة ، وشرد من بقي منهم ممن لم يقاوم شرّ مشرد ، فاختفوا وأصبحوا كأمس الدابر . وكلنا يعلم أن قتل نفس ـ وإن كانت بريئة ـ في تلك الظروف كان شيئا تافها لا يعبأ به ولا يعد جريمة تنكر . وهـذه حال الافـذاذ من الرجال في دول ملك الاطلاق . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

أعقاب التجـــاني :

ويمر قرن كامل من الدهر ، ويطوي الزمان ـ على عادته ـ الصحيفة المشوّهة لتلك المحن ، فيظهر تحت سماء تونس الصافيـــة آخر عقب للتجاني . . .

---

(١) لا عبرة لمن ادعى أن وفاة عبد الله التجاني كانت في خلال سنة ٧٢١ هـ فليس هناك مبرر تاريخي لهذا الزعم الذي لم تقم عليه أدنى حجة .

أورد السخاوي في كتابه الكبير للتعريف بأهل عصره [١] ترجمة عالم تونسي كان يعيش في القرن التاسع للهجرة ، ويمت بنسبه إلى بيت التجاني . وهو آخر من وقفنا عليه من رجال هذه الاسرة . ونحن نختصر هنا ما جلب السخاوي : « أحمد بن محمد بن علي بن عبد الله التجاني التونسي المالكي ويعرف بأبي العباس ابن كحيل . ولد في ربيع الأول سنة ٨٠٢ ـ (١٣٩٩ م) . بتونس ونشأ بها ، وقرأ على محمد الصنهاجي صاحب الآجرومية ، وأخذ عن محمد بن خلفة الابي ، وعن البسيلي والشماع وأبي القاسم البرزلي والزعبي وابن مرزوق . . . وعبد الواحد الغرياني وأبي مهدي الغبريني . . . وشيوخه كثيرة . ولقى بمصر شيخنا ابن حجر العسقلاني . في سنة ٨٤٦ هـ . . . ولقيته بالقاهرة في الجامع الأزهر فكتبت عنه ما تقدم . وصنّف متنا في الفقه سماه « المقدمات » في مجلد لطيف ، وكتابا في الوثائق سماه « الوثائق العصرية » وكتابا في

---

(١) « الضوء اللامع لاهل القرن التاسع » ط مصر ١٣٥٤ ج ٢ : ١٢٦ ، وقد حصل تقديم وتأخير في نسب المترجم له ، وهذا كثيرا ما يحصل في فصول الضوء اللامع وغيره فلينتبه له ــ وعن السخاوي نقل هذه الترجمة أحمد بابا التنبكتي في « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ط مصر ١٣٢٩ ص ٨١ ــ وكذا « درة الحجال » لابن القاضي ط فاس ـ ١ : ٤١ .

التصوف سماه « عون السائرين الى الحق » . وكان فاضلا،مفوّها ، طلق العبارة ، حسن المحاضرة ، بهي المنظر ، حسن الخبر والمخبر ، والغالب عليه التصوف والصلاح . وقد ألزمه صاحب تونس (السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي المتـولي من سنة ٨٣٩ الى سنة ٨٩٣) في السنة المشار إليها أن يكون قاضي الركب - أي ركب الحجاج - وبلغنا أنه مات قريبا من سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤ م) وله أقارب علماء مصنفون رحمه الله وإيانا».

والظن الغالب أن أحمد التجـاني هذا هو حفيد عبد الله رحّـالنا ، وأنه - فيما علمنا - آخر من تيسر الوقوف على ذكره من تلك الاسرة . وأما أبوه محمد الملقب بكحيل وكذا جده علي بن عبد الله (صاحب الرحلة) فلم نعثر لهما على خبر فيما راجعنا من المصادر العديدة التي لدينا .

وإذا قدرنا أن الحفيد الاصغـر كان من العلماء المؤلفـين وأنه توفي سنة ٨٦٩ هـ أو قريبا منها وان « أقاربه كانوا علماء مصنفين » كما يذكر السخاوى فيكون السند العلمي وأسبابه قد أقـامت في البيت التجـاني ولم تفـارقه أكـثر من ثلاثمـائة عام . وهو مقدار نادر في حياة الاسرات العلمية . وربما يتـاح لنـا بعد حين أن نعثر على مـا يوضح النواحي الغامضة المجهولة من أخبـار البيت التجاني الذي نعدّه مفخرة

جليلة من مفاخر القطر حسبما يشيد به بعض الشعراء المعاصرين له فيصدح قائلهم :

لا غرو أن حاز الكمالَ فانما وقف الكمال على « بني تيجان »

مؤلفاته :

وإذا أردنا أن نحصي ما صنّف التجاني من المؤلفات ترانا في عجز عن معرفة أسمائها كلها ، إذ أن كثيرا منها لم ينص عليه أصحاب الاخبار. وها نحن نحاول هنا ذكر ما توصلنا الى الوقوف على تسميته بعد جهد جهيد نبذله من عهد بعيد . وإليك ما عرفناه مشيرين الى الموجود منها والمفقود . . .

١) « أداء اللازم في شرح مقصورة حازم » وهي الفية ـ ذات الف بيت ـ وضعها أبو الحسن حازم القرطاجني من قرطاجنة الاندلس ، المهاجر الى تونس والمتوفّى بها في رمضان ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) وقد مدح بها الخليفة محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء الاول الحفصي وذكر فيها مفاخره وصنائعه وهي من البلاغة والمتانة بمكان ، وكان وضع التجاني لهذا الشرح في المحرم من عام ٦٩٩ هـ [١] فهو من أقدم

(١) كما شرح هذه المقصورة ـ بعد ذلك ـ قاضي غرناطة أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي المتوفى ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وطبع هذا الشرح في جزئين بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

مؤلفاته . والظاهر أنه صنفه وله من العمـر عشرون سنة أو نحوهـا . وهذا الشرح مفقود الآن بكلّ أسف ولا نعلم بوجود نسخة منه .

٢)« الوفـاء ببيان فوائد الشفاء » قـــال التجـاني في مقـدمته « الحمد لله وسـلام على عبـاده الذين اصطفى . . . هذا كتاب مبـارك اعتمدت وضعه على كتـاب « الشفــا بتعريف المصطفى » من تأليف القاضي أبي الفضل عيـاض بن موسى اليحصبي . . . وسميته بكتـاب « الوفاء ببيان فوائد الشفاء [١] » ولا ريب أنه من أمتع شروح «الشفاء» تحرّى فيه صحة النقل ودقة النقد للأخبار المروية ، ونبّه على الأحاديث الضعيفة والمرسل منها ، وبسط القـول في كثير مما أورد من الاخبـار والقصص والتراجم . وهذا الشرح يخرج في نحو أربعة أجزاء أو أكثر . والموجود منه في مكتبة جامع الزيتونة قطعة صالحة لجزئين ، وهي بخط تونسي قريب العهد مرسومة تحت رقم ١٣٢١ . وقد استفدت كثيرا من مراجعتها فيما يتعلق بحيـاة التجاني ودراسته وتلقّيـه للعلوم . وبالجملة فهو كتاب ممتع بالافادات العلمية الدالة على سعة معلومات المؤلف وسلامة ذوقه ومعرفته القـوية باللغة والأخبار الاسلامية الماضية .

---

(١) الوفـاء للتجاني ، خط .

ونسوق إليك على سبيل التمثيل اعتراضه على استعمال كبار الكتّاب بعض الكلمات في غير معناها الأصلي ، كقوله بمناسبة كلمة « سائر » :

« ووجدت أنا في شعر أبي العلاء المعري بيتا استعمل فيه لفظ « سائر » بمعنى الجميع ، وذلك قوله في الشريف أبي إبراهيم العلوي .

ألزم العالمون حبّك طرًّا فهو فرض في سائر الأديان

وهذا البيت غريب ، وإنما الأكثر في كلام العرب استعمال سائر بمعنى الباقي لا غير ، وهو الذي يدل عليه حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتقدم . واختلف القائلون بأنه إنما يستعمل بمعنى الباقي الأقل دون الاكثر ، وذهب بعضهم إلى الباقي مطلقا قليلا كان أو كثيرا ، وهذا هو الصحيح . »

أقول : وياحبذا لو وفق بعض شبابنا الناشط للعناية ببعث هذا الشرح العلمي المفيد .

٣) « الدر النظيم » في الادب والتراجم . والظاهر أنه مصنف كبير جمع فيه التجاني أخبار أدباء الدولة الحفصية مِمَّن تقدم عصره. وكان وضعه له قبل ابتداء الرحلة إذ يقول فيها : « وقد ذكرناه

(عبد الرحمان بن عيسى) وأخاه في كتاب « الدر النظيم » بأتم من هذا [١].
ومن دواعي الأسف أن يضيع مثل هذا الكتاب الذي كان يفيدنا كثيرا عن الحركة الفكرية في بداية العصر الحفصي. ولم نقف له على أثر. ولو لا ذكر المؤلف له في رحلته لما كنا نهتدي لوجوده.

٤) « تقييد على صحيح مسلم » بن الحجاج القشيري، حرره مدة إقامته بطرابلس سنة ٧٠٧ هـ حين قراءته بها على الشيخ عبد العزيز بن عبيد السبائي من علمائها. قال التجاني: « وقد كنت ابتدأت تقييد ما أنتجته فيه بيننا المناظرة، وأفادته المحاضرة، مما جاء كالإكمال لكتاب « الاكمال ». [٢] ويعني كتاب « إكمال المعلم على صحيح مسلم » وهو زيادة شرح للقاضي عياض السبتي على شرح « المعلم بفوائد مسلم » للامام محمد المازري دفين المنستير.

٥) « تقييد على المسند الصحيح للبخاري» وضعه أيضا بطرابلس في التاريخ المتقدم بعد ان انتهى من قراءة صحيح مسلم. قال التجاني: « ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة أخرى من كتاب المسند الصحيح للامام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري... »[٣]

---

(١) الرحلة ص ٢٦٢
(٢) الرحلة ص ١٨٣
(٣) الرحلة ص ١٨٤

وكلّ من التقييدين السالفين مفقود ولا نعلم عنهما شيئا .

٦) « نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين » مجموع أدبي في سفر ضخم جمع فيه التجاني المخاطبات والمجاوبات الدائرة بينه وبين الاديب الاندلسي محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي السبتي الأصل والمنتقل الى غرناطة ، وقد تولى قضاءها . قال التجاني :

« وهذا الرجل من أعظم من رأيت تحقيقا ، وأحسنه في النظم والنثر طريقا ، وقد كنت اجتمعت به في تونس ووصل إليها في عام ٧٠٣ . وكانت نيته التوجه الى الحج فلم يقض له ذلك » .

وقد اعتنى التجاني بجمع الرسائل الدائرة بينهما « مما ملأ سِفرا جمعته وسميته « نفحات النسرين [١] » وهذا السفر مفقود أيضا .

ومن المناسب أن نعرض هنا لونا مما كانت تحويه تلك المكاتبات ، فمن قصيدة لابن شبرين يتشوق فيها إلى الاجتماع بأحبابه التجانيين في تونس يقول :

يا نسمةً سحبت فضولَ ذيولها ما بين ورد بالعُذَيبِ ونرجس
حطّي رحالَ تحيتي في معهد بين الجوانح منه عهدٌ ما نُسِي

(١) الرحلة ص ١١٨

والحي من «تيجان» فاشرح عندهم　　　فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس [١]

٧) « علامة الكرامة في كرامة العلامة » ولا نعرف من هـــذا التاليف سوى اسمه . والظاهر أنه نوه بذكر وظيفة « العلامة الكبرى » و« الصغرى » وهو ما كان يوضع من الكتابة بالقلم الغليظ في أعلى الظهائر السلطانية والأوامر الرسمية لملوك بني حفص ولغيرهم من ملوك المغرب . وفي الحقيقة أنّ « صاحب العلامة » كان يشغل منصب الرئاسة العليا لدواوين الانشاء ، فالمعاهدات والمراسيم والرسائل التى تصدر عن السلطان لملوك العالم كانت تحلّى بالعلامة الكبرى ، كما أن المكاتيب العادية والأُذون للعمال والقضاة وسائر نواب الحكومة في داخل القطر وكذا تسمية الموظفين يوضع عليها العلامة الصغرى من تحرير غيره من كتّاب الديوان . والعلامة نفسها هي عبارة عن جملة مختارة في معنى حمد الله تعالى وشكره وتمجيده . ويختلف رسمها وعباراتها عند استيلاء كل ملك من ملوكهم [٢] .

أما تأليف « العلامة » هذا فالغالب على الظن أن التجاني ترجم فيه

× (١) انظر القصيدة كاملة في الرحلة (١١٨ - ١٢٠)

(٢) راجع ما قال ابن خلدون عن العلامة في مقدمة تاريخه .

للكتّاب الذين تداولوا هذه الوظيفة مثل ابن الآبّار ، وابن أبي الحسين، وابن الخباز . وقد تقدم ذكـر البعض منهم . ولو قدر لهـذا السفر أن يصل إلينا لكنا نستفيد منه كثيرا عن نظام ديوان الرسائـل في الدولة الحفصية ، وعمّن تولاّها من أعيان الأُدباء .

٨) « تحفة العـروس ونزهـة النفوس » هـذا التصنيـف مغـاير في موضوعه لما مرّ بك من كتب التجاني ، إذ إنه مجموع أدبي رائق رتبه على خمسة وعشرين بابا في معاشرة النساء ، وأخلاقهن وخصالهن ، وصفة أعضائهن من حسن وقبح ، وفي العفاف والصون ، وفي الزينة والتطيّب، وفي حقوق المرأة على الرجل ، وفي الغيرة ، وبيان ما يحمد منها وما يذم. وختمه بباب متسع في الملح والمفاكهات من هذا النوع ، وأورد فيه من الآيات القرآنيـة والأحـاديث النبويـة مـع تفسيرها وشرحهـا ، ومن الحكايات الطريفة ما يناسب كلّ مقال .

وقد وهم بعض مستشرقي الافرنج ـ مثل بروكلمان وغيره ـ اذ ظن أنه من نوع كتاب « رجـوع الشيـخ الى صباه » . والحقيقة أنـه ليس هو من النمط المشار اليه ، ولم يوضع لهذا الغرض ، بل يلوح من خلاله أن المؤلف أراد أن يـثبت ـ على عادته ـ سعة إحـاطته بالأدب العربي القديم ، ورسوخه في فهم نصوصه مع شرحها وتفسير الغامض منها .

ثم إنه أبان في مقدمة كتابه الغرض الذي رمى إليه من وضعه ، خشيةً منه أن يظن به النزول الى صف الكتب المصنفة في المجون والفحش المستهجن على ما كان جائزا في عصر تقهقر الآداب العربية ، فيقول في خطبة « تحفة العروس » : « وليس كتابنا هذا في الحقيقة كتاب سَمَر وإنما هو كتاب علم ونظر » . والواقع يؤيد ذلك تأييدا كاملا .

وعلى كل فان عبارة « تحفة العروس » عبارة سهلة التناول ذات طلاوة واضحة وطريقة ظريفة في عرض الحكايات والأشعار ، مع الحرص منه على نقدها وتمحيصها كما هو شأنه في جميع تحريراته . ومن المحقق أنه ألّفها بعد رجوعه من الرحلة بسنوات .

ويوجد منها نسخ مخطوطة في غالب مكتبات الشرق والغرب ، منها نسخة صحيحة بمكتبتي الخاصة تاريخ نسخها سنة ٨٠٦ ه اي أقل من مائة سنة بعد المؤلف . وطبعت « التحفة » في القاهرة عام ١٣٠١ه. وترجمها الى اللغة الفرنسية باختصار وبأغلاط كثيرة « روسو - Rousseau » ونشرت في الجزائر وباريس سنة ١٨٤٨ تحت عنوان
« Touhfet El Arous , ou Cadeaux des Epoux »

تحقيق اسم المؤلف :

والجدير بالملاحظة أن اسم المؤلف التجاني وقع فيه اضطراب كبير ، فقال بعضهم إنه « محمد بن أحمد بن إبراهيم » وجعله آخر : « محمد بن عبد الله بن ابراهيم » ، وسماه ناشر : « تحفة العروس » بمصر ... « أبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني » وكأنه توهم أنه « احمد التجاني » صاحب الطريقة الصوفية المغربية المعروفة أو أنه ابنه ـ على الاقل ـ فوصفه بقوله : « صاحب السرّ الربّاني » .

والذي يخطر ببالنا أن هذا التشويش ناشيء عن أمرين : الأول عدم وجود تعريف لحياة مؤلفنا في الكتب المتداولة للتراجم، والثاني اللبس الذي يحصل من إبدال أسماء الرجال بالكنى . وكانت طريقة مستعملة كثيرا في أثناء القرون الوسطى الاسلامية في المغرب . مثال ذلك : من اسمه محمد لا يقال فيه إلا أبو عبد الله ، وعبد الله لا يعرف إلاّ بأبي محمد ، وزكرياء بأبي يحي ، ويحي بأبي زكرياء، واسحاق بأبي ابراهيم ، وابراهيم بأبي اسحاق وهلم جرّا ، مما يؤدي بطبيعة الحال الى الالتباس والتشويش في تعيين الأشخاص عندما تذكر كناهم دون أسمائهم .

وهذه الكنى هي في الحقيقة اصطلاحية ومصطنعة ولا تتفق مع الواقع ، لا كما كان الشأن عند العرب وجرت به عادتهم في القرون الأولى من استعمال الكنية من باب التبجيل والترحيب وفي دائرة خاصة ، فينسب الرجل الى اسم البِكر من أولاده . وبتعاقب الزمان صار الأمر على خلاف ذلك من لدن الدولتين : الموحدية والحفصية بالمغرب ، واستمر كذلك الى عهد غير بعيد .

وربما كانت البلية عامة في جميع البلاد الاسلامية في الوقت نفسه اذ إنه أضيف الى الاسماء في المشرق خاصة ألقاب كأنما يقصد بها المباهاة وزخرف القول فقيل : فخر الدين الرازي ، وعز الدين بن عبد السلام ، وسعد الدين التفتزاني وما لا يعدّ كثرة من النعوت التي لا تمت الى الحقيقة بشيء ، ولا يتيسّر التوصل منها الى الاسم الاصلي الذي ألغي تماما ، فإذا قيل مثلا « ولي الدين بن خلدون » لا يهتدى الى معرفة أنه عبد الرحمن ، فيشتبه حينئذ الأمر مع أسماء بقية أفراد أسرته الكثيرين .

وقد رأينا من الحتم التنبيه على هذه الأوضاع المتفشية في العصر الحفصي حتّى لا يستغرب من استعمال الكُنَى بدل الأسماء .

أما تحقيق اسم صاحبنا التجاني فهو ما رسمنا في طالعة الكلام

عليه وعلى المشهورين من آل بيته • ولنعد الى ذكر مؤلفاته ،فمنها :

٩) « تقييد الرحلة » أخرنا ذكر هذا التصنيف لسبب واضح إذ أنه الغرض الأصلي من هذه المقدمة .

الحق أن « الرحلة » من غرر المصنفات التونسية ، وكأنها الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الافريقية والتعريف بعمرانها أوائل القرن الثامن للهجرة ، أحد العصور الغامضة الأنباء في تاريخ تونس الاجتماعي والسياسي لندرة النصوص الواصلة الينا عنه .

فمن أهم خصائصها أنها تبسط لمطالعها أخبار المدائن والقرى التي يمر بها الرّحال كل واحدة بانفرادها ، وتجعله يحيط علما بما مضى من أحداثها ، مع التعريف بالنابغين من أبنائها ما بين فقهاء ، وقوّاد ، وأدباء ، وصلحاء قدامى ومعاصرين . ثم إنها لا تقتصر على وصف المدائن التي يجتازها بما فيها من معاهد ومعالم ذات شهرة وقيمة. بل تبيّن – نقلا ومشاهدة – أسماء الأوطان والنواحي ، ومن يسكنها من القبائل ، وما يتفرع عن كل قبيلة من بطون وأفخاذ من البدو الرّحل

فيميز بين أصولها وفروعها ، وينسب كلا منها الى أن ينتهي الى مشهور الأصل الجامع .

وهكذا يزور التجاني الساحل التونسي الزاخر بالعمران قديما وحديثا . ويمر بصفاقس، ثم ينزل الى الجنوب ناحية قابس وجزيرة جربة فيعرفها أحسن تعريف ، متعرضا للعقائد والعادات المحلية الشاذة مثل وصفه لطريقة دفن الأموات بقرية « المقدمين » بجبال مطماطة ، وهي من تقاليد قدماء البربر ، وقد انقطع استعمالها اليوم . ثم يدخل الواحات الجنوبية بقسميها الشرقي (مطماطة ونفزاوة) والغربي (بلاد الجريد) ويقطع سبخة « التاكمرت » ثم يعود في ركاب مخدومه فيجوز الى التراب الطرابلسي ويزور منازله الساحلية ومداشره كزوارة وزواغة وزنزور وينعتها بما تستحق . ويقيم بمدينة طرابلس مدة يتصل فيها بمن هو متصف بالعلم ، ويحضر مجالس بعض محدثيها . وبعد برهة من الزمن يسافر مخدومه الى المشرق فيفارقه التجاني ويلوي عنان جواده عائدا الى وطنه على طريق الجادّة الأزلية التي تربط إفريقية بالمشرق . ويعود الى وصف ما يمر به على غير الطريق الأولى الى أن يبلغ في آخر تَرحاله الى حضرة تونس عاصمة البلاد وقصبتها الشامخة من حيث ابتدأ الرحلة . و من طريف أوضاع المؤلف في تقييده أن يعرض على

قارئه تفصيل ما يرد عليه من المكاتبات العائلية والاخوانية ، وينشر بين يديه ما تشمله الرسائل من شعر ونثر . وكلها محررة على ذلك النمط المسجع الذي ولع به أهل القرون الوسطى الاسلامية ، وهي ـ على سذاجتها ـ تعرفنا بآل بيت رحّالنا وبأحبابه ومعارفه في داخل القطر وخارجه .

ومما يلفت النظر في الرحلة أن صاحبها أورد في غضونها وثائق تاريخية بنصها الأصلي . وقلما رأينا رحّالا يأتي بمثل هذه النصوص المهمة . ومن أخطرها ذلك السجل الصادر عن الحسن بن علي آخر الامراء الصنهاجيين المعلن بانتصاره على جيش « النرمنديين » في وقعة الديماس بالساحل التونسي ، أضف الى ذلك جملة أحداث معاصرة لم نكن لنعرفها لولا ما أثبت من أنبائها وتفصيلها .

وجملة القول أن رحلة التجاني مرآة صقيلة صافية تتمثل فيها صورة البلاد التونسية من حيث عناصر السكان وهيئتهم الاجتماعية والاقتصادية علاوة على تفصيل جغرافية القطر وتاريخه وتراجم مشاهير أبنائه مع التعرض للنباتات الخاصة بكل جهة من جهاته . وهو مقدار من الافادات قلما اجتمع في رحلة واحدة . وفي ذلك بلاغ .

تحقيق أصل الرحلة :

في خلال ١٩٢٣ خطر لادارة المعارف السابقة أن تعهد الى لجنة تتألف من سبعة أشخاص لتحقيق مخطوطات عربية مختارة من بين المصنفات التونسية في الأدب والتاريخ والجغرافية بقصد نشرها وترجمتها الى اللغة الفرنسية إن اقتضى الحال .

ووقع اختيار اللجنة على نحو عشرين مخطوطا منها ، ووقع توزيع الاشتغال بها على الاعضاء ، فتكفل الاستاذ المرحوم « وليم مرسي » رئيس اللجنة بالاشراف على تحقيق « رحلة التجاني » وكان من نصيب كاتب هذه الاسطر تجهيز كتاب « آداب المعلمين » لمحمد بن سحنون . وكلّف بقية الاعضاء بمخطوطات أخرى ، وأقبل الجميع على العمل مع مراجعة بعضهم لبعض عند الحاجة .

وأول ما صدر من المجموعة المتفق على نشرها « آداب المعلمين » فطبع على نفقة إدارة المعارف ، وتأخر ظهور « الرحلة التجانية » الى ما بعد ذلك ، لما لزم من المراجعات والمقابلات والتحقيقات . وكانت الاصول التي اعتمد عليها من الرحلة ست نسخ خطية استعيرت من عدة مكتبات : من الزيتونة ، ومن المكتبة الشعبية بالجزائر ، ومن

تلمسان ، ومن خزانتي الخاصة . وقد بذل الاستاذ « مرسي » جهده وكامل عنايته وخبرته العلمية في العمل .

وفي الواقع أن جميع هذه النسخ المجلوبة كانت على جانب عظيم جدا من التحريف والتصحيف والسهو والاغلاط الفادحة ، ولم يكن من بينها واحدة قديمة ثابتة يرجع اليها ويعتمد عليها ، فكلها متأخرة النسخ ، وكأنما نقل بعضها من بعض حتى في أغلاطها وأوهامها التي لا تحصى عددا ، لا سيما في القصائد الشعرية الواردة في الاصل . ومن المراجع التي عدنا اليها كتاب «الحلل السندسية في الاخبار التونسية» تأليف محمد الوزير السراج الذي أتى على غالب الرحلة فأدمجها في كتابه . ويظهر أنه كلما عرض له تحريف أو تصحيف في النسخة - او النسخ - التي بين يديه كان يعوضه بلفظ من عنده بدلا عن الخلل أو النقص الموجود في الاصول المنسوخ منها خصوصا في القصائد الشعرية .

ولما انتهى من إثبات النص الكامل بعد ضبطه وتصحيحه حرص الاستاذ « وليم مرسي » على نشره . وتم ذلك في « المطبعة الرسمية التونسية » القديمة . ووقف بنفسه على مراجعة التجارب بقدر الاستطاعة فبرزت الرحلة في خلال سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) من غير ان تصدر بتوطئة مناسبة ولا فهارس . وحال دون ذلك من بعد نشوب الحرب الكبرى

الثانية ، وتسلمت إدارة المعارف يومئذ ما طبع من النسخ واختزنته في دواوينها. وبقيت هنالك هي وصاحبها كتاب « آداب المعلمين » عرضة للرطوبة والاهمال ، ممنوعة عن أنظار المتشوقين الى مطالعتها ، ولم يفلت منها سوى نسخ قليلة تهافت عليها من كان من القراء في في حاجة إليها .

فلما ظفرت البلاد التونسية باستقلالها وفازت بحريتها المنشودة وتهيأت لها وسائل النهوض ودعائم الوعي القومي ، انبعثت « وزارة التربية القومية » بنشاط حثيث لتدارك مافات ، وإرجاع ما كاد يضمحل أو يموت ، وما فتئت دائبة على جد العمل لتأييد حركتنا العلمية المباركة ، باذلة السعي المتواصل لاحياء تراثنا القومي الزاخر ، وبعث مئاثرنا الزاهرة من مرقدها وتشخيص مزاياها الفاخرة .

ويحق لنا أن نشيد هنا بتوجيهات فخامة رئيس جمهوريتنا ، الساعي لاعلاء كلمتنا ، وتحقيق نهضتنا ، المجاهد الاكبر السيد « الحبيب بورقيبة » إذ إليه يرجع الفضل في الاشارة بإعادة طبع « رحلة التجاني »[1] وغيرها من الذخائر التونسية ، وقد أذن كاتب دولته للتربية القومية

× (١) طبعت سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

بالمبادرة لاعادة طبعها ، وبعثها من مرقدها وإزالة غبار النسيان عن سفرها ، لينتفع بها أهل الابحاث ، وهواة الرحلات ، فلفخامته المحبوبة الشكر الأوفر من تونس الناهضة على عنايته بكل ما من شأنه أن يزيد في معرفة البلاد ويرفع بين الأقوام من قدرها ، ويدل على مجدها وفخرها .

وأبناء القطر التونسي العزيز في حاجة ملحة اليوم الى معرفة ماضي بلادهم والاحاطة بما كانت عليه من العزة والعظمة في غابر الزمان حتى يضطلعوا بالزيادة من محبتها ، والتضافر لرفع منزلتها ، والظروف تفرض عليهم هذا الواجب الأقدس في عصر تستشرف فيه تونس الى مستقبل مجيد ، وها هي تناشد أبناءها الأبرار التفاني في الاجتهاد ، وتدعوهم الى اقتفاء أثر الأجداد الأمجاد .

وإذا عظّم البلادَ بنوها   أنزلتهم منازل الاجلال !

عن سلام بو ـ مستهل ربيع الأول ١٣٧٧ .

•

شهامة النساء القيروانيات

شهامة النساء القيروانيات

كان فتح الشمال الافريقي من أشقّ الفتوحات التي تولّاها العرب وأشدّها عنفا، وأطولها أمدا، وقد لاقى غزاتهم ـ في سائر القرن الثاني ـ مقاومة لم يعهدوها في جميع ما امتلكوا من بلاد المشرق، إذ أنّ مقابلة حربية كبيرة واحدة هناك كانت تكفيهم مشقّة تعدّد المقابلات مثل وقعة « اليرموك » ببادية الشام، و « القادسية » بأرض فارس، خلافا لما حصل لهم بالمغرب، فإنّهم هنا لم يواجهوا دولة منظّمة، لها سيادة مستقرّة، وجند رسمي، متى انكسر واختلّت صفوفه لم تعد تحاول إعادة المعركة، بل تعود الى الصلح والرضى بقبول دفع الجزية، والخضوع للانخراط في بودقة الغالب بتعلّم لغته، والاعتراف بديانته، والتشبّه باوضاعه وتقاليده.

أما في إفريقية التونسية ـ كما في بقيّة الأقطار المغربية ـ فلم يقابل العرب دولة متّحدة تمثل الشعوب التي تقطن البلاد، بل وجدوا أمامهم أقواما متفرّقين، أصحابَ شوكة قويّة وعصبيّة قبليّة صعبة المراس، فإذا

انهزمت منهم فرقة سرعان ما تحلّ مكانها فرقة أخرى تنتصب لكفاح جنود الفاتحين ، وهكذا دواليك .

وكان من سياسة البربر حينئذ إدماج بقايا الرّوم البيزنطيين في صفوفهم للاستفادة من تجاربهم ، ومن خبرة رؤسائهم بأساليب المقاومة وطرائق الدفاع .

يضاف إلى ذلك عامل آخر كان من أكبر الأسباب لتوحيد كلمة البربر الأهليين ، وإنسائهم منازعاتهم الداخلية القديمة العهد ، وخلافاتهم العنصرية المتمكّنة في نفوسهم ، وذلك أنهم اجتمعوا على اعتناق « الخارجية » التي ظهرت بالمشرق ، وتدرّجت في زمان قصير إلى أصقاع المغرب بواسطة بعض المحاربين من العرب ، فسارع البربر إلى التمسّك بهذه النِّحلة الجديدة بعد ما أعلنوا عن إسلام ظاهري ، مخفين ما تكنّه نفوسهم من العداوة للعرب ، وتربّص الفرصة للايقاع بهم ، فانتحلوا أشدّ مذاهب « الخارجيّة » تعصّبا ، وهو مذهب طائفة « الصفرية » التي تبيح أتباعها سفك دماء من لا يؤمن بقولهم ، واستحلال سبي نساء أعدائهم واسترقاقهنّ ، وبيعهنّ كوحوش السودان في الأَسواق .

واندفعت عشائر البربر من المحيط الأطلنطي الى آخر طرابلس لاتخاذ « الصفرية » نحلة رسميّة ومعتقدا قوميّا .

وعلى هذا المبــدأ الخارجيّ تآلفت عصاباتهـم وتجمّعت قوّاتهـم ، وبمقتضاه هاجموا السلطة العربيّة من داخل حضيرتها ، مدّعين الاخلاص للاسلام ، ومسرّين في باطنهم التمرّد والعصيـان ، فـكان كلّما ظهر شيء من الضعف على سلطـان الولاة بافريقية إلاّ وانكشفت مـقـاصد البربر الباطنية وبانت مطامعهم لطرد العرب ونبذ الاسلام .

وتكالبت العصابات المتشبّثة بـ « الصفرية » على امتـلاك القيروان ــ العاصمة العربية الكبيرة ــ وابتزازها من يد الولاة . واشتدّت هذه الظاهرة في أواخر الدولة الأموية بالمشرق، فاجتهد خلفاء بني أميّة في إرسال قوّات من الأجناد إلى افريقية على بعد الدار ، وعيّنوا على رأسها أقدر القوّاد لديهم ، مثل عبيد الله بن الحبحاب ، وكلثوم بن عياض ، وحنظلة بن صفوان ، وكانوا جميعا قبل ذلك ولاةً لمصـر ، فأظهـروا إخلاصًـا تامّا للدفاع عن الاسلام ، وبذلوا جهدهم بل نفوسهم لاعلاء كلمة الله .

نقل الإخباريون عن الشيخ عبد الله بن أبي زيد القيرواني أنه قال: كان بين العرب والبربر من لدن الفتح إلى أيام عمـر بن حفص المهلّبي ، ثلاثمائـة وخمس وسبعون وقيعة . وكان مقتل عمـر بن حفص في آخر

سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) أي في مدّة لا تتجاوز المائةعام من تأسيس القيروان .

ومن أروع ما وقفت عليه في وصف ملحمة من الملاحم التي دارت بين غزاة العرب الأَولين وبين الفرق البربرية المتجمهرة تحت لواء الصفرية في سنة ١٢٤هـ (٧٤٢ م) هو ما نقله شيخ مؤرخي افريقية وأعني به الكاتب الرقيق القيرواني في تاريخه الكبير [١] .

وخبر هذه الوقعة بالصورة الآتية لم ينصّ عليه مؤرخ قبل الرقيق ولا بعده فيما علمت . وعلى كلّ فانّ هذه الملحمة كانت من المواقف الحاسمة التي أركست الخوارج الصفرية ، وأخضدت شوكتهم ، وأذلّت عصابتهم ردحا من الزمن . وظاهر أن « الرقيق » نقل خبر المشادة الثانية من الرواية الواردة عمّن أسماه « ابن أبي حسّان عن أبيه » ويقصد به عبد الله بن أبي حسّان عبد الرحمان بن يزيد اليحصبي ، المولود سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) والمتوفّى سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠ م) . وهو من اشراف عرب إفريقية

---

(١) ابراهيم الرقيق «تاريخ إفريقية والمغرب» قطعة خطية محفوظة بالمكتبة العامة بالرباط ، تفضّل السيد محمد المنوني الاستاذ بجامعة العلوم في المغرب بالسماح لأحد الأصدقاء بتصويرها ، وهو عازم على نشر تلك القطعة برمّتها ، فله الشكر الجزيل على مساعدته بتصويرها . (×) نشرت القطعة المذكورة بتونس سنة ١٩٦٨ بتحقيق المنجي الكعبي .

بشرف أبيه وبنيه وفقهه وأدبه . وكان يسكن بالقيروان في حارة « يحصب » المنسوبة اليهم . قال مؤرخ إفريقية القديم أبو علي ابن الوكيل عند التعريف به : كان ابن أبي حسّان عالما بأيام العرب وأنسابها ، راوية للشعر ، قائلا له ، وعنه اخذ الناس أخبار إفريقية وحروبها ، روى ذلك عن أبيه. وأبوه ، أبو حسّان عبد الرحمان ، كان من الجنود المشهورين بالبسالة والنجدة ممّن أخذ نصيبا وافرا في حروب الصفرية بجنب الولاة الأمويين ، وأبلى فيها البلاء الحسن [١] .

وقد آثرت نشر فقرات مقتبسة من تصنيف الرقيق المتوفى في حدود سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٣م) مع احترام ما في الأرقام الواردة من المبالغة البيّنة في عدد الجنود المهاجمة للقيروان ، وعساكر المقاومة ، وفي عدد القتلى . ونقلت عبارة المؤلف على علّاتها .

وألفت النظر - وهو المهمّ - الى ما جاء في هذا الفصل من شجاعة نساء العرب القاطنين وقتئذ بالقيروان ، وما أظهرن من الحماس النادر ، والحميّة المدهشة في مشاركة رجالهن للدفاع عن شرف حرمتهنّ ، وبالتالي عن حوزة البلاد ، لما لهنّ من عزّة نفس وشمم عال .

---

(١) راجع ترجمة عبد الله بن أبي حسّان في ترتيب المدارك لعياض ج ١ مخطوط ، ومعالم الايمان ٢ / ٣٧

كما أنبّه القارىء - قبل النقل - أن هـذه الحملة البربرية كانت تتألّف من شعبتـين متفرّقتين ، يقـود عصابات الأولى « عـكاشـة بن أيوب الفزاري الصفري » وهي التي لاقاها العرب أوّلا تحـت جبـل القـرن (جبل الباطن الآن المطلّ على القيروان). ويتقدّم الثانية ، وهي اللاحقة « عبد الواحد بن يزيد الهواري » وقـــد نزلت بمكان « الأصنام » على مسافة ثلاثة أميال من العاصمة .

وها هو مؤرخنا الرقيق يشرح لنا تفاصيل المقابلتين ، ناقلا بلا شك عن غيره من القدماء أصحاب المغازي الافريقيين الذين لم تصلنا آ ثارهم.

قال الرقيق : (١)

« ... ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك قتل كلثوم بن عيـاض وأصحابه ، بعث إلى إفريقية « حنظلة بن صفـوان » وكان عـامله على مصر وولاه عليها سنة تسع عشرة ومائة ، فأقام عليها حتّى وجّهـه الى إفريقية سنة أربع وعشرين ومائـــة ، فقدمها في شهـر ربيـع الآخر منها . . . ولم يمكث حنظلة بالقيروان الاّيسيراً حتى زحـف اليه « عكاشة الصفري » بجمع عظيم من البربر لم ير أهـــل إفريقية

× (١) من ص ١١٤ الى ص ١٢٢ من النّص المطبوع مع بعض الخلاف في قراءة النص .

مثله . . . وزحف أيضا الى حنظلة « عبد الواحد بن يزيد الهواري » في عدد عظيم ، وكانا افترقا من الزاب ، فاخذ عكاشة على طريق « مجّانة » [١] فنزل القرن [٢] ، وأخذ عبد الواحد بن يزيد على طريق الجبال ، فنزل طنبياس [٣] وعلى مقدّمته أبو عمرة المغيلي ، فرأى حنظلة أن يعجّل قتال عكاشة قبل أن يجتمع عليه البربر ، فزحف اليه بجماعة أهل القيروان ، والتقوا بالقرن فكان بينهم قتال شديد ، فني فيه خلق كثير من الناس ، وهزم الله عكاشة وأصحابه ، وقُتِل من البربر ما لا يحصى كثرة .

وقيل إنّ حنظلة لمّا رأى كثرة ما دهمه من البربر قال لأصحابه

---

(١) مجانة – بفتح الميم وتشديد الجيم – مدينة أزلية تقع بالشمال الشرقي من مدينة تبسّة من مقاطعة قسنطينة بالجمهورية الجزائرية ، قريبا من الحدّ الغربي لتونس ، وكانت تعرف قديما بمجّانة المعادن لوجودها في وسط أرض مشهورة بكثرة معادنها . راجع البكري ص ١٤٥ .

(٢) تقدّم أن جبل القرن المطلّ على القيروان ، هو المعروف الآن باسم جبل الباطن .

(٣) لم نهتد الى معرفة مكان طنبياس والمظنون أنها كانت تقع بين تونس وباجة (×) قراءة م . الكعبي « طساس » .

نخندق على أنفسنا [بالقيروان] ونستمدّ أمير المؤمنين ، فقال عمرو بن عثمان القرشي ـ وهو اذاك شابّ حدث السنّ ـ : الله ، الله ياحنظلة ، أتستمدّ أمير المؤمنين والكرائم محصورات يمتن هُزلا ! بل نخرج الى عدوّنا حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فعزم حنظلة وعزم الناس ، ونزل العدوّ ، وخرج رجل من البربر من أصحاب عكاشة يدعو الى البراز فلم يجبه أحد ، فقال حنظلة : ألا أحد يبرز إلى هذا ؟ فبرز اليه « حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع » فصاح به أخوه : ارجع عن هـذا الكلب ! . قال حنظلة : ترد أخاك فيردُّ كلّ واحد وليّه عن هذا الكلب .. خلّوا لي هذا الكلب الذمار ! امض ـ يا ابن أخي ـ فمضى القرشي ، فلما دنا من البربري بادره البربري بالضربة فاعطاه القرشي الدرقة، ثم ضرب ساقيه فبراهما ، وسقط البربري ، فجلله [1] القُرَشي بالسيف فقتله .

وقال حنظلة : الحملة ! . فحمل الناس ، فهزم الله عكاشة ومن معه. وكانت النساء قد ركبن ظهور البيوت بالقيروان ، فاذا رأين الغبار

---

(١) قوله : جلله ، أي قطع رأسه عن جسده ، والجلل هو قصب الزرع وسوقه اذا حصد عنه السنبل ،

سائرا الى الجبل (القرن) كبّرن وسجدن ، واذا رأينه مقبلا صرخن واستغثن ، فبعث حنظلة البشيرَ بهزيمة البربر ، وانصرف راجعا الى القيروان خوفا أن يخالفه عبد الواحد اليها .....

قال : وتوافى عبد الواحد ـ بعد عكاشة ـ فنزل بالأصنام من جراوة عن ثلاثة أميال من القيروان ، وكان في ثلاثمائة ألف. قال عبد الواحد بن أبي حسان : فأخرج حنظلة كل ما كان في الخزائن من السلاح ، وأحضر الاموال ، ونادى في الناس ، فأول من دخل عليه رجل من «تجيب» من أهل قلعة مجّانة ، فقال له حنظلة : ما اسمك ؟ ، قال : نصر بن ينعم ، قال : فتبسم حنظلة كالمكذّب له . ثم قال له : بالله اصدق ! ، قال : والله ، مالي اسم غير ما ذكرت لك ، فدعا عريفه فقال : ما اسم هذا ؟ ، قال : نصر بن ينعم ، فكبّر حنظلة عند ذلك وتفاءل به . . . وأمر بدرع فصبّت عليه ، وأمر بواحد بعد واحد يصبّ عليه الدرع ويعطيه خمسين دينارا ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر الناس عليه ، فردّ العطاء الى أربعين ، ثم الى ثلاثين ، ولم يكن يقدّم إلا شابا قويّا .

قال : فعبّأنا حنظلة الليلَ أجمع ، والشمع حوله وبين يديه ، فلم

يصبح حتّى عبّأ خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابـــل [١] ، وجعل حنظلة على الطلائع « شعيب بن عثمان » وعلى الساقة « عمرو بن حاتم » وعلى الميمنة « عبد الرحمـان بن مالـك الشيباني » ، فلمّا دنوا من البربر وهم متوارون بالقرب ، واذا بـ « منصور الأعـور » وكان من أكبر فـرسانهم على « الكدية الحمـراء » وهـو على فرس أشهب ، فأشـار الى أصحـــابه ، ثم انحدر الينا غير مكترث بنا ولا مبـال بشيء ، حتّى إذا كان غير بعيد منّا اتبعه أصحابه ، وزحفنا إليه حتى أحسسنا بأنفاسهم في وجوهنا ، وإذا بفارس يركض من عند حنظلة : أن قفوا . قـال : فوقفنا ، وإذا بقُصّاص وقرّاء من أهل العلم والدين والفقه قد أرسلهم الينا ، فتفرّقوا فينا ، وحرّضوا على الجهاد ، وذكروا فضله،وذكروا مذهب عدوّنا الخوارج ، وعظم ما يريدونه بنا من السبي،وهتك الحريم، وسفـك الدم ، وأنـه ليس ملجأ بعد هـذا المقـام ، و مشى حنظلة على الصفوف . وأقبل القراء يحرّضون الناس ويرغبونهم في الجهاد .

وخرج نساء القيروان ، فعقدن الألوية ، وأخذن معهُنَّ السلاح،

---

(١) يقصد بالدارع المقاتل المكتسي بالدرع ، وهـو قميص يتركّب من حلقـات صغيـرة من الحديد متشابكة تقيـه من وقـع السلاح على جسده ، والنابل هو الرامي بالنبل ، وهو السهم .

وعزمْن على القتال، واستبسلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهنّ : لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدوّ لنقتلنّه ! . وعلمن ما يريد بهنّ الصفرية من السبي والعبودية ، ووطّنّ [١] الناس على الموت ، فهشّ الناس للقتال ، واشتدّت نصرتهم حتى استبطؤوا ، وراع القوم من كلامهم ما سمعوا . ثم إن رسول حنظلة أتى إلى القرّاء فقال : تنحّوا عن القوم ، وخلّوا بينهم وبين عدوّهم على اسم الله وعونه . قال : فنهضنا نهضة رجل واحد ، وتقدم « شعيب بن عثمان » فسلّ سيفه ، وكسّر جفنه ، وفعلنا مثل ما فعل .

قال : فلقد رأيت الجفون [٢] قد تطايرت على رؤوسنا حتى صارت كالطير لكثرتها ، فذكر ابن أبي حسّان عن أبيه عن رجل من الصفرية قال : شهدت ذلك اليوم ، فلمّا رأينا الجفون على رؤوسهم أنكرنا ذلك فقال أحد من أصحابنا : هؤلاء بنو إسماعيل قد كسّروا أغماد سيوفهم فانظروا الى الرجال كيف يكونون . فجعل عبد الواحد يحرّض أصحابه وينادي : يا أهل البصائر ! . قال : فأول من خرج إلينا رجل كالبعير عظما يدعو الى البراز ، فخرج اليه « شعيب بن عثمان » فبدره

---

(١) وطّن نفسه على الشيء أي مهّدها له ، ورضاها به ، وحملها عليه .
(٢) الجفون : جمع جفن وهو غمد السيف .

البربري بالضربة ، فقعد شعيب على مقعدته. ثم وثب اليه فقتله ، واحتزّ رأسه ، والتحم القتال . وتنـازل الاقران ، وتداعى الابطـال ، ولزم الرّجالة الارض ، وجثوا على الرُّكب ، فلا تسمع الاّ وَقْعَ الحديد على الحديد ، وتواخذوا بالايدي ، فـكانت كَسْرَةٌ على ميسرة العرب حتى جازوا قصر الماء [1] وانكسرت ميسرة البربر قبلهم . ثم كرّت ميسرة العرب على ميمنة البربر ، فـكانت الهزيمـة . وفتح الله عزّ وجلّ لنا فقتلناهم إلى جلولاء [2] .

وخرجت لناالصبيان والنساء بالمـاء والسويق [3] ، وكان ذلك يوم

---

(١) قصر الماء قصر كان ابتناه ـ فيما أعتقد ـ موسى بن نصير مدة ولايته وبه نزل عند رجوعه من الاندلس وهو كائـن بـجنوب القيروان وعلى مسافة قريبة منها . ومازال مكانه معروفا بهذا الاسم .

(٢) جلـولاء من المدائن القديمة الكبيرة التي كانت بوسط البلاد التونسية بمقربة من جبل وسلات تبعد بنحو ثلاثـين كيلـو مترا عن القيروان . وكان فتحها على يد عبد الملك بن مروان في ولاية معاوية ابـن حديـج سنة ٣٤ هـ ولم تزل آثرها ماثلة ، وقد ابتنى على انقاضها اسماعيل المنصور ، ثالث الملوك الفاطميين ، قصرا للنزهة في فصل الربيع (راجع فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ط . ليدن ١٩٢٠ ص ١٩٣ ، ومسالك البكري ، ومعجم البلدان)

(٣) السويق : نوع من المشروب يتخذ من دقيق القمـح والشعير يسمى بذلك لانسياقه في الحلق .

الثلاثاء ، فأقمنا الى يوم الخميس ، ونحن لا نعلم بموت عبد الواحد عدوّ الله ، حتى أُتي الى حنظلة بخبره ، فخرّ لله ساجدا .

وقيل ما عُلِمَ في الارض مقتلة كانت أعظم منها . وأُخِذ عكاشة أسيرا بجبل آخر بمضيق ، وأُتي به حنظلة فقتله .

وأراد حنظلة أن يحصي مَن قُتِل من بينهم ، وأمر بعدّهم ، فما قدر على ذلك ، فأمر بقطع القصب ، وأمر أن تطرح قصبة على كلّ قتيل ، ثم جمعت القصب وعدّت ، فكانت القتلى مائة الف وثمانين ألفا . وكان الصفرية يستحلّون الدماء ، وسبي النساء .

وكتب حنظلة بذلك الى هشام بن عبد الملك .

وكان الليث بن سعد [1] يقول : ما غزوة كنت أَحبّ أن أَشهدها - بعد غزوة بدر - أَحبّ اليّ من غزوة القرن والأَصنام ! »

انتهى كلام الرقيق .

---

(١) الليث بن سعد الفهمي ، من كبار أئمة الحديث والفقه والاخبار في عصره ، ولد سنة ٩٤ وتوفى سنة ١٧٥ . وكان يعيش بمصر ، وبها ولد ومات ، واشتهر بكرمه وجوده . وعنه تروى جلّ أخبار فتوح إفريقية والمغرب . راجع وفيات الاعيان ١/ ٤٣٨ ، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٩ وغير ذلك.

لا جرم أن كلّ من اعتنى بتاريخ الاسلام يعلم المعارك العديدة التي كان لنساء العرب فيها مواقف مشرّفة، لا بتحريض الرجال على الثبوت في حرّ المعامع فحسب، بل وبتمريض الجرحى ومعالجتهم، وبتموين المقاتلين بالماء والقوت، من عصر الجاهلية الى ضحى الاسلام. وكذلك بمشاركتهن الفعليّة في الحرب ومصادمة أبطال الرجال، وأخذهنّ بالنّصيب الوافر الفاخر في الكفاح.

أما في أحداث إفريقية التونسية فلم نقف على خبر مساهمة العربيات في القتال إلا في هذه الوقعة التي كان لها من الصدى البعيد في المغرب والمشرق ما مرّ بك ذكره. ولذا وددت جلب ما نقله الرقيق ليكون موعظة وعبرة ومثالا تقتدي به امرأتنا التونسية الناهضة إن وجب الأمر.

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا !

•

أُصُولُ الحِسْبَةِ بإفْرِيقِيَة

اصـل الحسبـة بافريقيـة

تحليل كتـاب « أحكام السوق »

ليحي بن عمـر

تمهيـد :

هذا كتاب من نتاج عالم إفـريقي في القرن الثالث ، وهـو يكوّن حلقة من صور الانبعـاث الإفريقي في خطواته الأولى إثر تأسيس الدولة الاغلبية واستقلالها إداريا عن الخلافة .

وجعل المؤلّف عنوان كتابه « أَحكام السـوق » ليوميء إلى أَنّ تنظيم الاسواق ومراقبة المعاملة فيها والنظر فيما يهمّ السكّـان كوحدة اجتماعية متكاملة موضوع قد تبلور في أذهان علماء التشريع ، وأخذوا في جمع المادة له من غضون الكتب الفقهية ، وسنّوا أحكاما لما تجرّد من الشؤون طبق القواعد التشريعية . وهم في ذلك اتبعوا نظـاما إداريا استقرّ وجرى به العمل .

فالاتجاه - إذن - محدد ، والغاية واضحة . وكلمة « الحسبة » و « المحتسب » وإن كانتا أخفّ وقعا من كلمتي « أحكام السوق » و « صاحب السوق » لا يحدّدان الموضوع بالضبط . ولذلك عدل رجال الحكم في الدولة الأغلبية عن استعمالها .

ف « الحسبة » في التشريع الإسلامي تعبير عام يوازي كلمة « المصلحة العامة » في التشريع العصري ، فهي لا تختصّ بموضوع معيّن .

والماوردي - مثلا - إذ يتحدّث عن الحسبة يدخل في نطاقها - كوظيفة - شؤون العبادات مثل الطهارة وتأخير الصلاة عن وقتها . ولكن كتاب « أحكام السوق » لا يشمل صنف العبادات . وسنرى من خلاله أن موضوعه محدّد بشؤون الأسواق وما يجري فيها . كما سيتضح - ممّا نقدّره بعدُ - أنّ الكتاب ألف بعد أن تحدّدت مهمة « صاحب السوق » وشملت - زيادة على مراقبة الأسعار والمعاش - فصل القضايا المدنية لحدود مبلغ معيّن . وكان له النظر في قسم من المادة الجناحية مثل الشتم والضرب والجرح الخفيفين .

ثمّ فوق ذلك له النظر في كلّ شأن يهمّ المصلحة العامة بالنسبة لسكّان المدينة ، وإذن فهذه الخطة كانت إدارية قضائية في آن واحد . ولذلك تداول التسمية فيها كلّ من الأمير والقاضي ، فسحنون ذو

الشخصية القوية وصاحب هذا التنظيم ، تولّى بنفسه تسمية والي المظالم ، وكانت له شؤون السوق . ثمّ بعده كانت تسمية والي المظالم من القاضي أحيانا ومن الأمير أخرى .

فما كان كتاب « أحكام السوق » أوّل تأليف في موضوعه إلا لأن ذلك الموضوع قد شملته عناية خاصة وأبرزته الترتيبات المتعاقبة في إطار حدّد معالمه ، وخرج به من عموميات الحسبة .

مؤلف الكتاب

هو أبو زكرياء يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي .

ولد سنة ٢١٣ هـ حسبما اتفق عليه مترجموه . ويظهر أنّ تاريخ ولادته أسبق من ذلك اعتمادا على ما نُقِلَ عن ظروف صباه ورحلته ، فهو من أهل جيّان ونشأ بقرطبة فأخذ عن عبد الملك بن حبيب . ثم ارتحل إلى المشرق مصحوبا بأخ له أصغر منه . وكان من بين شيوخه بمصر « الدمياطي » المتوفّى سنة ٢٢٦ هـ فيكون سنُّه عندما ارتحل لا يعدو الثانية عشر . وسنّ أخيه ، مرافقه ، العاشرة .

وعلى كلّ فقد أخذ بمصر عن عدد من جلّة العلماء أصحاب ابن وهب

وابن القاسم وأشهب ، منهم : ابن بكير ، وابن رمح ، وحرملة ، وابن أبي الغمر ، وأبو الطاهر ابن السرح . ثم انتقل إلى الحجاز فسمع من أبي مصعب الزهري وغيره .

ورجع أدراجه إلى إفريقية ، فاستقرّ بالقيروان بعد أن ملأ وطابه علما . ولعله أراد أن يستكمل ثقافته فسمع بالقيروان من أبي زكرياء يحيى بن سلمان الفارسي المختصّ في علم الفرائض والحساب . كما حملته شهرة سحنون وبُعْدُ صِيته على الأخذ عنه فسعى للقائه . وحالما رآه استصغر شأنه . ولما سأله رأى فيه عالما جليلا وقدوة صالحة . ولا شكّ أنّه استحوذ على مشاعره ؛ فقد قال يحيى بعد ذلك : رأيت في منامي كأنّ سحنون معلّم صبيان بيده درّة فأعطانيها . وقال : قم على الصبيان ؛ فأوّلتها خلافته في تعليم الناس .

وهكذا اندفع يحيى يحقّق ما صوّره له حلمه ؛ فأخذ يلقي دروسه بجامع القيروان . وكان يميل إلى الاناقة في مظاهره ؛ فيستثير منظرُه راكباً الحقدَ في نفس « ابن عبدون » حتى ليبدوَ على صفحات وجهه . واتخذ لنفسه بالجامع كرسيا يجلس عليه عند السماع . وحدب على تلامذته فكان بهم حفيّا يحرّضهم على طلب العلم . ويشرفهم بالمؤانسة والاكرام .

وفي هذه الفترة من حياته كان النزاع على أشدّه بين فقهاء المالكية وهم الممثلون للمعارضة في الحكم ، وبين الحنفية المندفعين لتأييده تأييدا مطلقا . واتخذ النزاع السياسي متنفسا للظهور في الجدل المذهبي أحيانا .

وكان يحيى مالكيا فألف كتابا في الردّ على الشافعي .

كما شنّ حملة على بعض العلماء الذين كانوا يؤمّون « مسجد السبت » للذكر والعبادة وينشدون الاشعار بتطريبٍ فرادى وجماعة .

فهم يمثلون لونا من الحياة يميل إلى الزهد والنسك ، وينأى جانبا عن الحياة العامة . ولم يكن ذلك ليستثير يحيى لو كان عملا فرديا . أمّا وقد آل إلى فكرة تدعو لنفسها فيكون لها اجتماع دوري ، وتحاول المزيد من الانتشار فتغزو الاحساس والمشاعر بطريقة التطريب والانشاد فالامر ذو خطر .

ومن هذا الجانب قاوم يحيى مسجد السبت وقاصديه . وفيهم بعض أصحاب سحنون . واشتدّ في المقاومة فألّف كتابا في الردّ عليهم .

وصمدوا لمقاومته . واستشاروه يوما بقارىء في مسجده يرتّل عمدا آية (وَمَن أَظْلَم مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكر فيها اسْمُه : إلى آخر الآية) فاستدرّت شؤونه ونجحت هذه الإثارة بجوّها الرائع في إضعاف

نفسيته . وأيقن أنّه أصبح هدفا لرماة متعددين ، وحزّ في نفسه أن يكون من بينهم بعض إخوانه المالكية ؛ فلازمه الحذر .

وهذه فقرات أُثِرَتْ عنه تصوّر نفسيته في هذا الظرف تصويرا دقيقا.

قال : لا ترغب في مصاحبة الإخوان فكفى بك من ابتليت بمعرفته أن تحترس منه .

وروي عن النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ حديثا : « خُصَّ بالبلاء ، من عرف النّاس،وعاش فيهم من لم يعرفهم » .

وكان يتمثل بقول بعض الحكماء : « التفاتة خير من دمعة » .

كما يتمثل بقول الشاعر :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل الكلام

ويشاء ربك أن تصدّق مخاوفه ، فيرتقي لخطة القضاء سنة ٢٧٥ هـ ابنُ عبدون العراقي المذهب . ويندفع كالموتور يسجن ويقتل . ويكون يحيى بعضَ غرضه ؛ فيخرج من القيروان خائفا يترقّب مارّا في طريقه بمنزل عراقي ؛ فإذا هو تنيره شمعة فيخالها بدرا منيرا ولا يريم مكانه حتى يكون الظلام حالكا .

وها هو يتنقل مختفيا ، ورغبة ابن عبدون في القبض عليه تلاحقه حتى يلوذ برباط سوسة بعد أن مكث مدّة بتونس. وما هو إلّا زمن قصير تتفتح فيه عين الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي على مظالم قاضيه ، وتهوله كثرة الضحايا فيعزله قائلا : « لو تركته لأحدثت له مقبرة » .

وجريا من هذا الأمير على سنته استدعى بعد ذلك يحيى ليستقضيه ، وكأنه يستعديه ، فما كان من يحيى إلاّ أن رفض ، وأشار عليه بعيسى بن مسكين الزاهد والقابع في قريته بالساحل متغافلا عن كلّ معارفه وأقرانه بالقيروان . وإذ يتنصل من القضاء يعود إلى سوسة ويتّخذها مستقرا ومقاما . ويعاوده هدوء نفسه فيلقي دروسه بجامعها . وتلازمه جاذبيته فيمتلىء لسماعه المسجد وما حوله . ولعل كتابه هذا دوِّن عنه بعد أن تجاوبت بفقراته عرصات المسجد .

هذه صورة كاملة متماسكة لحياة يحيى بن عمر ،فيها الشدّة والرخاء، والخوف والأمن ،والرفاهية والشغف . فلا بدَّ أن تؤثر على أعصابه فيذهل آخر عمره . وكانت وفاته سنة ٢٨٩ هـ

القصري الراوي

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن سعيد القصري. والنسبة

إلى قصر مواليه بني الأغلب المعروف بـ « القصر القديم » . تتلمذ على إسحاق بن عبدوس ، وروى عن يحيى بن عمر ، وعبد الجبار السرتي، وعبد الله بن طالب، وغيرهم .

ويبدو أنّ القصري بحكم انتمائه لبيت الإمارة مال في دراسته إلى الإلمام بعلوم شتى ومعارف متنوّعة تجعل منه شخصا اجتماعيا لا عالما بحاثة . فقد سمع من كل من عنده علم . و كان جمّاعا كثير الكتب [1] . فهو كما قال الخليل بن أحمد : إذا أردت أن تتعلم العلم لنفسك فاجمع من كلّ شيء شيئا . وإذا أردت أن تكون رأسا في العلم فعليك بطريق واحدة .

كانت الرواية وتدوين الكتب سبيله للمعرفة . ثم أصبحت هوايته المحبّبة إلى نفسه ، ينفق في سبيلها المال ما وجد إليه سبيلا .

ففي ذات مرة كان في زيارة ليحيى بن عمر بسوسة فوجده ألّف كتابا . وإذ لم يكن معه مال باع بعض ثيابه واشترى بثمنها رقوقا نقل فيها الكتاب ، وقابله وأتى به إلى القيروان [2] .

---

(١) المعالم ج ٣ ص ٩ ، ١٢

(٢) المعالم ج ٣ ص ١١ عن المالكي .

وعرف القصري بثقتـه وضبطه فكانت تدويناته مرجعـا لعلماء عصره ينقلون منها السماع الذي يهمهم.[1] وكانت وفاته في سنة ٣٢١ هـ .

تلك هي ترجمة القصري الذي روى كتـاب يحيى بن عمر هـذا ، وهي باعثة على أقوى الثقة والاطمئنان لما روى .

الكتاب

جاء في طالعته (حدّثنا أحمد بن محمد بن عبد الرحمان قال : سمعت يحيى بن عمر يقول الخ) .

إذن فهذا الكتاب الذي بين ايدينا مسجل بالرواية عن القصري. فهو بعد أن رواه عن يحيى ألقاه بدوره على مستمعين . وروي عنه وهـو يشتمل على مقدّمة فيما يجب على الوالي من تفـقّد أحوال السوق والحرص على مراقبة الموازين والمكاييل والكشف عن أحوال النقد المتداول

ثم يتلو المقدّمة نقلُ خلاصة من مكاتبـة وجّهت ليحيى بن عمر يستفتونه فيها عن أمرين: ـ ١ ـ الحكم الشرعي في اختلاف وحدة الكيل

---

(١) المعالم ج ٣ ص ١٠ .

والوزن بين التجار في بلد واحد ـ ٢ ـ الحكم الشرعي في التسعير ، وقد استبان لهم تضرر المستهلك بحرية الأسعار ٠

وبعد إيراد السؤال أشفع بنقل الجواب ٠

ثم تأتي بعد ذلك أبواب الكتاب ٠

والذي يفهم من تتويج التأليف بنص السؤال أنه هو الحجر الأساسي لوضعه والحافز على إفراد « احكام السوق » بدراسة خاصة تمتاز عن عموم الفقه الأسلامي وتستمد منه أصولها ٠

وقد ألقى يحيى كتابه هذا في دروس ٠

يدلنا على ذلك تعدد الأسئلة من المستمعين ، تلامذة وغيرهم ٠ وقد كانت رواية الكتاب على هذا المنهج مما ضخم من حجمه وعدد من أبوابه ، إذ أمدته بمواضيع جديدة ومسائل فرعية نشأت عند الرواية بتلك الأسئلة الموجهة والتي كان غالبها من القصري ؛ فقد بلغ مجموع ما أثاره وحده من مواضيع ترتبط بالسوق سبعة عشر موضوعا ٠ وهي مع أجوبتها تكاد تربو على نصف الكتاب ٠

وبذلك انقلب المنهج عند الرواية ٠ وصار يعتمد على الحوار في أغلب مواضيعه ٠ وقد التزم القصري في روايته دقة السند ٠ حتى إنه

ليـنسب كلّ فقرة لصاحبها فأمكن بذلـك للمطالـع أنـ يلمس جهد القصري في غزارة المادّة المروية وتنوّعها ، ومع ذلك فهو يحاول ويقارن بين النصوص [١] .

سنـد الروايـة

يستعمل القصري في روايته صيغا متعدّدة :

أخبرنا يحيي بن عمر . أخبرني . قال لي . قال يحيى .

ودلّ ذلك على أن رواية القصري للكتاب لم تكن إجازة فقط . وإنما هي بالسماع والمشافهة . كما يستعمل في مراجعات المستمعين التعابير الآ تيـة :

سألت يحيى بن عمر . قلت ليحيى . سألنا يحيى ، سئل يحيى،وأنا أسمع . قيل ليحيى . كتب الى يحيى .

كلّ هذه الصيغ حملتنا على القول بأنّ الكتاب عندما روي كانـ يلقى بشكل دروس .

ولقـد درج الراوي في كلّ الكتاب على ربط الفقرات بسندهـا .

---

(١) ص ٢٦ .

فكشف بذلك عن أطوار النشوء لهذا الكتاب ، وأتاح لنا تميز الفقرات التي لم تكن من أصل الكتاب. بل كانت من جمع الراوي أضافها له عند روايته عليه . وهي :

١ ـ الفقرات من ص ٤٣ وتشمل بابا بأكمله يتعلّق ببيع أزيار الصّير [١] فسندها لا يتصل بيحيى . وانّما رواه القصري عن سعيد بن إسحاق .

٢ ـ الفقرة من ص ١٣ وطالعها سأل « صاحب السوق » حماس بن مروان الخ ... حماس انما ولي القضاء بعد وفاة يحيى .

٣ الفقرتان من ص ٥٠ والنقل فيهما عن محمـــد بن سعيد وعن حماس بن مروان وهما لا ترتبطان بالموضوع السابق أو اللاحق . وربّما دوّنهما القصري على هامش الرواية فاشتبهتا على الناسخ وأضافهما لصلب الكتاب . ويؤكّد ذلك أن ثانيتهما كان الراوي ضَمَّها للباب الذي يناسبها من صلب الكتاب . فقرة ص ٢٣ .

٤ ـ ص ٥٦ وهي تشمل بابا كاملا : في المحلّ المعروف بالاذى والفجور . والسند فيه يتصل بغير يحيى .

× (١) سمك صغير مملح (عن لسان العرب)

روايتان للكتاب

لقد رأينا أنّ منهج الكتاب فرض علينا أن نعتبره ألقي في سلسلة دروس كان يحضرها أشخاص متعدّدون روى بعضهم فيها الكتاب . وقد بلغتنا منه روايتان :

رواية القصري ، ورواية ابن شبل ٠

اما الاولى فلا توجد منها إلاّ النسخة التي بأيدينا فيما نعلم ٠ وتاريخ نسخها يرجع لسنة ١٢٩٤ هـ وهي بخط مغربي واضح ٠ وعناوينها بالقلم الأحمر ٠ وتقع في ٥٧ ص طول ٢٣ في عرض ١٧ وبالصفحة ١٨ سطرا غالبا . وناسخها ذكر اسمه ٠

وأمّا الرواية الثانية ، فقد نقلها الونشريسي في كتابه « المعيار » كما أنّ لدينا منها نسختين ناقصتين ، ويمكن منهما معا تكوين نسخة كاملة ٠ وبمقابلتهما مع ما بكتاب الونشريسي تبيّن أنهما كانتا متطابقتين إلاّ في بعض جزئيات لا تؤثر ٠

وقد نشرها الاستاذ محمود علي مكي بصحيفة المعهد المصري

للدراسات الإسلامية في مدريد ، وأهدانا منها فصلة ، فله الشكر على هديته ، وكلّ الثناء على ما قام به من مجهود علمي .

وابن شبل هذا هو محمد بن شبل بن بكر القيسي النطيلي سمع من يحيى بن عمر ، ويحيى بن عون ، وأبي الغصن الغرابيلي ، وأبي القاسم زيدان بن إسماعيل . والاخيران من علماء سوسة ومستوطنيها. وابن الشبل قد تنقل بين القيروان وسوسة .

ويحدّد ابن الفرضي [(١)] رحلته بسنة ٢٩٢ هـ وهو محض غلط إذ أن يحيى بن عمر توفي سنة ٢٨٩ ، وأنّ أبا القاسم زيدان توفي سنة ٢٩٨ . وكلاهما روى عنه .

وأشاد أبو العرب في طبقاته [(٢)] بابن الشبل هذا . ونقل عنه ما حدث به عن يحيى بن عون ، وعن أبي سهل بن محمد . وتوفي سنة ٣٢٣ .

فهو قد روى عن يحيى بن عمر كتاب « أحكام السوق » أيضا . ونصّ في طالع روايته على أنّها مختصرة من الكتاب ، فهل روايته له إجازة أم بطريق السماع مثل رواية القصري ؟ لا يسعنا إلاّ أن نرجّح

---

(١) ج ٢ ص ٦٧
(٢) ص ١٠٤

الثاني ، اعتمادا على أنّ ابن شبل يسند في روايته ثلاثة اسئلة وجهها هو والقصري في روايته ينسب منها سؤالين لنفسه ؛ فلو كانت رواية ابن شبل إجازة لما أمكن له توجيه السؤالين أصلا لوجودهما في الكتاب، فيتعيّن أن تكون روايته بطريق السماع أيضا ، وفي وقت متحد مع القصري . أمّا تنازعهما السند في هذين السؤالين فيحمَل على توارد الخواطر واشتراكهما معًا في إلقاء السؤال .

فلنقارن إذن بين الروايتين .

تمتاز رواية القصري بضبط السند والدقّة في نقل الاسئلة وأجوبتها كاملة ، حتى أن المكاتبات ينقل ما جاء بها حرفيا . وهكذا يكاد يكون القصري قد نقل كلّ ما ألقاه يحيى في دروسه من بيان للقضايا والاحكام المطبقة عليها ومستنداته فيها .

كما أنّه يسند لنفسه الاسئلة الموجهة منه ، وهي جلُّها ، ويعيّن صاحبَها إن كان من غير التلاميذ كصاحب « سوق سوسة » . وباقي الاسئلة ـ وهو الاقل ـ مسند بصيغة المجهول .

أما ابن شبل فباستثناء أسئلته الثلاثة المسندة لشخصه وسؤال رابع أسنده لصاحب « سوق سوسة » كسند القصري، فإن بقية الاسئلة كانت مسندة بصيغة المجهول . ومال بالرواية لجمع الاحكام وبعض مستنداتها، فهو يوجز الموضوع من غير إخلال بالغرض .

وتتفق الروايتان في فقه المسائل اتفاقا تاما إلاّ في مسألة واحدة .

كما تكاد تكون التعابير الموجودة فيهما واحدة ممّا يبعث الثقة والاطمئنان على صحة النسخة التي بأيدينا من رواية القصري ، رغم أنّها الوحيدة .

وتختلف الروايتان من حيث التبويب بالتقديم والتأخير ، كما تختلفان بالزيادة والنقص في مسائل توجد بإحداهما ولا توجد بالاخرى.

فتمتاز رواية ابن شبل بالزيادات الآتية :

الفقرة (٥) أجرة صاحب الرحى بكيل معلوم .

الفقرة (٦)لا يلتزم صاحب الرحى بالترتيب مع حرفائه ، وعدم ضمانه لما فسد من الطعام ببطلانها .

الفقرة(١٢)القثاء يوجد مرا .

الفقرة (٢٣)ردّ البيض الفاسد .

الفقرة (٣٨) المسؤولية المدنية لمن يحفر حفيرا حول أرضه أوداره.

وإتماما للفائدة ألحقنا هذه الفصول من رواية ابن شبل برواية القصري . وأدرجناها منفردة .

كما تمتاز رواية القصري بالمواضيع الآتية :

ص ٣٣ اليهود والنصارى يعجنون خبزاً للسوق .

ص ٤٣ بيع أزيار الصير .

ص ٥٠ سؤال صاحب السوق لحماس بن مروان .

ص ٥٥ توجيه اليمين في الضرب والجرح عند انعدام البينة .

ص ٥٦ الشتم والأدب فيه .

ص ٥٦ الدار المعروفة بالأذى .

زمن الرواية ومكانها

من المرّجح لدينا أنّ رواية القصري لهذا الكتاب كانت بسوسة في الربع الأخير من القرن الثالث استنادا للاعتبارات التالية :

١ ـ ورد في نص الرواية أنّ صاحب سوق سوسة سأل يحيى بمحضر الراوي .

٢ ـ تنصيص يحيى في صلب كتابه على أجوبة أجاب بها ابن طالب بعض قضاته . وعهد ولايته القضاء يتراوح بين سنتي ٢٥٧ و ٢٧٥ .

٣ ـ ورد في الكتاب أنّ صاحب سوق القيروان كتب إلى يحيى يسأله .

٤ ـ ورد في الديباج[١] أن يحيى بن عمر كان يسمع النّاس بسوسة فيمتلىء المسجد وما حوله .

٥ ـ ما ورد في معالم الإيمان [٢] أنّ القصري وصـــل إلى سوسة لزيارة يحيى بن عمر فوجده ألّف كتابا .

على أنّ مكاتبة صاحب السوق بالقيروان ليحيى بن عمر يستفتيه في حادثة جدَّت بالسوق تعيّن لنا الفترة المتمثلة لذلـــك ، وأنّها في العهد الذي يأتي بعـد ولايتي ابن طالب وابن عبـدون إذ لنهـاية عهـد الأول كان يحيى مستوطنا بالقيروان ، ثم كان مختفيا في عهد الثاني .

وموضوع الاستفتاء أيضا يؤكد ذلك ، فهـو في قضيـة كان لابن طالب فيها تشديد على المخالفين وتقصٍّ لآثارهم وتلك هي : « ارتداء الذمي للزي المغاير » .

جمع الكتاب وتنسيق مواده

لقد ذكرنا أنّ هذا الكتـاب أول تاليف ظهـر في العالم الإسلامي

× (١) الديباج ص ٣٥٢

(٢) ج ٣ ص ٩٥

يبحث في شؤون الأسواق ، وينزّل الأحكام الفقهيـة عليها بما صيّرلهـا مادة متميّزة عن عموم الفقه .

ولا شك أن رائد المؤلف في جمع المادة لكتابه أن تكون مما يدخل تحت عنوانه ، لكنّ مطالع الكتاب يستوقف نظره احتواؤه على بعض مواد لا يظهر أنّ لها صلة بالعنوان ، مثل باب جهـاز المرأة ، وتوجيه اليمين في دعوى الضرب والجرح ، وديار الأذى والفجور .

والجواب عن ذلك يستدعينـا أن نتحدّث عن الأسواق ، وخطـة « صاحب السوق » وهل هو المحتسب أو غيره ؟ .

نظمت أسواق القيروان وأفـرد لكلّ صناعـة مكان خاص بها في سنـة ١٥٥ هـ باعتناء من يزيـــد بن حـاتم المهلّبي والي افريقية من قبل أبي جعفر المنصور . وكانت السوق لنظر الوالي [١] ينظر فيها بنفسه مباشرة أو ينيب عنه شخصا . وكذلك كان الأمر في الحجاز ، فقد كان عمر بن الخطّاب ـ وهو خليفة ـ يأمر وينهى مباشرة المتعاملين بالسوق.

وبعد ذلك التاريخ نقل عن مالك أنّـه كان يامر صاحب السوق فيما يتعلّق بشؤون المعاملات الجارية به .

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٧٨

ولما ولي سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤ هـ كان له من قوة شخصيته ومركزه الاجتماعي أقوى حافز على التوسّع في وظيفة القضاء، فقد باشر بنفسه التاديب والتعزير، وراقب تنفيذ الأحكام الزجرية الصادرة منه، وهي أمور اعتبرها المتاخرون عن عصره مما تترفّع عنه مهنة القضاء . ولا تساعد عليها حرمته وهيبته .

فسحنون لم يسعه في دينه إلا أن يُحمِّل نفسه أعباء الحسبة .

وهي تتّسع في معناها الديني حتى تشمل كلّ الشؤون العامة والخاصة وكلّ الشعب أفرادا وحكومة .

وهكذا حالَ سحنون بين قائد جيش مظفر في إخماد ثورة القُوَيْبع بتونس المنتهية سنة ٢٣٦ هـ وبين سَبْيِـهِ من نساء تونس المسلمات (١).

فرغم إلحاح الأمير عليه بتسليم السبي لصاحبه أصرّ على رأيه أو تنزع منه خطة القضاء، وما وسع الأمير إلاّ أن نزل على رأي سحنون وطلب منه توجيه من يرى فيه الكفاءة للقيام بوظيفة الحسبة في استرجاع المسبيات وتسلمهنّ من يد بقية افراد الجيش ؛ فوجه له سحنون أنفارا ليكتب لهم السجلات . ولما عادوا بها إليه فضّها . وبعد أن قرأها سلّمها لهم مشفّعة بالاذون والتعليمات .

---

(١) المالكي ج ١ ص ٢٨٠

والذي نستخلصه من هذا النصّ أنّ سحنون يفهم الحسبة بمعناها الأعم . ويرى أنّ المحتسب هو من له القدرة على الوقوف في وجه السلطة متى حادت عن الجادة ، وليس هو من ينظر في شؤون الأسواق .

وقد كان سحنون قاضيا محتسبا ، فباشر بنفسه كثيرا من شؤونها. ومنها ما يهمّ الأسواق فأدّب على الغش ونفى مرتكبيه ، ونظر في شؤون المعاش ، وأمر بقتل الكلاب . وكان من تنظيماته أن عيّن أمناء في البادية يكتب إليهم فيما يتعلّق بشؤون جهاتهم .

وأما في العاصمة فقد أحدث ولاية المظالم . وعيّن لها حبيب بن نصر التميمي أوّل صاحب مظالم وذلك سنة ٢٣٦ هـ وحدّد له وظيفته بالحكم [١] بين الناس فيما يحدث لهم في الأسواق . وجعل له النظر مدنيا لمبلغ عشرين دينارا . فصاحب السوق ـ إذن ـ هو والي المظالم في هذا التنظيم . ولما ولي [٢] عيسى بن مسكين القضاء عيّن أبا الربيع سليمان بن سالم الكندي واليا على المظالم ، وأذن له أن ينظر في مائة دينار .

---

(١) المعالم ج ٢ ص ١٣٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٧

فولاية المظالم هذه أحدثها سحنون . ورأى أنّ أمر التسمية فيها راجع للقاضي المحتسب ، كما رأى ذلك في تعيين أيمة المساجد .

ولنلاحظ أنّ السنة التي أحدثت فيها ولاية المظالم هي السنة التي عين فيها المحتسبون المشار إليهم سابقا . وبعد سحنون تجاذب تسمية والي المظالم كلّ من الأمير والقاضي .

فقد تخلّل عهدَيْ سحنون وابن مسكين عهدٌ رجعت فيه ولاية المظالم بالنظر للأمير [١] ، فقد عيّن الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي محمد بن محمد بن خالد القيسي المعروف بالطرزي واليا للمظالم . وراجعه صاحب الخطة بأن فيه حياءً ، ولينَ جانب ، وقلّةَ فقه ، فأجابه :أمّا الحياء واللّين فإذا أمرت ونهيت زالا عنك . وأمّا قلّة الفقه فشاور الفقهاء في أحكامك » . وفعلا ، فقد استشار في قضية حمديس القطّان. وكان ذلك بمحضر القصري فأشار إليها في باب الأذى والفجور من هذا الكتاب .

مما تقدم يظهر أن سحنون هو أول من فكر جدّيا في العناية بالاسواق ، فجعل لها قاضيا خاصا بشؤونها وبما يحدث فيها ، وحدد

---

(١) ابن عذارى ج ١ص ٢٧٥

نظره مدنيا بما لا يتجاوز المبالغ التي يتعامل بها الأفراد عادة في الاسواق . و إذ هي تتبع الحالة الاجتماعية للسكّان اختلفت تلك المقادير المحدّد بها النظر عند القضاة ؛ فسحنون قد مهّد بذلك السبيل لتتابع الأنظمة بما يفيد المجموعة المتساكنة من حيث إنّها مجتمع و وحدة متكاملة. وأتى بعده عبد الله بن طالب فسار على نهجه . ومن تنظيماته أنه جبر من يحترف الصيرفة على دراسة الأحكام المتعلقة بحرفتهم [١] .

والذي يتضح الآن أنه سبق تدوينَ الكتاب جوٌّ أحدثه سحنون بعنايته بالأسواق ، وتخصيصها بوظيفة داخلة في الجهاز الحكومي تابعة للسلطة القضائية . وأطلق عليها اسما فخما هو « ولاية المظالم » . وسمّى بنفسه صاحبها .

وإذ كان « صاحب السوق » هو « والي المظالم » كان كتاب « أحكام السوق » المؤلف بعد هذا التاريخ مشتملا على موضوعات خارجة عن نطاق شؤون الأسواق كما نتصوّرها الآن. ولكنها مندرجة في نظر « ولاية المظالم » .

وكما أحدث سحنون ولاية المظالم سمّى الأمناء في البوادي . وإلى الآن يطلق على صاحب السوق فيها « أمين المعاش ».

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧

فبعث بهـذه التسمية حركة ذهنيـة بين سكّان البوادي اتجه بها شعورهم نحو هذا التنظيم الجديد ، وأخذوا يحاولون إصلاح باديتهم والتدرّج بها نحو الأساليب والتنظيمات الحضرية الموجودة في المـدن .

وكانت بعد حين قصير تلك المكاتبة الموجهـة ليحيى الموشـح بها صدر الكتاب ، والتي كانت ـ حسب تقديرنا ـ الحجر الأساسي لوضعه. وأخيرا فقد نكون على حق حين نقول : إنّ الذي جلب الاهتمام لإفراد هذه المادة بالتأليف مزيج من أمرين :

١ ـ تنظيمات القاضيين سحنون وابن طالب ،

٢ ـ الشعور العام لدى المتساكنين بالرغبـة في الاصـلاح المجتمعي وتولّيه بأنفسهم إن أغفله أولو الامر [1] .

وكانت القضايا والشؤون التي يتعاطاها « والي المظالم » هي الفهرست لهذا الفن الجديد ، ومدار تحديـد مشمولاته . ولذلـك نرى يحيى بن عمر لم يدمج في موضوعاته « باب ديار الاذى والفجور » لأنّها أشيـاء لم تظهر في المجتمع السوسي إذ ذاك لما كان يطغى على متساكنيه من روح

---

(١) المكتوب المشار له .

الحميّة الدينية باعتباره رباطا يأوي إليه متطوعة الدفاع عن الشواطىء ؛ فكان يسود البلد روح عالية من الخلق الإسلامي تمنع من ظهور الفساد والملاهي . وقد حدث أن تجمهر المرابطون يوما ، وقصدوا منتزه الأمير حينما طرقت آذانهم أصواتُ الغناء منبعثة منه تساوقها آلات الطرب، وبلّغوا له تحرّجهم من مجلسه هذا ، وعزمهم على مغادرة الرباط .

أما القصري صاحب الرواية فقد عنون هذا الباب وأضافه لكتاب « أحكام السوق » بعد أن جمع مادته إذ رأى تعاطي « والي المظالم » لقضاياه المتعدّدة في القيروان . وقد كانت عاصمة الملك . (×)

(×) نشر المقال بالعدد الرابع من حوليات الجامعة التونسية (سنة ١٩٦٧)

عناصر الشعب التونسي

وإمتزاجهـــا

عناصر الشعب التونسي وامتزاجها

تمهيد :

أتذكر أني قرأت حكاية هذا فحواها :

رغب أحد سلاطين تونس ـ وكان معروفا برجاحة عقله وشجاعته ـ فى توطيد علاقات طيبة بينه وبين أحد ملوك أوروبا ، فأرسل اليه بسفارة فخمة لتتقدّم له تحيات « الأمير » وتمنياته له بطول العمر .

وقد غفلت أن أذكر أولا أن هذه الحكاية وقعت في القرون الوسطى . وصلت هذه السفارة إلى عاصمة البلد الذي يحكمه هذا الملك . وفي الغد مَثُلت بين يديه ، وأخذت تتلو عليه نصّ الرسالة التي كلّفها ملكها بتبليغها . لكن الملك أشار إليها بالسكوت . والتفت نحو وزيره ، وهمس في أذنه يسأله عن موقع تونس . وأخذ الوزير يفكر في المكان الذي قد توجد فيه هذه البلاد . ثم طلب إحضار خريطة للعالم

حتى يتبيّن موقع تونس . لكنّه ـ بعد تأمّل طويل ـ لم يجد لهذا البلد أثرا . وبدا عليه قلق شديد . وأخيرا تقدّم من الملك وبيّن له موقع تونس ذاكرا أن ذبابة سقطت في هذا المكان ، وحجبت موقع تونس عن الانظار . وهنا قال الملك همسا :

« إذن ، فهولاء جاؤوا من قبل حاكم هذه الرقعة الصغيرة من الأرض ! » .

هكذا تنتهي هذه الحكاية . ولا أعلم عمّا إذا كانت تلك السفارة قد سمعت قول الملك ، وعمّا إذا كانت بلّغت هذا الحديث إلى ملكها . كما أنّي لا أعلم شيئا عن أثر هذا الكلام في نفس الملك . لكن الشيء الذي أؤكده هو أن هذا الملك له الحق إذا اعتبرنا أن حجم الشيء يدل على قيمته .

صحيح أن تونس صغيرة المساحة . لكن كم من بلد كبير يفوقها مساحةً لم يحتلّ ـ وربما لن يحتلّ ـ المكانة المرموقة التي تحتلها تونس في تاريخ العالم ! فبالرغم من أنّ ثرواتها لم تكن في استقرار دائم ، وبالرغم من أنها خضعت لحضارات أُمم عديدة قدمت من الشرق والغرب ، فإنّه ليس بامكان أي كان أن ينكر أن كلّ هذه العوامل هي التي ساعدت تونس على احتلال تلك المكانة المرموقة من تاريخ العالم .

وما تسابقُ الغزاة على احتـلال تونس إلا دليل على قيمتهـا . والبربر الذين هم ـ حسب المعتقد ـ أول سكان إفريقيا الشمالية ، والذين يكوّنون أغلبية الاهالي لم يتمتّعوا باستقلالهم السياسي قـــط ، فقد كانوا دوما مستعمَرين من الأجانب . والغريب في الأمـر أن البربر يُظهرون تعلّقهم بحريّتهم وبغضَهـم لكلّ من يحـاول التحكّم فيهم . وهكذا ظلّت بعض الجهات ـ خاصة الجهـــات الواقعة في المرتفعات والتي لم يَصلها الغزاة ـ محتفظة بذاتيـتها وبخصائصها التي مازلنا نرى آثارها الى اليوم عند قبائل : تمازيـغ ، وورغمّة ، ومطماطة .

أما في السهول فقـد وقع عكس ذلك إذ أجبر البربر ـ مـع طول الزّمن ـ على الاندمـاج مـع الفـاتحين ، وعلى أخـــذ الكثـير من مميّزاتهم وخاصيّاتهم . ويمكن أن نلحظ ذلك في الجهات الساحلية وبلاد الجريـــد .

إنّ هذا الوضع الفريد الذي تميّز به البربر وما يبـدو لنا فيه من التضارب ليجعلنا نشعر بشيء من الحـيرة والتساؤل : ترى ، كيـف تمكنّ البربر من عدم الرضوخ لما يتطلّبه منهم الغـزاة بالرغم من أنهم يظهرون الخضوع التّام لهم ؟ وكيف تمكنوا من الاحتفاظ بذاتيتهم بالرغم من هذه الأحداث التي جاءت تعكر عليهم صفوَ حياتهم ؟ فأنت

تراهم فنيقيين مع قرطاجنة ، ولاتينيين مع رومة ، وعربا مع الاسلام ؛ فالبربري يقبل نفوذ حاكمه الجديد بدون أن يرضخ له رضوخا تاما. وهذا الرضوخ الظاهري هو أكبر عقبة صادفها الغزاة في تركيز أنظمتهم في تونس. ويكفي أن نذكر مثالا واحدا لذلك لا يمكن إنكاره : أليس غريبا أنه ـ بعد مرور ثلاثة عشر قرنا من الفتح ـ لم يتمكّن العرب من القضاء على ذاتية البرابرة ؟ فالبربري ، وإن اعتنق الدين الاسلامي واتّخذ اللغة العربية وسيلةً ، إلاّ أنّه عرف كيف يحتفظ بذاتيته بالرغم من أن هذين العاملين الأَساسيين كافيان لذوبان شخصية شعب في شخصية شعب آخر متغلب عليه .

وهكذا ينطبق على الشعب البربري المثل التونسي الذي يقول « ما يُقْعُدْ في الوادْ كانْ حَجْرُه . »

العهد القديم

اتجه بحّارة « صور » المغامرون نحو بلاد البربر طمعاً في الظفر ببعض المواقع التي قد تصلح مستودعاً لبضائعهم .

وفي عهد الدولة القرطاجنية قدمت إلى تونس أجناس بشرية

مختلفة ، واستقرت خاصة في الأَرياف حيث اختلطوا بالسكان الأَصليين . ويظهر أن القرطاجنيين هم أول من جلب إلى تونس الزنوج من السودان وبلاد النّوبة حيث كانوا يذهبون إلى غزو الصحراء ليأتوا بقوافل كبيرة من العبيد الزنوج. وفي عهد القرطاجنيين ـ أيضا ـ استقرّ في تونس بعضُ اليهود ، وسيتواصل نزوحهم إلى تونس فيما بعد إلى أن يكوّنوا قسما هامّا من السكان الحاليين . [1] إذن ، فبفضل « صور » لم يعد يوجد في تونس جنس واحد (الجنس البربري) بل أضيف إليه الجنس الفنيقي واليهودي والزنجي . فماذا كانت نتائج هذا التمازج ؟ النتائج كانت بصفة عامة سليمة ، فالبربري لا يهمّه من ذلك شيء ، فهو بطبيعته قابل للاقتداء بالفاتح ، بشرط أن يجد في ذلك فائدة . لذا نراه يقتدي بالفنيقي ، ويأخذ عنه بعض عاداته وطريقته في اللّباس . أما الفنيقيون الذي كانوا يتميزون بواقعيتهم في النظر الى الأَشياء فقد أَخذوا عن البربر مجموعةً من التقاليد خاصة الدينية منها مثل حرق جثث الموتى والتكفين والدفن ، الخ .

× (١) ألقي هذا البحث سنة ١٩٠٨ في مؤتمر المستشرقين بكوبنهاقن ، ونشر سنة ١٩١٧ بالمجلة التونسية :

« La Revue Tunisienne, organe de l'Institue de Cartage. »

وقد ساعد هذا التلاقح بين الحضارتين على تطور الحضارة الفنيقية وأعطاها صبغة جديدة ميّزتها عن الحضارة الفنيقية القائمة في شقيقتها السوريّة .

وبعد سقوط قرطاجنة فكـر الرومانيون في الاستيلاء على بقية البلاد التونسية . وفي عهدهم أيضا ، تَمّ توزيـع بعض الأَراضي الفلاحية على بعض المهاجرين من إيطاليا . كما تم توزيـع الأَراضي على الجنـود الذين ساعدوا رومـة على القضاء على الدولة الفنيقية . ونحن لا نعلم شيئا عن الأَجناس البشرية التي قد تكون استقرت في تونس في هذا العهد عدا المهاجرين الذين قدمـوا من ايطاليا ، والجنود الذين ساعدوا على القضاء على الفنيقيين . وفي العهد الرومـاني بلغت إفريقيـة أوج عزّها وشاهدت ازدهارا عظيما لم يسبق له مثيل .

هذا وقد نزح إلى تونس عدد كبير من اليهود واستـقروا فيها بعد تحطيم معبد بيت المقدس من طـرف « تيتوس » (٧٠ م) . والملاحظ أن هؤلاء النّازحين من اليهـود نشروا دينهم في صفوف البربر . وما زلنا نجد آثارا لهذه القبائل التي اعتنقت اليهودية وتمسّكت بها الى الآن . وهذا ما يفسّر وجود بعض اليهود البدو الذين يعيشون

ويلبسون مثل البرابرة الذين اعتنقوا الاسلام : (السرس ، تستور ، باجة ، جربة ، الاعراض ، الخ ..) [١]

أما غـزوة الونداليين المفاجئة فكانت أشبه شيء بالعاصفة التي اكتسحت البـلاد ، وقلبت أوضاعهـا ، وقضت على معـالم الحضارة في الجهات التي اكتسحتها سنة (٤٣٩ م) .

وقـد ظل البربر متنكرين للحكم البيزنطي الذي استمر أكثر من قرن (٥٣٤ ـ ٦٤٧) ورغم طول هذه المدة فإنه لم يستـقر من البيزنطيين إلاّ عدد قليل امتزجوا كلهم مع أغلبيـة السكان البرابرة . ومهـما يكن من أمـــر فإننا مازلنا نجد ـ هنا وهناك في الجنـوب الغربي ـ بعـض خصائص الجنس الاغريقي بين سكان تلك الجهة [٢] .

---

(١) عن هؤلاء اليهود يمكن الرجـوع إلى :

C. H. Monchicourt : La Région de la Haute - Telle en Tunisie (Le Kef, Teboursouk, Mactar, Thala.) Paris, 1913. P: 301-303

(٢) في هذا المجال يقول التجاني في رحلته التي قام بها أول القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) وأهل توزر من بقايا الـروم الذيـن كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامي وكذلك أكثر بلاد الجريد ، لانهم حـين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم . وفيهم من العرب الذين سكنوها بعد الفتح . وفيهم أيضا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان .

إنّ هذا الامتزاج بين السكان الاصليين ومختلف الاجناس التي ذكرناها قد تمّ شيئا فشيئا . وبهذا التجانس بين السكان الاصليين والأجناس الأجنبية التي استقرت في هذه البلاد تضاعف عدد السكان عشر مرات ، إلا أن السكان الاصليين تغلّبوا عليهم . وبالرغم من أنه طرأ على طبيعتهم بعض التطور - سواء كان سلبيا أو إيجابيا - فإنّ البرابرة عرفوا كيف يفرضون أنفسهم وكيف يتفوّقون عليهم . وبالرغم من أنه لم يتكون جنس جديد موحّد فإنّ كلّ ما ذكرناه آنفا يفسّر الأسباب التي دعت الى تسميّة هذا المزيج المتباين من الاجناس باسم موحّد وهو « البرابرة » .

لكنّ الباحث المدقّق والمنتبه إذا تعمّق في مميّزات سكان هذه البلاد في عصرنا هذا سيتفطّن الى الفوارق التي تميّز تمييزا قطعيا بين السكان الأصليين والأجناس الوافدة .

العهد العربي :

أثناء الفتح العربي قدمت إلى تونس أجناس متنوّعة تنوّعاً لم يسبق له مثيل ، ففي هذه الفترة نزح إلى تونس عدد كبير من الأجناس القادمة من مختلف البلدان التي فتحها العرب .

وبعد الفتح العربي وجد الأُمراء الذين تـوالوا على الحكم صعوبـة في فرض سلطتهم على كامل البـــلاد ، خاصة أن بعض القبائل أبت الدخول في الاسلام . وقد وقـــع نفس الشيء في الأَندلس . لهذا عمل الخلفاء على جلب عدد كـبير من العـرب أو من الشعوب التي أسلمت الى تونس . والملاحظ أن المستعمِرين في عصرنا هـــذا سلكوا نفس السياسة تجاه الشعوب التي استعمروها . وهـذه الوسيلة هي الوسيـلة الوحيدة الكفيلة باخضاع البربر ، خاصة أنه بدت عليهم دلائل الرغبة في الثورة على الفاتحين وتغلّبوا ـ في بعض الجهات ـ على أشهر القوّاد العرب.

وتعتبر الغزوات العربيـــة الأُولى غزواتٍ استطلاعية لم تخلّف وراءها إلاّ بعض الشواهـد على هـذه الفتوحات كتأسيسهم مدينـة القيروان التي اتخذوها معسكرا قارًّا لهم ، وتمكينهم لعـدد كبـير من العا ئلات العربيـة ، التي كانت تصحبهم في الغزو ، من الاستقـرار في المناطق التي رأوها صالحة .

ولكي نجد مثالاً هامّا على الامتزاج بين الأَجناس في هذه الفترة ، والذي يجدر بنـا ألاّ ننساه ـ لما لعبه من دور في تاريخ هذه البلاد ـ يجب أن نعود الى تاريخ الغزوة الخامسة (٧٦ هـ ٦٩٥ م) التي قادها حسّان بن النعمان الغسّاني .

فقد تمّ جلب ألف عائلة قبطية من مصر وزّعت بين تونس ورادس وقرطاجنة ، وعُهِدَ إليهم باقامة « دار الصناعة » ـ وهي الأُولى من نوعها في البلاد الاسلامية ـ تصنع فيها السفن اللازمة لتكوين الاسطول للغزوات القادمة لجزر وسواحل البحر الأَبيض المتوسط (١) .

وقد تواصل نزوح العرب والفرس والمصريين والشاميين إلى تونس في البعثات التي تلت هذه البعثة . لكنَّ هؤلاء المهاجرين قاسوا الويلات من السكان الأَصليين ؛ فعندما وصل القائد العظيم موسى بن نصير إلى افريقية ، وجد المدن والقرى التي كوّنها المسلمون في حالة

---

(١) وفي ذلك يقول البكري ـ وقد أثبته أيضا ابن الشباط في شرح الشقراطسية ـ « فكتب عبد الملك بن مروان الى اخيه عبد العزيز ، وهو والي مصر ، ان يوجه الى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس ، وكتب الى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر . وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ، ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم . فوصل القبط الى حسان ، وهو مقيم بتونس ، فاجرى البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة ، وجر البربر الخشب ، وجعل فيها المراكب الكثيرة ، وامر القبط بعمارتها . » مسالك الابصار . ص : ٣٨ ،

مهولة من الاهمال ؛ فقد وجد مدائنهم خالية إذ فرّ عدد منهم ، وقُتِل البعض الآخر من طرف البربر . وهذا ما جعل موسى بن نصير يجلب عددا آخر من العرب من الشرق [١] .

ترى ، كم بلغ عدد هؤلاء النازحين إلى تونس ؟

مع الأَسف ليست لنا أية فكرة عن ذلك ، لكنّ الشيء المؤكّد هو أنّ عددهم كان عظيما إذا نظرنا إلى عدد المدن التي كوّنوها أو عملوا على توسيعها : (القيروان ، بني تميم ، زرود ، بني جرير ، الحصر ، المنيا ، الأَنصارين . . الخ . .) والملاحظ أن هذه المراكز السكنيّة توجد حول العاصمة إذ ذاك ، أي القيروان .

وتواصل قدوم الوفود النازحة إلى تونس حتى عهد الدولة الاغلبية ، أول دولة إفريقية استقلّت بالحكم استقلالا تاما . وقد عمل الأَغالبة ، على إعطاء بعض امتيازات لهؤلاء المهاجرين الذين استقروا نهائيا ، كما عملوا على حمايتهم ؛ لانهم رأوا فيهم أكبر معين للتغلّب على

---

(١) يقول ابن الشباط : « وكتب الوليد الى عمه عبد العزيز (بمصر) يأمره أن يوجه الى افريقية موسى بن نصير . وكان ذلك في سنة ثمان وثمانين فوجد (موسى) مدائنهم خالية (من العرب) لاختلاف أمر البربر عليها ، فكان ينقل العرب والعجم من الاقاصي الى الاداني . » عن مخطوطة شرح الشقراطسية.

البربر الذين ما زالوا يكنّون لهؤلاء الفاتحين شيئا من الحقد الذي تذكّيه نزعتهم القومية بالرغم من انتشار الاسلام بينهم. وإبراهيم بن الأغلب[1] مؤسس الدولة الاغلبية، هو الذي وضع هذه الفكرة الداعية إلى حسن معاملة العرب. وتبعه في ذلك الامراء الذين أتوا بعده؛ فقد كان إبراهيم بن الأغلب يعطي امتيازات عديـــدةً للعرب النّازحين: باقطاعهم الأراضي، وإعطائهم الهبات المادية بما في ذلك النقود[2].

وهكذا يتبيّن لنا، مما تقدّم، أنه أثناء البعثات العربية لفتح إفريقية نزحت إليها جموع متفاوتة. فكانت كلّ بعثة عسكرية تنتهي باستقرار عدد من المهاجرين في هذه البلاد. وهذا ما يفنّد زَعْمَ بعض المؤرخين الذين يرون أن الجنس العربي لم يكثر عدده في تونس إلاّ أثناء غزوة بني هلال التي سنتحدث عنها فيما بعد.

---

(١) يقول ابن خلدون: «وفي ايامه انخضدت شوكة البربر، واستكانوا للغلب، وأطاعوا الدين، فضرب الاسلام بجرانه. والقت الدولة المغربية بكلكلها الى ان انقرضت سنة ٢٩٦ على يد الصنعاني الداعي.»

(٢) يقول ابن ناجي في معالم الايمان (٢ : ١٨): «وروي أن إبراهيم بن الاغلب بعث الى عبد الخالق (المعروف بالقتات)، فقال له بلغني ان لك عيالا، وأنك من العرب. فخذ هذه المائة دينار، فقال: أنا غني عنها، فقال ابراهيم زيدوه مائة أخرى.» الخ

وأرى من المفيد التاكيد على الأهمية التي تكتسيها دراسة المجموعات البشرية من المهاجرين الذين استقروا في البلاد قبل عصر الأغالبة وكذلك أصول كل القبائل المهاجرة . وأرجو أن تكون المقارنة بين الوثائق التاريخية كفيلة بأن توضح لنا بعض النقط الغامضة وبان تمكّننا من ضبط قائمة مدققة للقبائل التي كوّنت السكان المسلمين في إفريقية في القرنين الأولين للهجرة .

أما في عهد الدولة العبيدية ـ الدولة التي حكمت بلاد إفريقية بعد بني الأغلب ـ فقد قلّ عدد المهاجرين المسلمين بصفة محسوسة . والسبب في ذلك راجع إلى أن أمراء هذه الدولة يعتبرون أنفسهم من سلالة النبيء عن طريق ابنته فاطمة ، وأنهم كانوا يقومون بنشر مذهبهم الشيعي في البلاد ،وهو مذهب يتعارض مع المذاهب السنية الأربعة التي عليها أغلبية المسلمين في بقية الأقطار . وبالاضافة إلى ذلك فإن الخلفاء العبيديين لم يشجعوا هجرة العرب إلى تونس خوفاً من عرقلة انتشار مذهبهم الشيعي. وهو ماحدث فعلا عند ما نقلوا عاصمتهم الى المشرق. ولهذه الاسباب وجّهوا اهتمامهم إلى إقناع البربر باعتناق المذهب الشيعي [١].

---

(١) يقول ابن ناجي في ذلك (٢ : ٢٠٤) : « وذلك أن بني عبيد لما ملكوا القيروان أظهروا تبديل مذهب أهل البلد ، وجبروا الناس على مذهبهم بطريق المناظرة وإقامة الحجة . »

ذلك أنّ البربر - إما لجهلهم بالمذاهب السنية أو لعدم اهتمامهم بها - كانوا أقرب إلى قبول المذهب الشيعي من العرب .

وقد وفد على إفريقية في عهد الدولة الصّنهاجية التابعة للدولة الفاطمية بمصر عددٌ كبير من المسيحيين قدموا من الشرق ومن الغرب لم يرَ فيهم أمراء هذه الدولة أنهم عناصر غير مرغوب فيها . ويسهل تعليل السبب في ذلك ، خاصة إذا علمنا أن أغلب أُمهات هؤلاء الأُمراء مسيحيات يتمتعن بكامل حريتهن الدينية . وقد وقع نفس الأمر بالنسبة لأقربائهن الذين تبعوهن وعاشوا معهن في البلاد . وزيادة على كونهم يتمتّعون بحريتهم الدّينية فقد كانت لهم عدة امتيازات . ولأؤكد ذلك أورد هنا الأبيات التي قالها تميم بن المعز والتي أوردها عماد الدين الاصفهاني في الخريدة التي كتبها في آخر القرن السادس هجريا . إذ تؤكد هذه الأبيات وجود شعور بالتسامح وميل الأُمراء الصنهاجيين إلى المسيحيات اللّاتي كنّ يحتللن مكانة مرموقة في قصورهم:

أليس اللهُ يعلم أنَّ قلبي ... يُحبّك ، أيّها الوجهُ المليحُ
وأهوى لفظكَ العذبَ المفدّى ... إذا درس الذي قال المسيحُ
أظاهرُ غيرَكم بالودِّ عَمْداً ... وودُّكُمُ هو الودُّ الصّحيحُ
وفيكم أشتهي عيدَ النصارى ... وأصواتاً لها لحنٌ فَصِيحُ [1]

---

(١) وردت الابيات في صفحة ١٤٦ من خريدة القصر (قسم شعراء المغرب) ط تونس - ١٩٦٦ .

وقد كانت حاضنة الأمير باديس - جدّ الأمير تميم - مسيحية [١] .

أما اليهود الذين بدأوا يتوافدون زرافاتٍ ووحدانا على إفريقية - منذ بداية الفتح العربي لها - فقد كوّنوا نواة لأقليّة بدأت تتضخم شيئا فشيئا ؛ ففي مدينة القيروان أنشأوا حيًّا مستقلاً بهم سموه « حارة خيبر » [٢] اتّسع بسرعة خلال سنوات قليلة . وازداد عددهم

---

(١) جاء في معالم الايمان (٣ : ١٧٥) : « .. وكان بالمهدية نصراني ابن أخ حاضنة باديس صاحب القيروان .. »

(٢) وردت كلمة « حارة خيبر » في مخطوط على الرق بالمكتبة العتيقة بالقيروان . ومن جهة اخرى فقد ورد ذكر « حارة اليهود » أو « سوق اليهود » في عدة اماكن من كتاب « المدارك » للقاضي عياض . والكتاب رغم اهميته لم يطبع حتى الآن . (×) أخيرا طبع في بيروت (١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) كما شرع في طبعه بالرباط تباعا من سنة (١٣٨٤ / ١٩٦٥ م) . وكلمة « خيبر » تعني في الاصل قرية حصينة تقع شمال المدينة المنورة كان يسكنها اليهود . وبعد انتصاب الاسلام في الجزيرة العربية أصبحت النسبة الى خيبر تطلق على كل يهود البلاد الاسلامية ، وهكذا اطلقت كلمة « خيبري » بمعنى اسرائيلي ؛ فلا غرابة - اذن - أن تسمى حارة اليهود في القيروان بهذا الاسم . أما أن يكون يهود القيروان من مهاجري خيبر ذاتها أو لا ، فهذا مايزال قيد البحث.

في عهد الدولة الصنهاجية ، وذلك لاشتغالهم ببعض الصناعات وامتهانهم للتجارة في البلاد ؛ وقد امتازت منهم عدّة عائلات باحتراف مهنة الطب (١) .

وقد تميّز عهد الصنهاجيين بحدثين هـامّين يتصلان بالأجناس البشرية . ونتائج هذين الحدثين ستعطي صبغة خاصة لتاريخ العمران البشري في هذه البلاد :

الحدث الأول يتعلق بنزوح مسلمي صقلية إلى تونس بعد أن استولى على هذه الجزيرة الحكام النّرمنديون (٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م) ويقدّر عدد النّازحين بحوالي العشرين أو الثلاثين ألفا . وقد استقرّ أغلبهم في المدن الواقعة في الساحل التونسي . واختيارهم لهذه الجهة راجع الى أسباب تتعلّق بأمنهم . غير أننا لا نعلم أنّ اختيارهم لهذه الجهة وقع بقصد أو بغير قصد ؛ فالمهاجرون يفضلون الاستقرار قرب العاصمة ، لأنهم يعلمون أنّ أحوازها يحفظ فيها الأمن أكثر من غيرها ، خاصة

---

(١) : انظر « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة - ط : القاهرة - ١٩١٢ ، وانظر كذلك :

Histoire de la Medecine Arabe par le docteur : LECLERC - Paris : 1976 .

في ذلك العصر إذ أنّ قربهم من العاصمة يجعلهم يعيشون في اطمئنان تام على سلامتهم . والمعلوم أن عاصمة حكم الدولة الصنهاجية كانت تارة المهدية وأخرى المنستير الواقعتين قرب بعضهما. والمسافة التي تفصلهما فيها عدد كبير من القرى العامرة . وهذا التمازج بين أهل الجهة العاملين بجدّ وهؤلاء المهاجرين الذين طردوا من صقلية ، والذين عرفوا بذكائهم وبتقدمهم وبحذقهم لأساليب التقدم ، قد يحمل على التكهن بازدهار البلاد ازدهارا لم تشهد له مثيلا . إلا أن هذا الاحتمال لم يتحقق بسبب هذه الغزوة - أو بالأحرى هذه المصيبة - التي نزلت على البلاد وأهلها إذ أن زحفة الهلاليين ستقضي على قسم كبير من هؤلاء المهاجرين الصقليين الذين قُدّرلهم أن يُنكبوا في حياتهم مرتين ، الا أنهم لم يُقْض عليهم كلهم ، إذ أننا نجد أحفادهم ما يزالون الى الوقت الحاضر يقطنون في بعض المدن والقرى في الساحل : (المنستير - خنيس - هيبون - رجيش) وقد احتفظوا بجملة الخصال التي عرف بها أجدادهم مثل الجدّ في العمل والمسالمة . ويمكن أن نتعرّف عليهم بألقابهم التي تدل على أن أصلهم صقلّي . (الصقلي - المازري) (١) .

---

(١) : انظر بحث المؤلف « الاستيلاء الاسلامي على صقلية » الذي القي في المؤتمر السادس عشر للمستشرقين سنة ١٩٠٥ بمدينة الجزائر ، ونشر في نفس السنة بتونس . (×) وقد عرب هذا البحث ونشر في هذا الجزء من الورقات . انظر كذلك « اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » . تحقيق : ح . ح . عبد الوهاب - باليرمو / ١٩١٠

أما الحدث الثاني،والذي لم يكن له مثيل في تار يـخ تو نس ،فهو غزو شمال افر يقيامن طر ف قبائل بني هلال الصعيدية التي أرسلها المستنصر ، الخليفة الفاطمي بمصر ، انتقاماً من امر اء إفر يقية الذين استقلوا بالحكم (٤٨٤ هـ ـ ١٠٥٦ م) . وكان عدد هؤلاء الغزاة يتراوح بين الخمسائـة والسبعمائة ألف شخص ، فأحرقوا وقتلوا كل من اعترض سبيلهم . وقد أجاد المؤر خ الكبير عبد الرحمان بن خلدون عندما و صفهم بالجراد المنتشر إذ لم يترك هؤلاء الهمج الطغاة أي أثـر للحياة في الجهـات التي مروا بها مما يجعلنا نشبههم بـ « الهون » [١] الذين لم يتر كـوا وراءهم إلاّ الخراب والدمار وفتكوا بكل من اعترض سبيلهم .

لقد كان الوسط التّونسي في ذلـك العصر كـثير الخيرات ، عظيم الازدهار ، ولكن هؤلاء الزاحفين قضوا على كل معالم العُمران فيه ، فنهبوا المدائن والقرى وحرقوا الضياع وقضـوا على السكان الذين لم يتمكنوا من الفرار . وقد حاول سكان البلاد ـ دون جدوى ـ التكتل لمنع هؤلاء الغزاة من مواصلة زحفهم المخرّب في الجهـات الاخرى من

---

(١) : الهون : شعب مغولي الاصل خرج من بـلاد القزوين في منتصف القرن الخامس الميلادي وزحف على أروبا واجتاح بلاد « الغـال » تحت قيادة ملكـه « أتيلا »

البـلاد ، إلا أنّ جميـع المحاولات العديـدة التي نظمت لصـدهم فشلـت أمام ضخامة عدد هؤلاء الغزاة الذين كانوا يتقدمـون مستخفّين بكلّ مقاومة . وعجز المدافعون أمامهم ففرّوا بأنفسهم الى المرتفعات الخالية و الأَماكن المنعزلة المجدبة في البـــلاد حتى يضمنوا لأَنفسهم السلامة والأَمن من هـؤلاء الزاحفين الذين اكتسحوا البـلاد واستولوا عليهـا واستقروا فيها بمجرد حلولهم بها .

ومن النتائج الاولى لهذا الاحتلال بثّ الفوضى في المجتمع البربري القديم ، وتـشـتيت الهيا كل التنظيمية التي تكونت فيه . ويبرز لنا من كل ذلك نـتيجتانـ هامّتـان من الواجب التدليل عليهـما بالبحث والتنقيب ، فالنتيجة الاولى أن هؤلاء الغزاة عمـدوا إلى الاستقرار في الاراضـي التي احتلوهـا واقتسموها فيما بيـنهـم ، وكان أغلبها من السهول الخصبة . من ذلك أن أولاد سعيد كان من نصيبهم سهـول النفيضة ، وكانت سهول الفحص و بوعـرادة من نصيب أولاد رياح ، وكانت سهول باجة من نصيب أولاد دريد .

وبنو هلال معروفونـ بأنهم لا يتحمسون للقيـام بأي عمـل إلاّ اعمال القتال والسلب والنهب . وما غرضهم من احتلال تلك الأَراضي إلا الحصول على ارض منتجة تكفي حاجياتهم بأقـل التكاليف مـع

تخصيص جلّ أوقاتهم إلى الفـراغ والتكاسل . ويغلب على الظّن أنهم لم يختاروا الاراضي الممتـدة والشبيهة براحة اليـد في انبساطها إلاّ ليتمكنوا من التّنقّل متى شاؤوا بدون عناء ولا عائق .

أما السكان الأصليون فقد اتخذوا من الجبال والأنجاد الوعـرة حصونا طبيعيةً منيعةً تحول دون الوصول إليهم من أي كان ، وأخذوا يألفون شيئا فشيئا هذه الحياة الشاقة بالرغم من أنهم يجدون الصعوبـة الكبيرة في الحصول على قوتهم . وقـد أجبرتهم هـذه الطبيعة القاسيـة والاراضي الجدباء على مضاعفة المجهود قصد توفير القوت ممّا جعلهـم يتحسرون على ما كان لهم في المـاضي من إمكانيات العيش الرغيـد . ولم يهوّن عليهم هذا إلاّ ما كانوا يشعرون به من حرية واطمئنان. فقد كانوا يعيشون كالنسور في قمم جبال مطماطة وبرقـو وكسرى ، وعلى مرتفعات جبال وسلات ، وفي الأحراش التي تمتـد من جبال خمير إلى جبال مُقْعد .

أما النتيجة الثانية لهذا الاحتلال فتتمثل في أنّ هؤلاء الغزاة انقسموا الى عدة كتل ، وكان لكل كتلة قائد يتحكم فيها. وهكذا أسسوا نظاما إقطاعيا في إفريقية سيبقى مدة طويلة حتى بعـد أن يضعف شأنهم ويتحوّلوا إلى أفراد عاديين . وبعد أن استقروا في البـلاد ازداد هذا

النظام الاقطاعي تمركزا بازدياد عددهم واشتداد قوّتهم ؛ فأصبحت تلك الكتل عبارة عن إقطاعيات وراثية كبيرة يتداول شأنها « ملوكُ طوائف » بسطوا نفوذهم على قبيلة أو مجموعة قبائل مستقلّين بها في الحكم والنفوذ . وكان لعدد من هؤلاء « الملوك » شهرة وفخامة وبلاط يعجّ بالشعراء (١) .

وبما أن السلطة في هذه الممالك الصغيرة كانت وراثية . فإنّ بعض العائلات استطاعت أن تؤسس حكما مستقلا عن كل تبعية ؛ من ذلك بنو جامع في قابس ، وبنو جبارة في سوسة ، وبنو الرند في قفصة ، إلى غير ذلك .

وبعد أن كانت عاصمة الملك ـ إلى ذلك العهد ـ القيروان أو المهدية أحيانا انتقلت العاصمة الى مدينة تونس . والموحدون هم الذين جعلوا من مدينة تونس العاصمة الجديدة ، وقد حافظ على ذلك الحفصيون بعدهم . وسنقتصر ـ فيما يلي ـ على تتبّع حركة النزوح الى هذه العاصمة الجديدة أعني تونس وأحوازها . والجدير بالملاحظة أنه ـ بعد أن تم

---

(١) انظر عن ذلك ماذكره العماد الاصفهاني في مخطوطة « خريدة القصر ، وجريدة العصر » . (×) وانظره في الخريدة (قسم شعراء المغرب والاندلس) المطبوع في تونس سنة ١٩٦٦

توقيع معاهدات السلم بين ملوك الحفصيين وملوك أروبا ـ أصبح عدد المسيحيين في تونس كبيرا ، خاصة إذا علمنا بوجود حي كبير في العاصمة يسمى « حومة العلوج »[1] ، وكان أغلب هؤلاء المسيحيين الوافدين يتألف من التجار ومن العبيد الذين يأسرهم القراصنة في عرض البحر الأبيض المتوسط ، أو في سواحله . أضف إلى ذلك أن أغلب الملوك الحفصيين والصنهاجيين كانوا من أمهات مسيحيات .

الهجرة الاندلسية :

عندما بدأ حكم الحفصيين يزدهر بدا نزوح « المغاربة الاسبان »

---

(١) كلمة « علج » تعني على وجه التحديد عبدا ابيض البشرة ، ونجد في كتاب « دوماس لاتري » معلومات كثيرة عن المجموعات المسيحية بالبلاد التونسية قبل القرن السادس عشر في كتابه بعنوان :

TRAITÉS de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrêtiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen Age - Paris, 1866.

وفيما يتعلق بالمجموعات المسيحية الموجودة بمدينة تونس ابان غزوة شارلكان سنة ١٥٣٥ انظر كتاب :

Marmol: L'Afrique, traduction : PEROT D'ABLANCOURT, Paris, 1667 - T. II. P. 448

إلى تونس . ويتكوّن هـؤلاء اللاجئون من البرابرة الذين اعتنقوا الاسلام ، وهاجروا إلى شبه جزيرة إيبيريا أثناء الفتح العربي ، كما نجد من بينهم من يرجع أصله الى المسلمين الذين قدموا من آسيا صحبة البعثات العسكرية الاولى (١) ، كما نجد من بينهم من يعود أصله الى الافرنج الذين كانوا مستقرين في شبه الجزيرة قبل الفتح الاسلامي ، وهم خليط من اللّاتين والقوط والوندال . والتمازج الذي تم بين كل هذه الاجناس كوّن أهلَ الاندلس المعروفين في كتب التاريخ غير العربية باسم « المور » أعني المغاربة .

كان عدد النازحين من الاندلس الى تونس قليلا في أول الامر . ثم أخذ هذا العدد يتزايد شيئا فشيئا خاصة بعد سقوط اشبيلية بيد الاسبان (٧٢٢ هـ ـ ١٣٧١م) وقد تواصل هذا النزوح بدون انقطاع الى سنة (١٠١٦ هـ ـ ١٦٠٩ م) . وخلال هذين القرنين والنصف فاق عدد النازحين الى تونس مائة ألف أندلسي .

---

(١) : يقول ابن الكردبوس (أواخر القرن السادس الهجري) في كتابه « الاكتفاء » : وفي سنة ١٠٥ عزل هشام عقبة بن حجاج عن الاندلس وولى مكانه الحسن بن ضرار الكلبي فأقام واليا بالاندلس تسعة أعوام ، وهو الذي أدخل اليها من اهل الشام عشرة الآف رجل فسكنوا بنواحيها .

ففي بداية الأمـر كان اللاجئون من العائلات الغنيـة المتمدّنـة ، استقروا في العـاصمـة ، وتمكنوا في وقت قصـير من اعتيـاد أساليب العيش المحلية . وقد أناطت الحكومة الحفصية بعهدة الكثير منهم عدداً هاما من المنـاصب السامية في القضـاء والتعليم والادارة . وهـذا ما حدث فعلا بالنسبة لعائـلات ابن خلدون ، وابن عصفـور ، وبني سعيد ، وغيرهم [١] .

وقد تواصل هذا النزوح بـدون انقطـاع إلى آخر عهـد الدولة الحفصية ، إذ كلّما استولى الاسبـان على مدينـة من المـدن الاسلامية (قرطبة ، غرناطة) الا وقدم عدد كبير من أهلها إلى تونس بحثا عن وطن ثان يلتجئون اليه . وأغلب هؤلاء النازحين كانـوا ينتمون الى الاسر الغنية فـلا يجدون صعوبة في الارتحال من بـلادهم الى تونس ، كما لا يعوزهم الحصول على أسباب العيش .وفي سنة (١٠١٦ هـ ـ ١٦٠٩ م) وقع طرد كل المسلمين من إسبانيا مما جعل أفواجا كبيرة منهم تتّجه الى

---

(١) في ذلك يقول ابن خلدون : « ولما استبد بنو أبي حفص بـافريـقة وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات ، وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفـين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس.

تونس بقصد الالتجاء والاستقرار ، ففي ظرف سنة واحدة قـدم الى تونس ما يقرب من ثمانين ألف أندلسي . لكن في هـذه المـرة لم تكن الأفواج القادمة منظمة حسب طبقاتها الاجتماعية ، إذ دفعهم اليأس الى الهجرة هكذا فقدمـوا أخلاطا من النـاس تجد فيهم « السّيـد » الى جانب العامل والفلاح ، كما تجد فيهم الغني الى جانب الفقـير المعوز ، تدفعهم شدّة الفـزع الى الاسراع في السير نحو شاطيء النجاة ، وقـد أمّت هذه الأفواج النازحة مدينة تونس العاصمـة ، ولكن أنّى لهـذه العاصمة ـ رغم عواطف الشعور بالتّضامن ـ أن تأوي كل هؤلاء الوافدين، فقد يتسبّب ذلـك في ازدياد العاطلين ، وقـد يؤدّي ذلـك الى مشاكل تعجز عن حلّها الحكومة (حكومة الدايات الاتراك) . وهذا ما دفع هذه الحكومة الى التعجيل بايجاد حلّ لهـذه المشكلة يتمثّل في تصنيف هؤلاء المهاجرين إلى ثلاثة أصنـاف وفي توزيعهم على ثـلاث جهـات مختلفة من البلاد :

الصنف الاول يشمل أهل المدن الممتازين ، أي العلماء والاغنيـاء والموظفين ، وقد استقر هـؤلاء في مدينـة تونس في أحياء خاصـة بهم (حومة الاندلس قرب الحلفاوين ، وزقاق الاندلس في المدينة) .

أما الصنف الثـاني فيحوي الفلاحين ، والعملة ،وصغار الصنّاع .

وقـد عيّنت لهؤلاء بعض المراكـز التي أنشئت خصّيصاً لهم أو وقـع توسيعها من طرفهم ، وهذه المراكز توجـد قرب العاصمة (أريانـة ، الجديدة ، طبربة) وقد واصل أولائك النازحون ـ بعد أن استقروا في تلك القرى ـ عملهم العادي بكل اطمئنـان . وتمكنوا من ترويج منتوجاتهم لاسيما صناعة الشاشية والمنسوجات الحريرية والخزف المطلي.

أما الصنف الثالث فهو من سكان القـرى الاندلسية . والملاحظ أن عدد هؤلاء يفوق عدد الصنفين المذكورين آنفاً . وقد استقر هؤلاء في جهة الشمال ، حيث يقلّ عدد السكان . واختاروا المناطق الخصبة التي توجد فيها المياه . وهكذا نجد تسعـة أعشار الأراضي الفـلاحية التي أحيوها تقع على ضفـاف وادي مجـردة . وكان البعض من هذا الصنف من المهاجرين وجـدوا أنفسهم مُجبرين على الاستقرار في أماكن قليلة المياه مما لا يشجعهم على القيام بأعمال زراعية ، إلاّ انهم استطاعوا أن يخرجوا المياه باستعمالهم للطاقـة الطبيعية . (طواحـين الريـح بزغوان) كما نجد قسما آخر منهم وجد نفسه مضطرا إلى الاستيطان في أماكن كثيرا ما تجتاحها قوافل بني هلال الرّحل ويعيثون فيها فسادا ، لهذا اختار هؤلاء النازحون أن يستقروا وراء الصخور العالية بضفاف مجردة حتي يتمكّنوا من حماية أنفسهم من تلـك الغارات المفاجئة .

وأقام البعض الآخر على أنقاض المدن الرومانية القديمة (مجاز الباب ، تستور ، السلوقية ، قلعة الأندلس) ولم يجدوا صعوبة العيش في هذه الأماكن الصعبة المسلك . ولا عجب في ذلك فهم يميلون بطبعهم الى الحياة التي ألفوها في وطنهم الاندلس ، والتي تميزت ـ بعد سقوط غرناطة ـ بالعيش في قرى تقع على مرتفعات الجبال وتحت حكم « السيد » الاقطاعي وحول قصره .

ونجد عددا آخر على عكس هؤلاء استقروا في السهول العامرة والآهلة ، حيث وجدوا اطمئنانا مشجّعا على الاستقرار والعيش مع السكّان الأصليين . وهذا ما حصل في الوطن القبلي الذي كانوا يفضلونه على غيره من الجهات . وهو ما نجده مثلا في قرى سليمان ، ڨرمبالية ، نيانو ، بِلّي ، وغيرها .

وقد وصل في نفس الوقت إلى تونس عدد كبير من اليهود الذين طردوا من الأندلس ، فاستقبلتهم البلاد بنفس الترحاب الذي قوبل به مواطنوهم المسلمون . وهكذا تعزّز جانب الجالية اليهودية بقدوم هؤلاء النازحين الذين ألمّوا بأساليب الحضارة وبفنون التجارة والصناعة . وقد وجد يهود تونس في هؤلاء اللاجئين أحسن معين ، وحاولوا الاستفادة منهم استفادة كاملة. وفضّل هؤلاء الوافدون اليهود أن يقيموا في المدن والقرى التي أقام بها المسلمون الوافدون معهم (تونس ، سليمان ، زغوان .. الخ .)

وخلاصة القول فإنّ مهاجري الأندلس قد ضاعفوا عدد سكان

مدن وقرى الشمال التونسي . و زيادة على ذلك فقد أضافوا إلى سكان البلاد التونسية عنصرا بشريا جديدا لعب دورا هاما في تطوير الاقتصاد التونسي ، إذ ساهموا مساهمة جبارة في النهوض بالفلاحة ، وقاموا باشغال جليلة (حفر القنوات ، الطرق ، بناء الجسور ...) كما ساهموا في نشر وتجديد الفنون والدراسات والآداب والعلوم [١] .

---

(١) من الغريب ان المؤرخين العرب المعاصرين لهذه الاحداث لا يشيرون الا باختصار لهجرة الاندلسيين إلى تونس ، مكتفين – في الغالب – بذكر تاريخ قدومهم أو المراكز التي أنشؤوها . والاشارة الوحيدة والهامة لهذا الموضوع هي الفقرة القصيرة الآتية التي أثبتها ابن أبي دينار في كتابه « المؤنس في اخبار إفريقية وتونس – ط تونس : ١٢٨٦ هـ / ص ١٩٣ (.. وفي هذه السنة والتي تليها [١٠١٦ – ١٠١٧] جاءت الاندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانيا وكانوا خلقا كثيرا . فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا ، فاشتروا الهناشر وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة أماكن ، ومن بلدانهم المشهورة سليمان ، وبلي ، ونيانو ، وقرمبالية ، وتركي ، والجديدة ، وزغوان ، وطبربة ، وقريش الوادي ، ومجاز الباب ، والسلوقية ، وتستور ، وهي اعظم بلدانهم واحضرها ، والعالية ، والقلعة وغير ذلك . بحيث يكون عدتها أزيد من عشرين بلدا ، فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد .. »

وأميل الى الاعتقاد بأن أتباع أبي عبد الله (آخر ملوك بني الأحمر) هم الذين حثّوا على القرصنة إذ كانوا يعتبرونها الطريقة الوحيدة الموّصلة للانتقام من الممالك النصرانية التي اضطهدتهم .

وخلال الهجرة الأندلسية كان الاحتلال الاسباني إلى تونس مدّة (١٥٣٥ ـ ١٥٧٤) إلاّ أنّ هذا الاحتلال الذى استمر طيلة تلك المدة لحلق الوادي ولأقل من ذلك لمدينتي تونس والمهدية لم ينتج عنه استقرار أجناس بشرية أخرى عدا الاسرى الذين وقعوا في يد الأتراك بعد أن افتكوا حلق الوادي وتونس [١] . والجدير بالملاحظة أنه مازالت توجد إلى الآن عدة عادات وتقاليد مأخوذة عن الاسبان . أذكر من ذلك شيئا قد يبدو غريبا ، وهو وجود صليب مكوّن من مسامير سوداء صغيرة على بعض الأبواب ؛ فقد وضع الأسبان هذه العلامة على

---

(١) يقول ابن أبي دينار ص : ١٨٥ (.. ثم إن الطائفة النصرانية لما تحصنت بشكلي طلبت أمانا من الوزير [سنان باشا] وأخبروه بأمور مهمة : منها أن عندهم مائتين وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة ، منها عمل الطوب الذي يعجز عنه ، وتذويب الحديدو النحاس وعمل المدافع الكبار وغير ذلك من الصناعات ، فأعطاهم الامان .. وكساهم وجعل لهم العلوفات واستخدمهم للباب العالي .)

أبواب المنازل التي كانوا يقطنونها تمييزاً لها عن منازل المسلمين . وبعد خروج الاسبان بقيت هـذه العلامـات موجودة على الابواب إلا أنها فقدت فيما بعد المعنى الـذي وُضِعَتْ من أجـله وأصبحت تُعتبر نوعـا من الزّينة .

العـهـد الـتّركي

في العهد التركي لم تكن الظروف متاحة لأيّ كان للاستيلاء على تونس مثلما كانت متاحة للأتراك . أوَ لم تكن لهم مع السكان الاصليين صلات اجتماعية واخلاقية ودينية ! فهم إذا لم ينجحوا في الاستقرار بهذه البلاد ، فما ذاك إلاّ دليل على أنّ سوء المعاملة طغى على محاسنها . أما الفضل الأَول الذي يعـود للاتراك ـ والذي لا يمكن انـكاره ـ فهو عملهم على استتباب الأَمن في البلاد،بعد أن كانت الاضطرابات الداخلية دائمة ومستمرة فيها . ولا شك أنّ تحقيق هذه المهمـة صعب ، يتطلب مجهودات كبـيرة ، خاصّـة إذا اعتبرنا الاجنـاس المختلفة المتساكنة في البلاد وما بينها من أحقاد متغلغلة في النفوس سيّما من أولائك المغرمين ببثّ الفوضى ونشر الاضطرابات واستغلالها لفائدتهم الشخصية .

واجتنابا لعودة البلاد الى الحال التي كانت عليها عمـد الاتراك إلى

تنظيم الادارة تنظيما يضمن أمن السكان ودوام الاستقرار . وقد تحقق كلّ هذا بفضل كفاءة الاشخاص الذين عُيّنوا لتسيير شؤون الادارة . فقد حكم الدايات الأوائل البلاد بحنكة ودراية . نذكر منهم عثمان داي ويوسف داي [١] . وقد رأينا نموذجا من حسن إدارتها عند استقبالها للمهاجرين الاندلسيين وكيف تم توزيعهم على جهات مختلفة .

ونتيجة لاحتلال الاتراك دخل إلى تونس الجنس الأُروبي والآسيوي . وقد وقع نفس الشّيء بالنّسبة للدول المغربيّة الأُخرى . فالجيش التركي (الانكشارية) المكلف بحماية شمال افريقيا كان يجمع أجناسا متنوعة من مختلف جهات الامبراطورية العثمانية . وكثيرا ما ينتهي الأَمر بأولائك الجنود الى التزوّج بتونسيات،وبذلك تعلّقوا بالبلاد وأصبحت تربطهم بها صِلات عائلية متينة وألفوا الحياة فيها. وكان يطلق على أبناء هؤلاء الجنود اسم « قولغلي » ، وقد اندمجوا مع السكان الأَصليين في المدن بعد أن أخذوا شيئا من عاداتهم . وقد

---

(١) يقول ابن أبي دينار ص ١٩٢ (.. ومهد عثمان داي البلاد ، وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ، وسموها قوانين عثمان داي . وقد تغيرت الآن تلك القوانين .) وانظر كذلك مخطوطة « بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان » تأليف حسين خوجة الذي يحتوي على فصول هامة تخص هذا الموضوع.

تسهل علينا معرفتهم إذ أنهم كلّهم على مذهب أبي حنيفة النّعْمان . وهذه قاعدة عامة تمكننا من معرفتهم خاصة أنه لم يحاول أيّ واحد منهم الخروج عن هذا المذهب . أما المسلمون الذين هاجروا قبلهم إلى تونس فإنهم يتّبعون المذهب المالكي .

وقد استقر هؤلاء الوافدون ـ غالبا ـ في المدن الواقعة على ساحل البحر كالمهدية والمنستير وبنزرت وغار الملح . وقد أعيد بناء هذه المدن وتعميرها من « القولغلية » الذين استوطنوها وكوّنوا أغلبية سكّانها بمرور الزّمن . ويبدو هذا بصفة أوضح في المهدية .

وفي هذه الفترة تطورت حركة القرصنة تطوّراً لم يسبق له مثيل بسبب الأتراك المعروفين بحبّهم للبحر وخبرتهم في البِحَارَة مما مكّنهم من السيطرة عليه حفاظا على وحدة إمبراطوريتهم وصيانتها وسلامتها ، إذ أنّهم ـ زيادة على مغامراتهم البحريّة ـ نجحوا في بناء السّفن وإتقان صناعتها . [1] ولم تنته القرصنة

---

(١) : يقول ابن أبي دينار ـ ص ١٩٢ (.. وفي أيام عثمان داي كثرت غنائم البحر ؛ لان النصارى كانوا في غفلة عن الاستعداد لتشحين المراكب الكبار وانما كان يسافر الغزاة في الفراقط . وماظهرت مثل الشيطيات والبطاشات وغيرها من السفن الكبار الا في زمن عثمان داي .)

بالنسبة إليهم إلاّ في أوائل القرن الماضي [١] بعد طيلة قرنين من الزمن ؛ وقد وفد على تونس في هذه الفترة عددٌ من النصارى أُسِروا من مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط . وتجدر الملاحظة أن الاسرى الغربيين (اسبان ، بروفانسيين ، ايطاليين) الذين أُسِروا واعتُبروا عبيداً في خدمة الدولة أو بعض الخواص لم يلبثوا - بعد أن اعتنقوا الاسلام - أن مُنِحُوا حريّتهم وكوّنوا عائلات مازال بعضها يحمل اسم بلدهم الأول أو دينهم السابق [٢] .

أما الاسرى الشرقيون (يونان ، كريتيون ، بلغاريون ، أرمن . . الخ .) الذين قدموا ، وهم صغار السنّ ، فقد تخلّصوا من ديناتهم وألقابهم منذ حلولهم بتونس واندماجهم في سكّان البلاد. وهم الذين يطلق عليهم

---

(١) انظر **La correspondance des Beys de Tunis et des Consuls de France avec la Cour « 1577 - 1830 » par E. PLANTET, 3 vol .. Paris. 1893 - 1899. contient de très intéressantes indications sur la course.**

(٢) أكتفي هنا بذكر برتقيز (من البرتغال) جنويز (من جنوة) فرنسيس (من فرنسا) كريستو ، ماريا - الخ . وأنبه الى ضرورة التفريق بين هذه الاسماء وأسماء اللاجئين الاسبان والحاملين لاسماء لها كذلك أصل أروبي مثل : باشكوال « **PASQUALE** » ماركو « **MARCO** » لويش « **LOUIS** » فرنانو « **FÉRNANO** » الخ .

لفظ « المماليك » . وقد إستطاع هـؤلاء المماليك ـ بفضل تساندهم مع السلط القائمة وتوليهم المناصب العليا (وزير ، خزندار ، قبطان ، قائد .. الخ) ـ أن يغتنموا نفوذهم هذا ليقوموا بأعمال تأباها الأخلاق ومسؤولية الحكم . وإذا استثنينا القليل منهم أمكننا القول بأنهم استعملوا نفوذهم بدون مراعاة للمبادىء الانسانيّة ، الشيء الذي جعل السكان يجدون صعوبة في الخضوع لهذا الاستبداد . وهكذا سرعان ما نفد صبر الشعب فقامت حركة معاكسة ضد هؤلاء المماليك وضد جورهم . وقد قام بهذه الحركة عروش بعض الجهات في أواسط القرن الماضي ، لكن هذه الحركة [ثورة بن غذاهم] فشلت فشلا ذريعا إثر حيلة قام بها أحد هؤلاء المماليك [خزندار] قضت على هذه الحركة بكلّ وحشية بدعوى أنها ثورة على الحكم القائم . وقد ظلت ذكرى هذا المملوك الذي كان شؤما على البلاد سُبّةً في تاريخ تونس .

وفي بداية القرن التّاسع عشر توقّفت حركة القرصنة التي كانت تمدّ أسواق العبيد بالاسرى، وانقطع في نفس الفترة نزوح المماليك الذي كان مشجّعا عليه من طرف الاتراك، كما وقع الحدّ ثم إيقاف جلب الزنوج عن طريق القوافل القادمة من السودان . وكان هذا الصنف الأخير من السكان يقدّم للجنوب التّونسي ـ سيما جربة ونفزاوة ـ خدمات

جليلة ، ونحن نعلم أنه كانت توجد قرى كوّنها الزنوج في فترات سابقة للعهد التّركي . وكان من نتائج الاختلاط بين الزنوج والسكان ومكانة الروابط الدّموية والعائلية بينهم ظهور صنف جديد مزيج من ذلك الاختلاط (حمارنة الجنوب التونسي) (١) .

لكن إلى جانب ركود هذه التيارات القديمة من الوافدين فإن بعض الأوروبيين كانوا يفدون إلى تونس من تلقاء أنفسهم جريا وراء الحصول على ثروات عن طريق التجارة والصناعة والمراباة .

وفي هذه الفترة بالذات قدم من إيطاليا عددٌ من اليهود (يهود القرنة) أغلبهم من مدينة « ليفورن / Livourne » . وان كان لهؤلاء طقوس خاصة بهم فإنهم انتهوا إلى الامتزاج بالجالية اليهودية الموجودة قبلهم مما زاد في عدد أفراد الجالية المذكورة . ويهود قرنة ـ كما يقال في اللهجة التونسية ـ فهموا جيّداً المكانة الهامّة لهذا الموطن الجديد ،

---

(١) حمروني : جمع حمارنة . وتعني كلمة حمروني بالضبط « أسمر أسود ، خلاسي »

(×)الخلاسي من ولد من أبوين أسود وأبيض .

(×) في رحلة التجاني أن الحمارنة فخذ من دباب أولاد حمران بن جابر صفحة ١٣٤ طبع تونس ١٩٥٨ ، ،وانظر قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور صفحة ٤٢٨ طبع الرباط ١٩٦٨ ،

فعملوا وسطاء مدة طويلة بين أروبا وبين هـــذه البلاد التي ظلّت محتفظة بطابعها الشرقي .

هكذا ينتهي هذا البحث الذي دار ـ بصفـــة إجمالية ـ حول الأجناس البشرية التي استقرت في تونس إما عن طريق الهجرة أو عن طريق الفتوحات . وهذا التمازج البطيء بين الأجناس الذي وقع طيلة قرون عديدة هو الذي يكوّن السكان الحاليين بالبلاد التونسية ، فقد توالت الحضارات العديدة على هـــذه البلاد ، ثم اختفت شيئا فشيئا إلا أنه بقي منها بعض الآثار ساهمت في إبراز الحالة التي تبدو عليها حضارتها الآن .

لنأخذ مثلا مسألة المعتقدات ، ولنكتفِ بأخذ الدين الاسلامي مثالا على ذلك ؛ فكم من الفروق يمكن أن تُلاحظ بين طريقة ممارسة الفرائض في عصرنا هذا وفي القرون الاولى للهجرة . فقد اقتبست عادات من مذاهب مختلفة ! وكم تمّ من تلاقح من هذا النوع بين المسيحية والوثنية ! وكان للوسط الاجتماعي عملُه وتأثيره . وفي الجنوب التونسي بصفة خاصة نجـــد بعض المؤثرات المسيحية في المجتمع الاسلامي نتيجة ثبات المسيحية أمام الاسلام هناك . ففي أثناء رحلة قمت بها منذ عهد غير بعيد الى بلاد الجريد لاحظت ـ أثناء الختان

الذي يشبه « المعمودية المسيحية » عند العامة - أن أم الطفل أو أحد أقاربه تضع علامتيْ صليب على قميص الطفل المختون : الاولى في بطنه ، والاخرى في ظهره مستعملين لهذا الغرض خليطا من الماء والزعفران . إن هذه العادة - التي تبدو غريبة في أوّل الأمر - ما هي إلا عادة مأخوذة عن البيزنطيين تستعمل قبل بدء الحفل المخصص للمعموديّة . وقد استمرت هذه العادة حتى دخلت في تقاليد الختان عند مسلمي تلك المنطقة .

ونجد شبيها لهذا التمسك بالعادات في الجنوب الشرقي (مطماطة ، التّوازين ، توجان) . حيث كان يقطن البرابرة الذي كانوا من الخوارج في زمن الرحلة التي قام بها عبد الله التجاني (القرن الثامن هجري ، القرن الرابع عشر مسيحي) فقد أضافوا إلى الاسلام عدة تقاليد تمسكوا بها ولم يتركوها . كما لا يخفى علينا أن بدو تونس من رجال ونساء كانوا يضعون صليبا على الجبين أو الذقن أو الخد (الوشام) . وتلك عادة قديمة لم يعد لها أي معنى اليوم . لكنها كانت توضع في القديم لغرض ديني معيّن . وحسب الذي يروى فإن هذه العلامة كانت في القديم تميّز البرابرة الذي اعتنقوا النصرانية عن البرابرة الذين ظلوا على وثنيّتهم .

وإضافة إلى ذلك ، فإن مذهب تقديس الاحجار والأشجار والأولياء كان متّبعا من طرف البرابرة . وهو مايزال موجودا رغم إيمان المسلمين بالاه واحد . وأخيرا نذكر أن هناك عادات وثنية ـ تبدو وحشية ـ أتى بها زنوج السودان وحافظوا عليها وأصبحت من التقاليد المتبعة رغم اعتناقهم الدين الاسلامي مثل القرابين واستحضار الأرواح .

●

ثورة الطنبذي

منعرج في تاريخ الاغـــالبـة

ثـــورة الطنبـــذى
منعــرج فــى تاريــخ الاغالبــة

ينبغي أن نعترف للمؤرخين العرب ، بما نقلوه لنا في كتبهم ـ ولو بصفة ساذجة وغير منظمة ـ من أخبـار وروايات مفصلة مكّنـتـنا من التعرف على حقيقة الواقـع التاريخي ؛ فهم لا يبخلون علينا باعلامنـا مثـلا بضرب النقود الذي يقوم به بعض الثائرين ضد الدول التي تعاقبت على الحكم خلال العصور التاريخية .

من ذلـك أن أغلب المؤرخين العرب ذكـروا باطناب الصعوبات التي واجهها زيادة الله الاول (ثالث أمراء بني الاغلب) في الايام الاولى من عهده،والمعارك الطاحنة التي خاضها ضد الثائرين الذين تمردوا عليه في مناطق مختلفـة من إفريقية . وقـد كادت هذه الثورات تقضي على الدولة الأغلبية . إلا أن زيادة الله الاول قـد انتهى في الوقت المنـاسب الى الطريقة الكفيلة بأن تبعد عنه نهائيا شبح هذا الخطر .

ومن المعلوم أن الامير « زيادة الله » خَلَف أخاه الاكبر سنة ٢٠١ (٨١٦ م) وهو في ريعان الشباب . وقد عامل الجند ، منذ أول عهده ، بلا شفقة ولا رحمة . وذلك لتثبيت أركان سلطته بالبلاد من جهة ، ومن جهة أخرى لعدم ثقته في الجيش . وقد أثارت عليه هذه السياسة القُوَّاد العسكريين [1] . وكان أول الثائرين عليه زياد بن سهل المُكَنَّى بابن الصقلبية وذلك بمنطقة فحص أبي صالح (منطقة الفحص الآن).وقد لاذ بالفرار إثر المعركة التي اندلعت في سنة ٢٠١ (٨١٦ م). ثم أعاد الكرة سنة ٢٠٧ (٨٢٢ م) . وتوجه على رأس جيوشه الى باجة فاحتلها بعد بضعة أيام . ولكن الجيش الأغلبي تمكّن مرة ثانية من الانتصار عليه وإخماد شوكة هذه الثورة .

ولم يمض على انتهاء هذه الثورة أكثر من سنة حتى ثار عمر بن معاوية القيسي . وتمكَّن في مدة قليلة من الاستيلاء على منطقة « القصرين » وذلك في حدود سنة ٢٠٨ (٨٢٣ م).ولكن الجيوش الاغلبية استطاعت ـ هذه المرة أيضا ـ أن تخمد نار الثورة .

ثم أتى دور مدينة تونس المشهورة منذ القديم بمنافستها للقيروان ؛

---

(١) فيما يتعلق بهذه الثورة اعتمدنا على الاخبار التي أوردها ابن عذارى (البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١) وابن الاثير (الكامل في التاريخ)

فقد تجمّع بها قواد الجيش المعارضون لزيادة الله ، وأثاروا حوادثَ أخطر من الثورات التي سبقت .

فعلى بُعْدِ أربعة فراسخ جنوب مدينة تونس توجد قرية « المحمّدية » وكان بها حصن يعرف باسم طَنْبَذَة [١] على ملك منصور بن نصر [٢] الذي أصبح ـ من أجل ذلك ـ يكنى بالطَّنْبَذي . وهو قائد مشهور بالاقدام والشجاعة والفصاحة فاستطاع أن يكسب محبّة الجيش العربي ، فوضعه زعماء الجند على رأس حركة المعارضة ضد الأغالبة .

وقد ابتدأت هذه الحركة سنة ٢٠٩ (ماي ٨٢٤ م) وذلك باحتلال مدينة تونس وقَتْلِ الوالي الاغلبي ، فقرّر زيادة الله إرسال جيش للقضاء على الثورة في المهد [بقيادة محمد بن حمزة] . ومن ناحية أخرى كلّف بالتوسط بينه وبين قائد الثورة أربعين فقيها من فقهاء تونس

---

(٢) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان الجزء السادس صفحة ٦١ ـ القاهرة ١٣٢٤/١٩٠٦

(١) منصور هذا من أصل عربي عريق . وكانت أسرته التي قدمت مع الفاتحين قد استقرت بافريقة منذ أمد طويل . يتصل نسبه بالشاعر الجاهلي المشهور « دريد بن الصمة » من قبيلة قيس العتيدة .

المشهورين بالتقوى والورع بقيادة قاضي الجماعـة [شجرة بن عيسى] فتوجهوا الى قصر منصور بطنبذة وطلبوا منه الرجـوع الى جـادَّة الصواب مبيّنين له مغبَّـةَ الاستمرار على العصيـان سواء في الدنيـا أو في الآخرة .

وقد خص منصور الطّنْبَذي أعضاء الوفد بأحسن قبول ، وأنكر قيامه بأية حركة عدوانية ضـــدّ الامير ، أو بأية محاولة تمردية. كما أظهر لهم كامل استعداده للذهـاب معهم إلى زيادة الله . إلا أنـه طلب منهم الاقامة في قصره ذلـك اليوم حتى يتمكّن من معاملتهم المعامـلة اللائقة بمقامهم ؛ فاستجاب الوفـــد لهذه الدعوة : وأرسل الى جنـود زيادة الله الذين مكثوا بتونس ِببَقَـرٍ وغنم وعَلَف وأحمال قهوة .

ولم يشكَّ مبعوثو الأمير لحظة واحدة في صدق نيّة صاحب الدعوة. ولكن ما إن جَنَّ اللّيل حتّى قام منصور باعتقال الضيوف وفي مقدمتهم القاضي شجرة بن عيسى . ثم أرسل أنصاره الى تونس بعد ما امتطوا صهوات جياد مساجينهم فانقضُّوا كالصاعقة على الجنود ، وقد فعلت الخمر فيهم مفعولَها . ودارت رحا المعركة طوال الليل ؛ لأن المغيرين استصحبوا معهم عددا كبيرا من المقاتلين . وعند طلوع الفجر انهـزم الجيـش الاغلبي في أول حملة شنّهـا على منصور الطَّنْبَذِي . وذلـك

يوم الاثنين ٢٤ صفر ٢٠٨ الموافق السادس والعشرين من شهر جوان سنة ٨٢٤ م .

ومن النتائج التي أسفرت عنها هذه العملية البارعة تكتُّل الأغلبية الساحقة من الجند حول منصور الطنبذي الذي أصبح قائدا للثورة بدون منازع .

وعندما بلغ زيادة الله خبرُ انهزام جيشه جَنَّد جيشا آخر وأرسله في الحين إلى تونس بقيادة وزيره غلبون فالتقى الجمعان أمام السبخة (سبخة السيجومي الآن) وانهزم الجيش النظامي من جديد ، وأُجبِرَ على الفرار وذلك في ٢٠ ربيع الاول (٢٠ جويلية) من نفس السنة .

وإثر الهزيمة الثانية انتشر قواد الجند في أطراف البلاد . واستولى كلٌّ واحد منهم على مدينة من المدن الشمالية يتحصَّن بها خوفاً من عقاب زيادة الله . وبذلك عمّت الفوضى جميعَ المناطق .

أما منصور الطنبذي فقد جنَّد جيوشا من كلّ مكان واتجه على رأسها نحو القيروان (عاصمة الاغالبة) التي وصلها يوم ٥ جمادى الاولى (٦ سبتمبر ٨٢٤ م) وقام بمحاصرتها ، فبادر الجنود الذين كانوا بالمدينة الى فتح أبوابها في وجهه .

وكان زيادة الله في ذلك التاريخ يُقِيمُ مع أسرته وحرسه بالعَبَّاسية

التي شيّدها أبوه إبراهيم بن الأغلب على بعد أربع كيلو مترات جنوب القيروان [١] والتي تضمُّ جميعَ دواوين الدولة .

وأجرى القاضيان أسد بن الفرات وأبو محرز الكناني مفاوضات مع منصور الطنبذي لارجاعه الى جادّة الصواب فلم تأت المفاوضات باية نتيجة . بل شجعت « منصور » على التمادي في حركة العصيان ؛ فكتب الى زيادة الله يطلب منه التخلّي عن الحكم والرّحيل عن إفريقية بعد ما تعهد له ولاسرته بالأمان على حياتهم وأملاكهم .

ولكن هذه التهديدات لم يكن لها أي تأثير على الأمير الاغلبي ؛ فقام الثائرون مدة أربعين يوما بتحصين المدينة ، وحفروا خندقا كبيرا حول أسوارها وأسرعوا الى تنظيم المقاومة استعدادا للطوارىء .

وأثناء هذه المدة جـــرت بين الطرفين بعض المناورات وكانت الحرب سجالا بينهم : ثم جهّز زيادة الله جيشا من أنصاره الذين بقوا على وفائه ، وهجم بنفسه على منصور الطنبذي . و بعد معركة حامية

---

(١) بخصوص العباسية أو القصر القديم راجع « معجم البلدان » لياقوت و « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » للبكري و « دليل الفن الاسلامي » لجورج مرسي و « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » لحسن حسني عبد الوهاب – الطبعة الثانية – تونس ١٩٧٠ صفحة ٢٦ .

انهزم منصور ولاذ بالفرار متجها الى قصره بطنبذة مصحوبا بأنصاره. وذلك في ١٥ جمادى الثانية (١٣ اكتوبر ٨٢٤ م) .

ودخل الأَمير زيادةُ الله القيروانَ منتصرا مظفَّرا . وبعد القضاء على حركة العصيان مَنَـحَ الأَمان لكافة السكان ، واقتصر على تهـديم الحصون التي أَقامها الثائرون ،

وهكذا يبدو أَنّ الأَمن قد رجع الى نصابه بالبلاد ، ولكنَّ انتصار الأَغالبة لم يدم طويلا ، فبعد الهزيمة التي مِنِيَ بها الثائرون بالقـيروان أخذوا شيئا فشيئا في استرجاع قواهم ، ثم أعلنوا الثورة من جديـد بـ « سبيبة » ، فأسرع زيادة الله الى إرسال جنوده الى هذه المدينـة . ولكنهم انهزموا . وذلك في ٢٠ محرم ٢١٠ (١١ ماي ٨٢٥ م) ،

وتأثر البـلاط الأغلبي من هـــذه الهزيمة الجديـدة التي استحالت ـ آخر الامر ـ الى نكبة ، ذلك أن جموع الثائرين تمكّنوا مرة أخرى من محاصرة القيروان بقيادة منصور الطنبذي . وفَتَحت لهم المدينـة أبوابَها من جديد ، وبقي زيادة الله في قصره بالعباسية مدة ستـة عشر يوما محاصَرا تحت تهديد المغيرين ،

وتأكيداً لهذا الانتصار الجديد وإيهاماً بانقـراض الدولة الاغلبيـة تولّى منصور بن نصر ضَرْبَ النُقود باسمـــه بدار الضرب الرسميـة

بالقيروان ، وهو ما سنعود إليه بعد حين لتوضيح هذه النقطة التاريخية ،

وفي هذه الفترة بالذات انفصلت سائر المناطق الشمالية عن الحكومة المركزية ، وامتنعت عن دفع الضرائب مثل : تونس وباجة والأُرْبُس وصطفورة (ماطر وبنزرت) وجزيرة شريك ومنطقة قسطيلة (الجريد حاليا) ، ولم تبق محافظةً على العهد إلا منطقة الساحل ، وقابس وطرابلس ونفزاوة . واستولى الثائرون على البلاد ، وشجعهم انتشار الحركة الانفصالية فبعثوا الى زيادة الله من جديد طالبين منه التخلّي عن الحكم في أقرب الآجال ، ومتعهدين له بالأمان على حياته وأملاكه ،

وهكذا أصبحت الحالة مهدِّدة بانتهاء حكم الأغالبة ، وبدأ اليأس يطغى على زيادة الله فرأى من الصالح أن يستشير أقرباءه وأنصار أسرته أثناء جلسة عقدها لهذا الغرض ، فطلب منه سفيان بن سوادة ـ وهو من قدماء القوّاد الأغالبة المشهورين ـ أن يضع على ذمته جيشا صغيرا مكوّنا من الجنود الذين تعوّدوا على القتال والمتمتعين بكامل ثقته ، فكان له ذلك . وتمّ اختيار مائة فارس دُفِعَت لهم أجورهم مسبّقة . واتجه سفيان على رأس جيشه الى نفزاوة حيث استطاع أن يكسب

تأييد بعض الخوارج من البربر الذين توجهــوا معه الى قسطيلة (بلاد الجريد) حيث توجد معظم العناصر المتمردة ٠ والتقى الجمعان قرب دقيوس (واحدة دقاش) ٠ وكان الانتصار حليف جيـوش سفيان فترك منصور الطنبذي أتباعه ، ولاذ بالفرار عائدا الى قصره بطنبذة ٠

وبفضـل هـذا الانتصـار الذي حققـه الجيش الاغلبي في أواخـر سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) تـشـتّـت شمل الثائرين ،ورُفـعَ الحصار عن القيروان. وُحقَّ لزيادة الله أن يعتبر أن شبح الخطر قـد أُبْعِـدَ، ولو إلى حين . وبعد تلك الهزيمة أخذ الخلاف يدبُّ في صفوف الثوار منـــذ أوائل سنة ٢١١(مارس ٨٢٦ م)٠ من ذلك أن قائد الجند عامر بن نافع قـد غارَ من النفوذ الذي أصبح يتمتّع به منصور الطنبـذي فاقر العـزم على الثورة ضده. وأخذ يقوم - خفية - بحملة دعائية لجلب الانصار . وعندما أيقن أنه صار له من القوة ما يكفي للقضاء على خصمه اسرع الى محاصرة قصر طنبذة ، فرضي منصور بالاستسلام على شرط أن يسمح له بالرّحيل الى المشرق ٠ ولكن ما إن أقبل اللّيل حتى خـرج خلسةً من قصره ولاذ بالفرار الى الأربس ، فاقتفى أثره عامر بن نافع وحاصره من جديد في المكان الذي تحصن بـه . ونصب المنجنيق أمـام

المدينة . واستولى الفزعُ على سكان الأُربس فأجبروا « منصور » على الفرار وإلاّ سلّموه الى عدوه،فقبل الاستسلام بعد ما أدرك أن صفقته أصبحت خاسرة ، وأن جميع أنصاره قد خذلوه . ومنحه ابن نافع الامان وسمح له بالرّحيل الى المشرق . ولكنه أعطى أوامر سرية للفرسان المكلّفين بمرافقته قصد الفتك به غَدْرا . وقد تم ذلك بقرنة الواقعة بمنطقة باجة حيث أُعْدِمَ هذا القائد المغوار . وبذلك خمدت نار الفتنة بافريقية . ولو أن بعض القواد حاولوا ـ من حين الى آخر وبدون جدوى ـ شقَّ عصا الطاعة وجرّ رعاع الجند وراءهم . من ذلك أن عامر بن نافع سعى ـ مدة شهور ـ الى نشر حركة العصيان ببعض المناطق الشمالية . ولكن مسعاه باء بالفشل . وتبين أن نار الثورة التي عرف منصور الطنبذي كيف يشعلها بكلّ حماس قد خمدت نهائيا .

والجدير بالذكر أن زيادة الله ـ بفضل ما كان يتمتع به من حنكة ديبلوماسية ونشاط عسكري ـ تمكّن خلال الحملات الطويلة التي شَنَّها ضد الثائرين ، والتي كلفته نفقات باهضة،من التفكير مليّا في دور الجند ومساوئه . ذلك أن الجند أصبح يمثّل في نظره القوة الحيّة للعرب الفاتحين التي استطاعت أن تقضي على كل مقاومة بربرية ، والتي أصبحت

تشكّل خطراً على الأسرة المالكة نفسها ، ولو أنها مثلها من أصل عربي . لقد امتنع الامراء الأغالبة من انتهاج سياسة التعسف والاضطهاد تجاه البربر التي نادت بها الأرستقراطية العسكرية المشكوك في ولائها وإخلاصها لممثل السلطة العباسية بافريقية . بل إن الأغالبة حاولوا ـ من أول وهلة ـ أن يستميلوا أهالي البلاد . ولا شك أن هذه السياسة من شأنها أن تشجّع البربر على اعتناق الاسلام ،وأن تكوّن منهم نخبةً من الجنود المخلصين للسلطة المركزية .

وقد رأينا فيما تقدم كيف تم رفع الحصار عن القيروان المهددة بالسقوط في أيدي الثوار ، وتشتيت شمل الجنود الثائرين بفضل ما أظهره أهل نفزاوة من إخلاص للدولة الأغلبية التي كانت على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار .

وكما أن إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس الدولة الاغلبية ، كان قد أدرك أنه لا يمكنه الاعتماد على مؤازرة الجند المتكوّن من عناصر لا تمتثل للأوامر ، ولا تتمتع بثقته الكاملة فجلب من السودان أربعة آلاف زنجي كوّن منهم حرسه الخاص الذي يقيم بمقر الامارة الجديد بالعباسية ، فكذلك فكّر زيادة الله بن إبراهيم في الفوضى السائدة في البلاد . وتيقّن أن الحرس الأسود الذي ورثه عن والده لا يقدر على

وضع حدّ لأعمال الفساد التي يقوم بها الجند ، فاستنبط طريقة سياسية حكيمة لتحويل نشاط الجند إلى وجهة أخرى . وقد أحرزت هذه الخطة الجديدة كاملَ النجاح إذ أنها أفضت الى القضاء ـ قضاء مبرما ـ على كلّ محاولة تمرّدية يمكن أن يقوم بها قواد الجيش ضد السلطة المركزية. ذلك أن زيادة الله استغلّ فرصة استنجاد القائد البيزنطي الثائر « أوبيميوس » بالدولة الاغلبية فأقرّ العزمَ على فتح جزيرة صقلية وذلك خلال شهر ربيع الاول سنة ٢١٢ الموافق لشهر جوان سنة ٨٢٧ م. وقد أدرك ما سينجر على ذلك من فوائد جمة. منها : إرجاع النفوذ الى الدولة الاغلبية التي كانت مهدَّدَةً بالخطر ، وكسبُ المجد المتولد عن الجهاد في سبيل الله ، والزجُّ بالجند في مغامرة حربية ، وبالتالى إبعاد عناصر الشغب ، وتمكين الأهالي الذين هم حديثو عهد بالاسلام من المشاركة مشاركة فعلية في « الجهاد » وذلك لتمكينهم من إبراز عقيدتهم الاسلامية الراسخة ، والتعبير بصفة لا تدعو إلى الشك عن عواطف الولاء للأمير الأغلبي . وكلّنا يعلم ما حققته هذه الخطة من نصرٍ مُبين للأغالبة إذ أفضت إلى الاستيلاء التام على الجزيرة وإلحاقها بمملكة القيروان .

وليس في نيتنا التبسط في جميع أطوار فتح صقلية وما اسفرت

عنه من نتائج حميـــدة سواء من الناحية السياسية أو من النـاحية الاقتصادية . وقد طُـرِقَ هذا الموضوع أكثر من مرة [١] .

ويكفينا أن نقول : إنّ من أهم نتائج فتح الجزيرة الرفعَ من سمعة الأغالبة وإنقاذَ دولتهم من انقراض سريع لامحيد عنه .

* * *

إننا نحتفظ بشاهد عيـان ثمين لتلك الأحـداث . وهـو يتمثل في قطعة من النقود ضربها منصور الطنبذي أثناء الثورة . وقد عثِر عليها أخيرا بمنزل تميم بالوطن القبلي . وقد كنتُ كتبتُ في فصل آخر [٢] أنّضرب النقود في عهد الامويين يعتبر « حقا من الحقوق التي يختص بها الخليفة » وفي عهد العباسيين تغيّرت هذه القاعدة . ذلك أن عدداً كبيرا من الوُلاَة قـد أقامـوا حكما وراثيـا في الأقاليم التي عهـد إليهم

---

(١) راجع بالخصوص « تاريخ المسلمين بصقلية لميكائيل أماري و«الاستيلاء الاسلامي على صقلية » لحسن حسني عبد الوهاب – تونس ١٩٠٥ (×) والمنشور في هذا الجزء من الورقات .

(٢) راجع الفصل الذي عنوانه « شاهد عيان على الفتح العربي لاسبانيا» لحسن حسني عبد الوهاب – المجلة التونسية – سنة ١٩٣٢ .

الخليفة بها . وتحصلوا على حقّ ضرب النقود مثل ما هو الشأن بالنسبة للاغالبة . إلاّ أنه باستثناءِ مَنْ يُوليه خليفةُ بغداد الامارةَ فلا يمكن لأي كان أن يتولّى ضرب السكة باسمه . ويعتبر في نظر الحاكم الشرعي كل من يستعمل هذا الحق مزوِّرا وغشاشا .

هذا ولأول مرة في تاريخ إفريقية العربية نرى جنديًّا من الجنود الثائرين يقوم بضرب النقود باسمه . وذلك لا لترويج نقود مزوَّرة بل لتأييد قضيته المرتبطة أشدّ الارتباط بقضية الجند العربي من جهة ، ولاثبات سقوط الدولة الأَغلبية من جهة أخرى .

وليس الغرض من هذه العملية الاعلان عن انفصال الثائرين عن السلطة المركزية فحسب ، بل ان ذلك يعني أن النظام الجديد قد استقر استقرارا نهائيا بالبلاد .

وهذا وصف القطعة التي عثر عليها أخيرا .

درهم من فضة : الوزن ٢ر٧٠ غرام .

الوجه الأَول : الوسط

لا الـــه الا

الله وحـده

بـــخ بـــخ

لا شريك له

كتـابـة الدائـرة : بسم الله ضرب هذا الدرهم بافريقية سنة عشر ومئتين

الوجه الثاني : الوسط

عــدل

محمــد

رســول الله

منصــور بن نصر

منصـور

كتابة الدائرة : هو الذي أرسل رسوله بالهـدى . . الى قوله تعــالى المشركون

وهكذا نرى أن الدرهم المذكور يشبه الى حدٍّ بعيد النقودَ الأغلبية إذ له نفس الوزن ، ونفس البُعْد ، ونفس العيار . على أن شعار الدولة الاغلبية « غلب » المنقوش على النقـود الاغلبية قد عـوِّض هنا بكلمة « عـدل » وذلك للدلالة على أن الحاكم الجديد عازم على انتهاج سياسة عادلة بالبلاد . وهذا يعني أن سياسة الدولة السابقة لم تكن مقامـة على العدل . أما التورية التي استعملها ضارب هـذا الدرهم عندمـا أتبع رسم اسمه « منصور بن نصر » بكلمة « منصور » فهي تشير الى انتصاره على الأغالبة .

والغالب على الظن أن ضرب الدرهم المذكـور قد تمّ بالقيروان بمعامل دار الضرب الاغلبية نفسها خلال المدة القصيرة التي احتلّ فيها الثائرون القيروان والتي دامت ستة عشر يوما .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن اسم « إفريقية » هو الذي نـقش على الدرهم. وذلك لأن جميع المؤلفين العرب من مؤرخين وجغرافيين كثيرا ما كانوا ينعتـون عواصم المناطـق بأسماء المناطـق نفسها مثال ذلك : مصر عوض الفسطاط ، والأندلس عوض قرطبة ، وإفريقية عـوض القيروان [١] .

ومن المفروض أن النقود التي ضربها منصور الطنبـذي لم تكـن تشتمل إلاّ على دراهم من فضة وربما فلوس من نحاس دون غيرها من دنانير الذهب ، وذلك لأن الصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها القائد الثائر بدون انقطـاع ـ لاسيما فيما يتعلق بـدفع أجـور أنصـاره ـ لم تكن تسمح له بالتصرف في مبالـغ طائلة من المـال حتى يستطيـع أن يقوم بضرب النقود على نطاق واسع .

---

(١) البلاذرى ـ فتوح البلـدان ـ طبعـة القاهرة ـ ١٩٠١ ـ ص ص ٢٣٦ و ٢٣٩ .

وهكذا فان الدرهم المذكور يضع على ذمتنا نوعاً من النقود التي بقيت الى حدّ الآن مفقودة تماما [١]

زد على ذلك أنه كان نتيجةً لأَحداث تمثّل نقطة انطلاق لاتجاه جديد ومحمود للسياسة الاغلبية ألا وهو فتح صقلية والاستيلاء عليها .

وهكذا نرى مرة أخرى كيف أنَّ عِلْمَ المسكوكات القديمة يمكّننا من أن نؤرخ بصفة مضبوطة بعضَ الأَحداث التي بقيت مجهولة في التاريخ التونسي ، كما أنه يضع بين أيدينا شهادة ثمينةً ويعطينا درسا عميقا في علم النفس السياسي .

نابل / افريل ١٩٣٧

---

(١) كتب الاستاذ ه . لافوا (H. Lavoix) حول هذه القطع في بحثه القيم عن النقود الاسلامية ما يلي : « عندما نطالع النصوص العربية نشعر بالنقص الموجود في مجموعاتنا مهما كانت ثرية ذلك أننا لا نملك مثلا نقود منصور بن نصر الطنبذي الذي استولى على افريقية فلم يبق منها تحت سلطة زيادة الله الاغلبي إلا المناطق الساحلية ومدينة قابس . وقد قام بضرب النقود باسمه الخاص عندما بسط نفوذه على كامل الامارة حسبما جاء في « البيان المغرب » وحسبما ذكره ابن خلدون » – H. Lavoix – قائمة النقود الاسلامية بالمكتبة الوطنية « باريس ١٨٩١ ج (II) المقدمة ص ٤١ .

بلاد تموده

في القــرون الوسطى

بـلاد قمـودة فـى القـرون الـوسطى

يبدو أنّ جهة السباسب التونسية (قمودة وماجر) بدأت في مسايرة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي توجد في الجهات الأخرى من البلاد التونسية بعد أن ظلّت - عدّة قرون ، وبعبارة أضبط منذ القرن الرابع الهجري (الحادي عشر الميلادي) [١] - منقطعة عن كل حركة ترمي إلى التقدّم الفلاحي والتجاري والصّناعي على الرغم من أن حالتها تلك لم تكن على تلك الصورة في مختلف العصور .

وإذا نحن رجعنا إلى كُتُب الجغرافيّين والرّحالين المسلمين في القرنين الثالث والرّابع (١٠ - ١١ ميلادي) فإننا سرعان ما نلاحظ التغيّر العميق الذي طرأ منذ ذلك العهد على النهوض بالحياة الاقتصادية في هذه الجهة التي نسمّيها حاليا « السباسب التونسية » .

× (١) يبدأ القرن الحادي عشر الميلادي سنة ٣٩٢ هـ ، والعاشر سنة ٢٨٩ والتاسع ١٨٥ هـ . عن « التقويمان الهجري والميلادي » تأليف « فريمان - قرنفيل »

ومن حسن حظ المغرب الاسلامي - وخاصة تونس - أنّه توجد نصوص عربية حولَ الجغرافيا الطبيعية والبشرية والسياسية لهذه المنطقة ، وحول إنتاجها الزّراعي والتجاري والمنجمي . وسنقتصر هنا على تتبّع أهمّ مؤلّفات الجغرافيين العرب . وسنعتمد في ذلك على المعلومات التي أوردها كلٌّ من :

١) اليعقوبي : وهو مؤلف شرقي زار إفريقية وبقية أقطار المغرب حوالي سنة ٢٨٧ (٨٨٠ م) . وقدّم لنا معلومات حول العُمران البشري ، وحول الحالة السياسية في البلاد [١] .

٢) ابن حوقل [٢] عالم بغدادي زار المغرب والأَندلس في القرن الرّابع الهجري متقنّعا بمهنة التاجر الذكي [٣] ، وقد جلب اهتمامه الإنتاج الزراعي والصّناعي للبلدان التي زارها . واهتمّ خاصة بالجبايات والشؤون المالية .

---

(١) « كتاب البلدان » النص العربي طبع النجف (العراق) سنة ١٩٣٩ ، والترجمة الفرنسية طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ (ترجمة ق ، فيات) .

(٢) كتاب « صورة الارض » طبع ليدن ١٨٧٣ .

× (٣) « ولكنه ربّما كان داعيا سياسيا » / تاريخ الادب العربي الجغرافي تأليف « كراتشوفيسكي » الترجمة العربية : طبع القاهرة سنة ١٩٥٧ (١ : ٢٠٠) .

٣) المقـدسي : عـالم فلسطيني من بـيـت المقـدس اهتمّ في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » [١] بتوجيـه دراسته نحو الإلمـام بالمعارف الموجودة في العالم الاسلامي في القرن الرّابع الهجري . وقـد ألَمّ بالمسائل الجغرافية الخاصّة بالمغرب والأندلس . وهو ـ وإن لم يزر هذه الأقطار ـ فقد اهتمّ خاصة بالتنظيم الإداري والاجتماعي ، وبمقارنة ذلك بما كان يوجد إذ ذاك في المشرق الاسلامي . ولم يُنْسِهِ ذلك الاهتمامُ أن يقدم لنا المعلومات الخاصة بوصف تلك الأقطار .

٤) البكري : كاتب أندلسي كان كاتبا في ديوان الإنشاء الموّحدي في القرن الخامس الهجري (١١ م) . وهو لم يغادر شبه جزيرة إيبريا (الاندلس) لكنّه تمكّن بحكم منصبه من استعمال وثائق سياسية هامّة جدًّا ، كما اعتمد على معلوماته الخاصّة ، وعلى ما جـــاء من معلومات جغرافية في كُتُبِ الّذين سبقوه في التأليف .

ويعتبر كتابـه « المسالك والممالـك » [٢] مرجعا أساسيًّا لمـن يريد البحث في جغرافية وتاريخ الآثار والاجتماع في المغرب (طرابلس ،

---

(١) طبع ليدن ١٨٧٧ .

(٢) وصف إفريقية الشمالية طبع باريس ١٩١١ م وترجمة « دي سلان » باريس ١٩١٨ .

تونس ، الجزائر ، والمغرب) طيلة العهد الوسيط إلى منتصف القرن الخامس الهجري أي إلى تاريخ الغزوة الهلالية التي غيّرت كلّ أوضاع البلاد .

٥) وقد اعتمدتُ أيضا على عدد من الجغرافيّين والرّحالين والمؤرخين الذين أتوا بعد هؤلاء [١] كابن العذاري ، وابن الاثير [٢] والتجاني [٣] والعبدري [٤] وابن خلدون [٥] والعياشي [٦] . فقد قدّم

× (١) هناك نصّ هام لم يكن معروفا عند كتابة هذا البحث من طرف المرحوم ح.ح عبد الوهاب ، وهو كتاب « الاستبصار في عجائب الامصار » لكاتب مراكشي مجهول الاسم عاش في القرن السادس الهجري . وقد حقق الكتاب ونشره الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . طبع الاسكندرية ١٩٥٨ .

(٢) « الكامل في التاريخ » لابن الاثير طبع ليدن (١٨٥١ / ١٨٧٦) وترجمة « فاقنان » طبع الجزائر ١٩٠١

(٣) « رحلة التجاني » طبع تونس ١٩٢٧ وترجمة « روسّو » (١٨٥٢/١٨٥٣)

(٤) « رحلة العبدري » مخطوط بمكتبتي الخاصة .

(٥) « تاريخ البربر » طبع الجزائر ١٨٤٧ وترجمة « دي سلان » باريس ١٩٢٥

(٦) « رحلة العياشي » طبع فاس ١٣١٦ هـ ومخطوطتي الخاصة

لنا كلّ واحد من هؤلاء معلومات هامّة حول حدود وسكان المنطقـة التي تخصُّها هذه الدراسة .

الأجنـاس البشريـة

قبل أن نشرع في دراسة المميزات الخاصة الجغرافية والاقتصـادية لمنطقة السباسب التونسية (بلاد قمّودة) يجدر بنا أن نلقي نظرة عاجلة على العناصر البشرية التي كانت تقطن هذه الجهـة من الوسط التـونسي . وتعتبر المعلومات التي قدّمها لنا اليعقـوبي حـولَ هـذا الموضوع هامّة جدًّا ، فهو يخـبرنا أنـه كانـ يعيش في القرن الثـالث الهجري بتلك المنطقة :

أ) البربر : وهم السكان الأصليون بالمنطقة . والبرابرة الموجودون بهذه المنطقة ينتمون إلى قبيلتَيْ زناتة وهوّارة أسلموا في فترات مختلفة ، واتخذوا من اللّغة العربية لغةً رسميـة لهم بالرّغم من أنهـم لم يكونوا كلُّهم يحسنون التعبير بها حسب قواعدها النّحـوية .

ب) العرب : وهم ينتمون إلى عـدد من القبائل العربيـة (قيسية أو يمنية) قدموا من شمال أو جنـوب الجزيرة العربية بما فيهم أبـنـاء

المستعربين من عجم الشام وفارس . وقد وفد كلّ هؤلاء ضمن البعثات العسكرية التي جاءت لتعزيز صفوف الجيش العربي التي استقرّت في البلاد . وتفرّق هؤلاء الوافدون في مختلف جهات إفريقية. ثم استقرّوا، وأخذوا يشتغلون بالزّراعة ، المورد الأساسي لافريقية . ولعب هؤلاء الوافدون دورا كبيراً في نشر اللّغة العربية والدّين الاسلامي في هذه الرّبوع .

ج) الأفارقة : إمّا برابرة امتزجوا باللاّتينيين أو لاتينيون امتزجوا بالسكّان الأصليين واستقرّوا بافريقية منذ أحقاب . وكان هؤلاء الأفارقة يشتغلون بالتجارة غالبا . وقد احتفظ الكثير منهم بالمسيحية، دين أجدادهم . وكانوا يدفعون الجزية مقابل احتفاظهم بديانتهم ممّا سمح بوجود عدد من الكنائس في مختلف الجهات . ويغلب على الظنّ أنهم احتفظوا بلغتهم اللاتينية إلى القرن الحادي عشر المسيحي[١] مما يقيم الدليل على مدى تعلّقهم بديانتهم المسيحية، وعلى عدم إكراههم على تركها .

---

(١) يقول الادريسي « وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الافريقي » ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

د) الرّوم أو البيزنطيون : وهم بقـــايا سـادة هذه البـلاد قبـل الفتـح الاسلامي، ويطلق اليعقوبي على هؤلاء اسم «الرّوم القدم[1]» أي ذرّية جنود وموظّفي الامبراطورية البيزنطية الذين قدموا إلى افريقية ولم يغادروها عند الفتـح الاسلامي . وكان هـؤلاء « الرّوم » يلقـون حسن المعاملة من قبل الأمراء الأغالبة والفاطميين . ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم ـ مقابل دفع الجزية ـ من أن يحتلّوا مناصب إدارية هامّة ، وأن يُعْهَدَ إليهم بأعمال جليلة مثل ضرب النّقود وإدارة البناءات والقيـام بأعمال فنيّة ومعمارية وغيرها مِمّا سجله تاريخ أمراء إفريقية من أغالبة وفاطميين وصنهاجيين .

الوضع الجغرافي :

ليس لنا ـ مـع الأسف ـ المعلومـات التاريخيـة الكافية لتحديد

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبي طبع النجف الاشرف ١٩٣٩ ، وترجمة « فيات » طبع القاهرة ١٩٣٧ ـ و« البرابرة في القرن الحادي عشر (م) حسب كتاب اليعقوبي » لجورج مرسي ، المجلة الافريقيـة سنة ١٩٤١ صفحـات (٤٠ ـ ٤٥) .

إقليم « قمّودة » في العصور الوسطى بصفة مدقّقة . ومهما يكن فإنه بالإمكان القول بأنه كان يحدّها جنوبا إقليم « قفصة » وغربا إقليم « سبيبة » وشرقاً إقليم « صفاقس » . أما في الشمال والشمال الغربي فكان يحدّها إقليم « القيروان » .

وتخترق هذا الإقليم جادّتان رئيسيّتان : الاولى من الجنوب إلى الشمال الغربي ، والثانية من الشرق إلى الغرب . وتنتهي كلّ من الجادّتين إلى القيروان ، عاصمة إفريقية . وسنحاول مسايرة هاتين الجادّتين حتى نتعرّف على الحالة العامّة لهذه المنطقة ذاكرين كل مدينة أو قرية تعترضنا في هذه المسايرة . ولهذا سوف نساير الجادّة التي كان يسلكها الجغرافيون العرب المذكورون في أوّل هذا البحث ، وهي الجادّة الرّومانية القديمة التي تبتدىء من إقليم الواحات (قسطيلة قديما) والمارّة بقفصة (عاصمة الإقليم نفسه) والتي كانت تصل قديما إلى قرطاجنة . أما بعد الفتح الاسلامي فاصبحت تنتهي إلى القيروان.

تنتهي المرحلة الاولى عند « طرّاق » (أو طِراق - لا طوراق) التي توجد في منتصف الطريق بين قفصة والفجّ . ولم يذكر « طرّاق »

إلا البكري [١] . وكانت مشهورة بنسج الصوف وخاصّة بأنسجتها التي تعرف باسم « طرّاقي » . ولعلّ تلك الأنسجة هي التي تعرف عندنا اليوم باسم «الحائك » أو « البطّانية » . وقد بلغت شهرة هذه الانسجة أنها كانت تصدّر حتّى إلى مصر والمغرب . وقد بقي المصريون يستوردون تلك الأنسجة (الحائك والبطّانية) من قفصة ومن جربة إلى الحرب العالمية الأخيرة .

وحول مدينة « طرّاق » كانت تزرع الأشجار المثمرة (لوز - تين - مشمش) ويبيّن البكري [٢] بصفة خاصة أهمّية زراعة « الفستق » في هذه الجهة . أما تحديد موقع هذه المدينة فيمكن القول بأنها كانت في المكان الذي يسمّى اليوم « حوانيت الحوكة » إذ ربّما أطلق هذا الاسم على « طرّاق » القديمة لاشتهارها بذلك النّوع من النسيج .

---

(١) المسالك والممالك طبع الجزائر (١٨٥٧) صفحة ٤٧ .

× ذكرها كذلك الاستبصار صفحة ١٥٤ باسم طوارق قائلا : « ومن قصورها مدينة طوارق ، وهي في منتصف الطريق من قفصة إلى فجّ الحمار ، وأنت تريد القيروان ..»

(٢) المسالك صفحة ١٠١

و « حوانيت الحوكة » توجد قـرب هنشير « بُوعَلَم » مـا بين قفصـة و « ماجن [١] الفجّ » .

المرحلة الثانية من قفصة إلى « الفـجّ » . وقـد أطلـق عليه بعضهم « فجّ الحمـار » أو « فجّ الحمام » كما أورد ذلك ياقوت [٢] . وحول الفجّ توجد بساتين مثمرة تسقى بعناية وإحكام . و من « ماجن الفجّ » تتجه شمالا طريقٌ إلى قـرية « الهورية » [٣] . وهـذه القـرية ـ حسب كُتُب المسالك ـ هي آخر إقليم « قمّودة » [٤] . ونميل إلى القول بان الهورية هذه ليست إلاّ مدينة « تَلَابِتْ » القديمة . ومازلنا نسمع شيوخ المنطقة يطلقون على هذه الجهة لفظة « الهوري » .

وبالقرب من الهورية كانت مدينة « القاصرة » : والملاحـظ أن البكري لم يـذكر هـذه المدينـة . لكن ابن حوقـل ذكرهـا

× (١) فصيحها « ماجل » كلّ ماء في أصل جبل أو واد (عن المحيط) والماجن يطلق بافريقية على المخازن الارضية لتجميع مياه الامطار قصد الشراب أو الري .

(٢) معجم البلدان في مادة « طراق » .

(٣) في النـص الفـرنسي للمسالك كتبت غلطـا « Herouïa »
× والنص العربي كذلك صفحة ٧٥ طبع الجزائر ١٨٥٧ .

(٤) البكري صفحة ٧٥ .

في كتابه مرتين [١] . ولكن ما هو اسمها في العهد القديم ؟ [٢] هـذا ما نجهله . فهل نبحث عن آثارها في قصور « سيدي عيش » ؟ إنه مجرّد افتراض على كلّ حال .

وإذا اتجهنا شرقا من مدينة قفصة مع الجادّة الرئيسية فإننا ـ بعد مسيرة يوم من الفجّ ـ نصل إلى مدينة «مذكور» أو « مذكورة »[٣] عاصمة الإقليم [٤] . وقبل البكري بقرن أخبرنا ابن رُسْتُـــهْ في كتاب « الأعلاق النفيسة » أن إقليم قمّودة يحتـوي على عـدّة مدن عامرة وقصور [٥] . وفي هذه المدينة (مذكور) يسكن حاكم الإقليم . وبها

---

(١) صفحة ٦٧ .

× (٢) يجعل الادريسي مدينة « قاصرة » هي مدينة « مذكورة » الآتية (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس) طبع ليدن (١٨٦٤) صفحة ١٠٥ .

× (٣) في البكري (٧٥) وابن حوقـل (٩٢) طبع بيـروت أنها « مذكود » وفي كتاب البلدان (١٠٧) والادريسي ١٠٥ « مذكورة »

× (٤) كتاب البلدان لليعقوبي ص ١٠٨

(٥) صفحة ٣٤٩ × يقول ابن حوقل (ص ٩٢ ، ط بيروت) : وهي مدينات قريبة الاحوال ، وكانت قبل ثلاثين سنة في غاية الكمال فأتى عليهـا أبو يزيد مخلد بن كيداد الاباضي » .

جامع ، وحمّامات ، وأسواق ، ومساجد كثيرة ، وفنادق عدّة ، وآبار عذبة الماء ، بعيدة الرشاء . وحولهـا ثمار كثيرة من جميع الأصناف وأكثرها شجر التين . وهو يفوق تين إفريقية طيبا . ومنها يُحْمَل التّين زبيبا إلى القيروان ـ فيكون أعْلى من سائر التين ثمنا ، وأكثر طلبا . وهي في غابة من شجر التّين لا تظهر لمن قصدها حتى يبلغها .

ولكن أين كانت توجد مدينة « مذكور » ؟ يغلب على الظنّ أنها كانت في المناطق التي يوجد بها حاليا « سيدي علي بن عون » و « ماجن السماوي » و « السُّلَيْسِلة » إذ من المحتمل أنه لو يقع البحث في تلك المناطق لوجدت أنقاض عاصمة إقليم قمّودة . ولا يستبعَدُ أن تكون مدينة « مذكور » قد قامت مقام « سبيطلة » في إدارة السُّلَط المدنية والعسكرية إبّان الحكم العربي[1] .

وإذا واصلنا تتبّع هذه الجادّة الرئيسية نحو الشمال الشرقي فإننا نصل بعد مدينة « مذكور » إلى مدينة « جمونس » التي يطلق عليها البعض اسم « جمونس الصّابون » . وتعتبر مدينة « جمونس » ـ رغم صغرها ـ المدينة الثانية لهذا الإقليم . وقد كانت مدينة عامرة . وبها مياه عذبة . وهي في سَنَدِ جبلٍ ، حولَها رمل كثير ، وشجر الزّيتون . وبها جامع، وسوق عامرة، وحمّام . وفيها قصر كبير ، وهو

---

(١) انظر كتاب البلدان ص 108 .

مخـــزن لمؤنـة سكانهـا . وبها غـدير مـاء كبير . ولها قرى عامرة مفيدة [١] . ويقول المقدسي عنها « . . بناؤهم مدر ، وشربهم من آبار . . كثيرة التين والزيتون واللّوز » [٢]

كلّ هذا يحملنا على القول بأن « جمونس » هذه ليست سوى المكان المعروف باسم « بير الْحَفَيْ » في وقتنا هذا .

ونلاحظ هنا أنَّ ابن حوقل انفرد بذكر وجود قرية في هذه الجهة تسمَّى « نقاوص » . ونحن نشك في قراءة هذه الكلمة على هذا النحو [٣] . ومدينة « نقاوص » هذه توجد قرب « جمـونس » وتضاهيها قيمـةً . هذا كلّ ما ذكره لنا ابن حوقل عن « نقاوص » .

وفي الشمال الشرقي لبـلاد ڤمّـودة وعلى مسيرة يوم من « جمونس » توجد مدينة « مجدول » : وهـي بلدة كبيرة عامرة تشبه جمـونس ـ حسبما ذكر البكري ـ « ولها غدير يعرف ببحيرة مجدول منه شربهم

---

(١) عن البكري ص ٧٥

(٢) ص ٦٧

× (٣) في طبعة بيروت صفحة ٩٢ « نفايـض » ، ويقـول الادريسي صفحة ١٠٥ « .. ومدينة نقاوس ، ومدينه جمونس في الشرق منها .»

ولهم آبار كثيرة طيبة » . وحول « مجدول » يوجد عـــدد من البربر ينتمون إلى زناتة . ويخبرنا ابن الأثير [١] أنـه في سنة ٤٢٠ (١٠٢٩ م) انتقل الأمير الصّنهاجي إلى « مجدول » للقضاء على الفتنـة التي قـام بها برابرة زناتة هناك .

وإذا واصلنا طريقنـا من مجـدول نصل إلى « بني تمـام » التابعـة لإقليم القيروان ، والتي يبدو أنها « سيدي علي بن نصر الله » في الوقت الحاضر ، أو أبعـد منهـا قريبـا من الآثـار التي نجدهـا قـرب « بافيي / Pavillier » [٢] . ومن بعد ذلك نصل إلى القيروان .

وبعد أن تتبّعنا مسالك إقليم « قمودة » الذي كان يعرف في العهد البيزنطي باسم « تَكَمودا / Thacamuda » يبدو لي أنني لست في حاجة إلى التأكيد بأن تلك المدن والقرى المتحدّث عنهـا منذ الفتـح العربي

---

(١) ترجمة « فاقنـان » ص ٤٥٢ (×) وانظر الجـزء السابع صفحة ٣٣٧ (طبع القاهرة ١٣٥٣ هـ) وفيه أن اللقاء وقع بموضع يعرف بحمديس الصابون ، وذاك تحريف لجمونس الصابون .

× (٢) كان ذلك اسما لمحطة سكة الحديد التي تبعد حـوالي ٩ كلم عن « سيـدي علي بن نصر الله » . وقـد أصبحت الآن قرية ريفية تحمل اسم « منزل الطيب المهيري » .

إلى القرن الرّابع الهجري هي معالم قديمة يرجع تاريخ تأسيسها إلى العهد الرّوماني والعهد البيزنطي . ولكنّ هذا لا يمنع من القول بأنّ بعض تلك المدن تطوّرت في العهد العربي ، وأصبحت تحتلّ مكانة اقتصادية وعسكرية لم تعرفها في السابق . وهذا ما ينطبق ـ مثلا ـ على مدينة « مذكور » التي أصبحت عاصمة الإقليم عوض مدينة «سبيطلة» قديما [١] .

أمّا فيما يخص كتابة اسماء أغلب المدن المذكورة فقد تمّ ذلك نتيجةً لما قام به المؤرّخون العرب وأصحاب الطبقات من ذكر لبعض الشخصيات التي تنتسب لتلك المدن والقرى مثل : الطرّاقي، المذكوري ، الجمونسي . ولكن أسماء بعض المدن الأخرى ظلت محلّ شك مثل : قاصرة ونقاوص ،لأننا لم نجد ـ لحد الآن ـ الوثائق الكافية والصحيحة بشأنها .

× (١) جاء في كتاب البلدان لليعقوبي ص ١٠٨ « .. والمدينة العظمى التي ينزلها العامل في هذا الوقت « مذكورة » (مذكور) . والمدينة القديمة العظمى هي التي يقال لها سبيطلة » .

التنظيم الاداري :

قلنا في بداية البحث : إن إقليم قمّودة يكوّن إقليما من أقاليم إفريقية . وكان يدير هذا الإقليم « عامل » تابع للسلطة المركزية بالقيروان . ويعيّن هذا « العامل » من طرف الملك أو الأمير . وهو الذي يدير شؤون الإقليم الداخلية . و« العامل » بدوره يعيّن حكّام المقاطعات التابعة له ، على كلّ مقاطعة حاكم يسمّى « الخليفة » . وكان لكلّ مقاطعة مدينة رئيسية . أما سكان البوادي فكانوا يخضعون لحكم « المشائخ » الذين يختارهم منظوروهم بعد أن تتمّ تزكيتهم من طرف « العامل » .

وفي عاصمة كلّ إقليم يوجد قاضٍ مكلّف بالنظر في القضايا الجزائية والمالية .ويعيَّن هذا القاضي من قاضي القضاة بالقيروان . وللقاضي نوعٌ من الحرية في تصرّفاته ، فهو لايدخل تحت سلطة الوالي (العامل) . وفي عاصمة كلّ إقليم كانت توجد كتيبة من الجند تحت قيادة الوالي مكلّفة بحفظ الأمن والنظام داخل الإقليم. أما الاتصال بين سائر الأقاليم والحكومة المركزية فكان دائما ومستمرّا بواسطة « مصلحة البريد » التي كانت تتبع ديوان الجيش [1]. وكانت هذه المصلحة تشملُ

× (١) بساط العقيق ص ٤٩ ، طبع تونس ١٩٧٠

حَمَلة البريد من الفرسان والرّجالة : يُستَخدَمُ النوع الأول في المراسلات المستعجلة . أما النوع الثاني (الرّجالة) فيستعمل في المراسلات العادية .

الحالة الاقتصادية :

اتفق الرّحالة العرب من القرن الثالث، إلى القرن الخامس (٩ ـ ١١ م) على أن إقليم قمّودة كان من أكبر أقاليم إفريقية ثروةً . وأكّدوا أن عدد المدن التابعة لهذا الإقليم كان كبيرا ، وأنها كانت كلّها عامرة آهلة . وكان أغلب سكان هذه الجهة يشتغلون بالزراعة مع خاصّية تميّزهم عن غيرهم هي أنهم لم يكونوا من ذوي الثراء والثروات الكبيرة . وكانت تحيط بهذا الإقليم قلاع حصينة تصدّ عنه الاخطار ؛ فنجد مجّانةَ غربا وقفصة شرقا تحيط بهما أسوار حصينة إلى درجة جلبت الإعجاب .

ويرجع الازدهار الذي كانت تتمتع به هذه الجهة ـ أوّلا وبالذات ـ إلى الاستقرار والأمن اللّذين كانا يسودانها . وقد ركّز أسسَ ذلك

الأمن والاستقرار الامراءُ الأغالبةُ ومن أتى بعدهم من الحكّام، فتواصل ذلك الاستقرار إلى تاريخ غزوة بني هلال [١] .

وكان الشيء الذي جلب اهتمامَ الرّحالة المشارقة في ذلك العصر هو خلوّ هذا القطرمن كلّ ما من شأنه أن يمس بالأمن ، فذكروا كلّهم أنه في عهد الأغالبة كانت القوافل والتجار يسافرون إلى بلاد إفريقية في راحة بال واطمئنان .

ونحن نرى أن استقرار سكّان إفريقية في المدن العامرة وعدم وجود البَدْو الرّحل ـ إلّا في القليل النّادر ـ جعل الأغالبة يجدون سهولةً في فرض استتباب الأمن في هذه الجهة . والبَدْو الرّحل لم يظهروا في البلاد إلاّ بعد غزوة بني هلال ، إذ أن بني هلال سيغيّرون وجه البلاد، وسيقضون على المظاهر الحضارية فيها التي تمّ تشييدها خلال عدّة قرون . مما سيبيّن فيما يلي :

هندسة المياه الزراعية :

في عهد الأغالبة كانت أرض إفريقية تزرع بكامل العناية ، فقد

---

(١) انظر الحاشية رقم ٥ صفحة ٣١١

عمل الامراء على تشجيع الزراعة حتى يقوى الدخل القومي . وكانت معظم الضرائب تؤخذ عن المنتوج الزراعي . إنّنا لا نشك أنه طرأ على الازدهار الزراعي نقص في بعض الأحيان إلاّ أن ذلك كان نتيجة قوى طبيعية قاهرة لا يمكن التغلّب عليها .

وإنه بالامكان التساؤل عن العوامل التي ساعدت على ازدهار البلاد في عهد الأغالبة . لقد رأينا ـ فيما تقدم ـ أن العامل الأول وهو استتباب الأمن . وهناك عامل ثانٍ لا تقلّ أهمّيته عن العامل الأول وهو استعمال المياه واستغلالها إذ ذاك ؛ لأننا نوقن أن الأغالبة سنُّوا منهجاً حكيما للرِّي ، واهتموا بهذه الناحية اهتماما بالغا ناهيك أنهم كوّنوا إدارة قارّة لهذا الغرض يُديرها موظّف سامٍ عينّ للنظر في هذه المسالة هو « صاحب المياه » . كما كان يوجد في ذلك العصر « صاحب المعادن » . صحيح أننا لا نعلم على وجه التحديد الوظيفة التي كان يقوم بها صاحب المياه . لكن ـ فيما يبدو ـ هو مكلّف بتسيير كلّ الامور المتعلقة بالمياه سواء أكانت مياه شرب أو مياه سقي زراعي .

وقد عمل الأغالبة على صيانة وإصلاح الدواليب المائية القديمة التي تمّت في العهود القرطاجنية وا لرّومانية والبيزنطية . هذا بالاضافة إلى ما قاموا به هم أنفسهم من أعمال جليلة في ميدان الرّي وإنشاء

الدّواليب . وقد وجّه الأغـــالبة عناية خاصة للجهات التى لا تـــنزل فيها أمطار كافية للقيام ببعض الزراعات مثل جهات القيروان والساحل والسواسي وصفاقس وقمّودة . ومازلنا ـ إلى يومنا هـذا ـ نجـد بعض إنجازات الأغالبة التي أقيمت لجلب المياه . ويجـدر بنا هنا أنـ نخص بالذكر الأمير أحمد ، سادس أمراء الاغالبة ، لما أنجزه من عدد كبـير من الفسقيات وقنوات جلب المياه في جهات مختلفة من إفريقية .

لقد كان التوزيـع المحكم والعادل للمياه بين الجهـات ، المطابق في نفس الوقت للتعاليم الاسلامية والعادات العربيـة ، قـد مكّن هـذه البلاد من تحقيق أعظم نسبة في محاصيل الأرض وفي أرباحها . ولذلك يمكن القول ـ دون خشية او تناقض ـ أن الامراء الأغالبة أحبّوا الماء، وعرفوا كيف يجمّعونه ويوزّعونه لأغراض مادية وإنسانيـة في نفس الوقت . ألا يمكننا بعد كلّ هذا أن نقول : إن أمـــراء إفريقية لم يحـاولوا المحافظة على التقاليد القديمة في الرّي فقط، بل طـوّروا بذلـك الأســـاليب الشرقية في هـذا المضمار .

لقد قام صديقنا العلّامة « سولينياك / Solignac بدراسة قيّمة (١)

---

1) M. Solignac. Recherches sur les installations hydrantiques de Kairouan et des Steppes Tunisiennes du VII^eme au XI siècle (J-C) in « An. de l'Inst. d'Etudes Orient, d'Alger » Tome X, An. 1952. P.P. 5 à 273.

حول الهندسة المائية في عهد الأغالبة والفاطميين . وأورد إحصائية لأشغال الرّي التي تم إنجازها في العهود القديمة في مختلف جهات « بيزاسين / Byzacéne » . ثم بيّن بتدقيق ما قام به أمراء القيروان من أعمال جليلة لتوزيع المياه سواء كانت للشرب أو للرّي. وإذ لا يمكنني أن أقوم بعمل يضاهي ذلك البحث الجليل فإني أدعو القراء إلى الاطلاع على ذلك المصدر الهامّ مع تنبيههم إلى أهمية تلك الدراسة لكلّ من يهمّه التعرّف على مدى ازدهار هذه البلاد في ذلك العهد .

بقي أن نلاحظ أن الطريقة المستعملة في ذلك الوقت من طرف العرب ليست كلّها مأخوذة ـ كما يتبادر إلى أذهان البعض ـ عن الحضارات القديمة (الرّومانية والبيزنطية) وإنما قام المهندسون العرب القادمون من الشرق بوضع طرق جديدة للرّي لم تعرف من قبلُ.

الفلاحة وتربية الماشية :

في الفصل الذي تحدثت فيه عن جغرافية قمودة بيّنت مدى ازدهار الحياة الزراعية في هذه البلاد . وبيّنت أنه كانت توجد حول التجمّعات السكنية بساتين . بها ثمار كثيرة من جميع الأصناف :

زيتون ،تين ، لوز ، مشمش ، فستق ، . . الخ ، وأن هذا الازدهار الذي ما فتئنا نؤكد على وجوده متصل اتصالا وثيقا بأشغال الهندسة المائية وحسن توزيع المياه . والأعشاب التي تنتجها الأراضي الشرقية الشاسعة تكفي حاجيات قطعان الغنم كامل السنة. ونظراً لأهمية صناعة النسيج في بعض مدن قمّودة (طرّاق) يمكننا القول بأن تربية الأغنام كانت منتشرة في هذه الجهة . وممّا يؤكّد لنا ذلك الآن هو ازدهار صناعة « الزربية القطيفة » في هذه الجهة . وممّا تجدر ملاحظته أن « قمّودة » كانت مشهورة بنوع خاص من الخيول ؛ فمنذ عهد الأغالبة كانت هذه الجهة تمدّ الجيشَ بالخيول التي يحتاجها الفرسان . ويعلمنا ابن عذاري أن الأمير إبراهيم الثاني اشترى من سكان هذه الجهة سنة ٢٨٠ (٨١٣ م) الخيول التي يحتاج إليها حرسه الذي يضم خمسة آلاف سوداني .

عهد الانحطاط :

إن الازدهار الذي لاحظناه في إفريقية ـ لاسيما في الجهة التي خصصت لها هذه الدراسة ـ سرعان ما ناله التدهور والانحطاط بعد غزوة بني هلال التي اجتاحت إفريقية في القرن الخامس الهجري ؛

فقد كان من نتيجة تلك الغزوة أن دخلت البلاد في منعرج قادها إلى الفقر والخصاصة وتخريب المدن والقرى ، وفقدان مصالح الحضارة والتقدم. وخلال فترة الانقلابات والثورات التي تلت تلك الغزوة ظلت قُرى ومدن قمّودة تندرج نحو التدلّي والانحطاط لانعرف بالضبط متى خرجت منها ؛ فبالقضاء على استتباب الأَمن وعلى وفرة المنشآت المائية ، وبانتشار البدو الرّحل، وبهدم قنوات الرّي والفسقيات دخلت منطقة قمّودة فترة ركود تكاد تكون خالية من معالم الحياة البشرية والتقدم في الوقت الذي كانت فيه بقية جهات البلاد في حاجة إلى منتوجاتها المختلفة . وهكذا أصبحت منطقة قمّودة ـ بعد أن اكتسحها الهلاليون وعُدِم الأَمن فيها ـ لا تكاد تنتج إلاّ القليل مِمّا لا يكفي حاجة متساكنيها . بل انقلب الأَمر وأصبح أَهلها أنفسهم في أشد الحاجة إلى غيرهم ، وقد ساد بلادَهم الجدب ، وأصبحت أرضهم جرداء عديمةَ الإنتاج .

ولكنّ هذا الشلل الذي أصيبت به منطقة قمّودة لا يحسن استمراره بل ينبغي أن تلتحق الآن بركب بقية الجهات التونسية . ويمكن أن يتحقق ذلك بتعاون بين الحكومة وسكان الجهة ؛ فعلى الحكومة أن تبحث عن حلّ لمشكلة الرّي ، وعلى سكان الجهة أن يقوموا بمجهود كبير

معتمدين في ذلك على الوسائل العصرية . وبذلك يمكن أن تعود هذه المنطقة إلى ما كانت عليه من ازدهار في العصور السابقة ، ويلتحق خُمُس البلاد التونسية بالجهات الأُخرى [١] .

× (١) منذ أن نالت البلاد استقلالها سنة ١٩٥٦ اتجهت عناية حكومتنا الوطنية بهذه الجهة خاصة بعد إحداث « ديوان إحياء أراضي سيدي بوزيد » سنة ١٩٥٩ وقد أنجز هذا الديوان ما يلي :

أ) المناطق السقوية :

تمّ حفر ١٩ بئراً عميقة و ٥٠ بئراً سطحية تمكّن من ري مساحة تقدّر بـ : ١٣٠٩ هكتار تمّت تهيئتها ، وسيتواصل هذا البرنامج في مساحة أخرى تقدر بـ : ٥٠٠ هكتارا . كما تمّ بناء سدّ لاستغلال مياه الفيضانات بوادي الهشيم لريّ منطقة تقدر بـ : ٤٥٠٠ هكتار ، وسيتمّ إنجاز سدّ آخر بوادي الفكّة لري منطقة مساحتها ٤٥٠٠ هكتارا .

ب) مشاريع الاحياء الفلاحي :

الغراسات : تمّ غرس ١٣ ٩٧٨ هكتارا أشجاراً مثمرة ، وسيتواصل هذا البرنامج ليشمل مساحة تقدر بـ : ٣ ١٨٢ هكتارا .

تهيئة المراعي :

– غرست مساحة ١٢٠٠ هكتارا « هندي » أملس ، وسيتواصل هذا المشروع على مساحة ٤٢١ هكتارا .

– هيئت مساحة ١٠ ٠٠٠ هكتار للمراعي ، ويهدف المشروع إلى تهيئة ٢٣ ٨٦٧ هكتارا لنفس الغرض .



من البلاد التونسية

مدائن اضمحلت

من البلاد التونسية

تقديم

إن الفترة التاريخية الممتدة من القرن الثالث إلى الخامس الهجري (التاسع ـ الحادي عشر . م) تمثل أعظم فترات الازدهار العربي في البلاد التونسية ؛ فبعد مرور قرن ونصف من الصراع المتواصل لاخماد الفتن وإقرار السلم في البلاد أخذ الأمن يستتب ، وشرعت البلاد تشق طريقها نحو الازدهار . وأصبح السكان المكوّنون من أجناس مختلفة (بربر ، عرب ، أفارقة ، روم) ـ بعد خضوعهم لهذا الحكم الاسلامي الجديد ـ أصبحوا معتنقين لمبادىء الدين الاسلامي، متفهمين لمقاصده . وقد نتج عن ذلك أن الدين الاسلامي واللغة العربية أخذا في الانتشار شيئا فشيئا من القيروان إلى فيافي المغرب الاقصى .

وفي هذه الفترة التاريخية خضعت إفريقية لثلاث دول إسلامية هي :

١) الأغالبة . وهم أول الأمراء الذين أعلنـوا استقلالهم بالحـكم . وقد عُرفوا بحسن تسييرهم لشؤون البلاد ، وبالانجازات الكـبرى التي قاموا بها . وقـد استمر حكمهم لافريقية ما يزيد على المائة سنـــة (من ١٨٤ ﻫ إلى ٢٩٦ ﻫ) .

٢) الفاطميون الذين لم يقضوا بافريقية إلا نيفا وخمسين سنـــة انتقلوا بعدها إلى مصر ، واستولوا على الشرق الأدنى .

٣) الصنهاجيون (بنو زيري) وهم أمراء برابرة تَعرَّبوا . كانوا في أول أمرهم تابعين للفاطميين بمصر ، ثم استقلوا عنهم إلى أن جـاءت الزحفة الهلالية .

وكانت مدينة القيروان العربية النشأة عاصمةً لكلّ هذه الدول مما جعلها محطّ رحال الوافدين من كافة أنحاء إفريقية . وأصبحت بذلـك مركز التلاقي والانطلاق لأهمّ طرق المواصـلات . وقد تبـوّأت هـذه المدينة المكانة التي كانت تحتلهـا قرطاجنة في العهود السابقـة للفتـح العربي .

[واذا كانت مدينة القيروان ما تزال إلى اليوم مدينة قائمة الذّات ومن أهم المدن التونسية ـ رغم مـا تعرّضت له من أحـداث وانقطـاع صبغة عاصمة البلاد عنها ـ فإن هنالك مدنا عربيـة أخـرى كان لها مجد

ومنزلة مرموقان ، إلاّ أن أحداث الزمان عفت عليها فاندثرت تماما أو بقيت منها أطلال ، وذلك ما سنحاول بحثه فيما يلي] :

« مدينــــة باشو »

كان المسافر الذي يغادر مدينة تونس متجها إلى القيروان يسلك الجادّة التي تربط بين شمالي وجنوبي إفريقية القديمة . وقد استعمل هذه الجادّةَ منذ اكثر من ألفي سنة كلٌّ من القرطاجنيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب . وكانت هذه الجادّة تقاس بمسيرة « اليوم »وهي التي تدعى« مرحلة » حسب الذي كان معروفا في القديم. وتتفرع عن هذه الجادّة الرئيسية مختلف الطرق والمسالك الفرعية إلى بقية المدن والقرى الأخرى .

وبعد مغادرة تونس يصل المسافر إلى رادس (Maxula Radès قديما). وهي قرية هامة ، تقع فوق ربوة عالية ، حيث تقيم مجموعة قارة من الحراس . ومن هذه القرية كانت مراقبة الغادين والرائحين عبر خليج تونس وبحيرتها ، كما كانت تقع مراقبة طرق المواصلات المتجهة إلى داخل البلاد .

ويتابع المسافـــر طريقه ، وعلى يساره سهول مرناق الخصبة (فحص مرناق قديما) حيث تكثر الضيعات الصغيرةوالمزارع الفلاحية. ثم يعبر « وادي مليان » الذي لايبعد كثيرا عن رادس فوق جسر قوي بناه الأغالبـة . ويواصل المسافـر سيره حتى يصل « حامّة شريـك » (حمام الأنف حاليا) . وهي الحامّة المعروفة بمياهها الحـــارة ، والتي يقول عنها البكري حامة جَليلة مجرّبة النفـع [١] .

---

(١) (× المسالك ، ص : ٤٥) وتجدر الملاحظة بهذه المناسبـة أن « حمام الانف » كانت تعرف في العهد الروماني بـ : AQUAE . PASIANAE ثم بـ : NARO . ومن المحتمل أنها عرفت كذلك في عهد البيزنطيين . أما في العهد الاسلامي ، فأصبحت تعرف بالتسمية العربية : « الحمة » (أي العين الحارة) متبوعة باسم « شريك » (شبه جزيرة الرأس الطيب) وذلك تمييزا لها عن بقية الحامات الموجودة بافريقية خاصة حامة « الجريد » وحامة « قابس » . وحسب المالكي في رياض النفوس (٢ : ١٨١ ، ١٨٤) فانه كان يوجد حصن في حامة شريك بسفح الجبل (جبل بوقرنين) يسكنه العديدمن المرابطين ، وعلى الشاطىء من هذا المكان كان يوجـد ميناء تفصله عن الحصن مـنابت من السمار ، وكان البكري من قبل ذكر ربـاط حامة شريك ومرساها . كما تعرض إلى ذلـك الادريسي بعد مائة سنة (؟) وفي أيام التجـاني (ق / ٨ هجـري : ١٣ م) لم يبق أي أثر للقصر والمرسى إذ لم يسجل في رحلته أي أثر لذلك (ص : ٧) وأظن أن تسمية « حمام الإنف » لم تظهر إلا في القرون المتأخرة .

وبعد حامة شريك تبدأ أراضي شبه جزيرة شريك (الرأس الطيب أو الوطن القبلي حاليا) . وعند توغل المسافر في اتجاه الشمال الشرقي من هذه الجهة يمرّ على عدد كبير من القرى والضيعات تربطها طريق فرعية مع الجادّة الرئيسية في مركز «صلتان». وكانت صلتان في ذلك العهد مزدهرة تلتئم بها سوق أسبوعية، ويعيش حواليها بدو من أصل بربري « بَنُو صلتان » [١] .

وفي آخـــر اليوم يصل المسافر إلى « باشّو » أو بعبارة أدق « منزل باشو » عاصمة هذا الاقليم .

ولنتوقف قليلا عند هذه المدينة لدراسة خصائصها معتمدين في ذلك على المعلومات التاريخية والجغرافية التي أفادنا بها المؤرخون والجغرافيون العرب في القرون الوسطى [٢] .

---

(١) تعرّض المالكي قبل التجاني إلى منازل بني صلتان في رياض النفوس (٢ : ١٨٣) فوصفها بأنها : « فحوص مسيرة أميال » . وقد ملت كثيرا الى هذا الاسم دون اسم « بني زلتان » وهي تجزئة بربرية لمطماطة الموجودة جنوب تونس .

(٢) اعتمدت في هذه الدراسة على المصادر التالية : اليعقوبي : كتاب البلدان، طبعة النجف ١٣٣٧ / ١٩١٨ ، ابن حوقل ، طبعة : De Goeje 1873 ـ المقدسي : طبعة : Leide de Goeje ١٨٧٧ ، البكري : وصف افريقية ترجمة : De Slane ١٩١١ ـ الادريسي ترجمة : Dozy و De Goeje ـ ابن عذاري : البيان المغرب طبعة : Dozy و Leide ـ ابن الاثير : الكامل . طبعة مصر ـ التجاني : الرحلة طبعة تونس ١٣٤٥ / ١٩٢٧ .

ولنبدأ بما قاله البكري اعتمادا على المؤرخين الذين سبقوه .

يقول البكـري : « . . . وأم إقليم جزيرة شريك مـنزل باشو . وهي مدينة كبيرة آهلة ، بها جـامع ، وحمامات ، وثـلاث رحـاب ، وأسواق عامرة . وبها قصر احمد بن عيسى القائم على بني الأغلب . »[1]

واعتمادا على ابن حوقل نستـنتـج بأن منزل باشو كان تلتـئم فيـه أسواق كلّ شهر تحضر لأيام معلومة [2] .

أما المقدسي في « أحسن التقاسيم » فيذكر بأنها « بلا سور ، وبناؤهم مدر ، وشربهم من آبار منها سقي مزارعهم [3] » .

هذا هو بصفة عامة كلما يعلمنا به الجغرافيون العـرب عن « باشُو » في القرون الوسطى . إلاّ أنّه من حسن الحظ أن الرحالة أبا محمد عبد الله التجاني الذي تجول في المدن التونسية من الشمال إلى الجنوب سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٨ م) أمكن له أن ينميّ معلوماتنا عن « باشو » خاصة فيما يتعلق بآثارها ، فبعد أن تعرض إلى وصف مجمل لهذه المدينة نقلا عن البكري،

---

(١) المسالك ، ص : ٤٥

(٢) صورة الارض ، ص : ٤٩

(٣) أحسن التقاسيم ، ص : ٢٢٧

فإنه يروي لنا ـ نقلا عن ابن شدّاد ـ الأسباب التي من أجلها خـرِّبت هذه المدينة . وذلك أنه « ... لما نزل علي بن إسحاق على منزل باشو من الجزيرة ـ وهو على بعض يوم من تونس ـ ساله أهله الأمان فأمنهم. ودخل عسكره الى المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه ، وسلبوا أهلَه حتى ثيابَهـم التي تواريهم . وامتدت أيدي العبيد وجفاة الأعراب إلى البنات فاضطر أهـله الى الفـرار ، وفـرّوا باجمعهـم إلى تونس ، ونزلوا بين سُـورَيْها ، فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فـأهلكهم البرد والمـاء . وأحصِي منمات منهم بتونس ، فكانوا اثني عشر ألفا [١] .. » وقـد وقعت هـذه الحادثة سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) .

وقد وصف التجاني حالة باشو ـ عنـد زيارتـه لها ـ بقـوله : « وهـذا المـنزل الآن خــراب لم يبق منـه إلا مكانُه . ويقـال : إنّ عُمَـدَ الجامـع الذي كان بـه ، وشيء من الرخام المنجور المحكم الصنعـة نقلت في هـذا الزمان القريب إلى تونس ، فـأقيم عليها

---

(١) الرحلة ص : ١٠ ، ١١

جامـع قصبتها . . » (١) والشيء الذي يمكن استنتاجه من الخـبر الذي أورده التجاني عن باشو هو أنّ هذه المدينة التي خرّبت في القرن السادس الهجري صارت بقايا أبنيتها مَقْطَعا للحجارة . وأن الحفصيين استفادوا من ذلك عندما استعملوا أعمدتها في أول أثر معماري تركه لنا بنو حفص .

وملاحظة المقدسي من عدم وجـود أسوار تحمي هـذه المدينة من الغزوات والهجمات تجعلنا نتصور سهولة المآل المؤلم الذي صارت إليه تلك المدينة .

ولعلّه يجـــدر بنا الآن أن نحدد موقـع منزل باشو ملاحظين

---

(١) (× الرحلة ١٠) . المعروف أن جامع القصبـة بني سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) في عهد أول ملوك بني حفص (أبو زكرياء يحي) . ويعتبـر هـذا الجامع من أجمل معالم مدينة تونس إلى اليوم ، أما الاعمدة الاسطوانيـة الوارد ذكرها في نص التجاني فقد تكون استعملت سَنَـدا لبيت الصلاة بعد أن أزيلت أعمدته القديمة التي وقع تعويضها بالرخام الابيض ، كـذلك بنيت بأسلوب بسيط حفاظا ـ دون شك ـ على تناسق البناء ، حيث لم يقـع استعمال إلاّ سيقان الاعمدة فقط ، على أن ثلاثة أعمدة منهـا تحمل في أعلاهـا تيجـانا على نمط فاطمي أو صنهاجي واضح تذكرنا بما يشابهها في مدخل سيدي الغرياني ، وبما هو موجود في الجامع الاعظم بالقيروان (باب ريحانة) / جورج مارسيـيه ، مختصر الفن الاسلامي ، طبع باريس ١٩٢٦ ـ ١ : ١٥٥ وما بعدها .

ـ منذ البداية ـ أنّ سكان الرأس الطيب (الوطن القبلي) لا يعلمون شيئا عن هذه المدينة المندثرة ، ولم يعودوا يذكرون اسمها .

ولقد أمكن لي ـ بعد بحث طويل ـ تحديد موقع هـــذه المدينة اعتماداً على بعض الاثــار الهامــة التي توجد اليوم في المـكان المسمّى بـ « جديدة » والذي يقـع على بعد سبـع كيلومترات من الشمال الشرقي لمدينة « ڤرنبالية » بين خرائب قرية « الأخوين » ومحطة « بوعرقوب »

إنّ قرية « جديدة » تنطبق عليها انطباقا تامّا الرسوم القديمة التي وصلتنا ، فآثار الجامع المذكور ما تزال موجودة ركاماً بعد أن أزيلت أعمدته . ولم يبق من هذا الجامع إلاّ صومعته . وهي صومعة إسطوانية الشكل تشبه صومعتي قصر سوسة ورباط المنستير . وبذلك تكون هي الصومعة الثالثة من هذا الشكل في البلاد التونسية .

يبلغ طول برج هذه الصومعة عشرة أمتار تقريبا . وهـو مبني بالآجرّ الأحمر . أما قمّته فمؤطّرة بإفريز رقيق ابيض . ويوجد داخل الصومعـة درج ضيـق لولبيّ الشكل يمكّن المـؤذّنَ من الـصعـود إلى أعلى المئذنة للقيام بالأذان .

وترتكـز هـذه المئذنـة على أساس من الحجارة المنقوشـة ، مثمنّ الشكل ، يبلغ طوله مِتْرَيْن وعرضه خمسة أمتار .

والسؤال المتبادر هو : هل كان هذا الجامع « هيكلا » في العهـد القديم ، ثم أصبح بعد قـدوم العرب مسجدا جامعا كما يفترض ذلك « بلّسيه » (١) و « ڤيران » (٢) و « صـــلاح الدين » (٣) الذين زاروا كلّهم آثار قرية « جديدة » ؟ إنّ هـذا الافتراض يبدو لي غـير واضح وبعيد الاحتمال ، لأن الأغالبة كثيراً ما بنـوا بناءات تشبـه في أسلوبها البناء الروماني .

ومهما يكن فإن وجـود هـذه المئذنـة الاسطوانية الشكل دليـلٌ أثريّ هام ، لأنه يمكّننا من تحديـــد تاريخ تطور « منزل باشو» على سبيل التقريب . والغالب على الظنّ أنّ هذه المدينة نشأت وازدهـرت في عهد الدولة الأغلبية . وهذه النظرية تتفق مع المعلومات التي قدّمهـا لنا اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤) إذ نلاحظ أنـ اليعقوبي يـذكـر

---

(1) Pellissier, Descrip. de la Regence de Tunis, Paris, 18: 53. P: 68.

(2) Guérin. voy. arch. de la Reg. de Tunis, Paris. 1860, Tome II. P: 268.

(3): Saladin, Rapport. tome: I, P: 2

مدينة نوبة [١] في جزيرة شريك باعتبارها عاصمة هـذا الاقليم ، لأن عامل الجزيرة ينزل بها . ولا يذكـر اسم مدينة « باشو » بينما نجد الذين أتوا بعده (ابن حوقل ، المقدسي ، البكري) يذكرون أن مدينة باشو هي عاصمة هذا الاقليم .

(١ انظر عن موقع نوبة في جهة سيدي داود الدراسة القيمة التي كتبها السيّد ر. برنشفيك في المجلة التونسية ، الثلاثة الاشهر الثانية من سنة ١٩٣٥ (×) وفي اليعقوبي (طبع ليـدن ـ صفحة : ٣٤٨) . وعاملها ينـزل مدينة يقال لها « النواسـه »(في نسخة النواتية) بالقرب من اقليبية . ويحدد الادريسي موقع نوبـة بقوله : « .. من فم وادي تونس الى نوبـة ٧٠ ميـلا ، ويوازي نوبة في البحر الجامور الكبير والجامور الصغير ، وبينهما سبعة أميـال . ومن الجامور الكبير الى نوبة ١٢ ميلا . ومن نوبة رؤوسية إلى راس الخيمة ميـل واحد . » (المغرب وارض السودان ومصر والاندلس) مأخوذ من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الادريسي . طبع ليدن ١٨٦٤ ص : ١٢٤ . وفي مسالك البكري صفحـة : ٨٤ « ثم مرسى نوبـة في قبالته جزيرتان إحداهما تعرف بالجامور الكبير والاخرى بالجامـور الصغير . وهي أصغر ... » وقد كتبت فيه خطأ بونة بدل نوبة مما يرجى إصلاحـه . ومن جهة اخرى لا ندري السبب الذي جعل « دي سلان / De Slane » يعمد إلى تسمية « مرسى نوبة » بـ « مرسى الرأس الطيب » بينما اشتهر هذا الرأس الوارد ذكره باسم « راس آدار » وهو ما نجده دائمـا في المصادر العربية السابقـة.

وبهذه المناسبة أشير إلى أنه وقع اكتشاف مجموعة هامة من العملة (كنز) منذ حوالي عشرين سنة [المقال مكتوب سنة ١٩٥٠] على يدي جمع من العمّال بالقرب من « سيدي داود » وفي نفس المكان الذي كانت توجد بـه « نوبة » ويحتوي هذا الكنز على مئات الدراهم الفضية من العهد الاموي ضربت بافريقية والاندلـس والعـراق ، ويرجـع تاريخها إلى ما بين سنـة (١١٥ ـ ١٢٤ هـ ٧٣٢ ـ ٧٤٢ م) وكنت اشتريت البعض من تلـك القطع أحتفظ بهـا ضمن مجموعتي الخاصة .

ترى ما هي الأسباب التي جعلت الامراء الاغالبة يقرّرون نقل عاصمة هذا الاقليم من « نوبة » إلى « باشو » التي تبعـــد عنها بخمسة وسبعين كيلو مترا جوًّا ؟

من البديهي أن عمّال بني أمية بافريقية لم يختاروا « نوبة » لتزاحم مرسى تونس الحربي إلّا لأنها كانت المرفأ الشمالي الذي يساعدهم ـ أكثر من غيره ـ على الانطلاق في اتجاه جزر البحر الأبيض المتوسط خاصة إذا نظرنا إلى قِصَرِ المسافة التي تفصلها عن الجـــزر الوسطى الموجودة في هذا البحر (صقليـة ، مالطـة ، بنطالارية) . وهكذا يمكن القول بأن الغزوات البحرية الكبرى التي نظمها هؤلاء الامـراء ـ قبل مجيء الأغالبـة ـ خرجت من مـرسى تونس أو مرسى نوبـة .

وبما أن نوبـة لم تعـد تلعب دور المرسى الحـربي الرئيسي فإنهـا أصبحت غير صالحـة لئن تكون عاصمـة جزيرة شريك نظـراً إلى أنّ موقعهـا الجغـرافي ـ خاصة بُعْدها عن الطرق الرئيسية في البـــلاد ـ لم يسمح لها بأن تستمر عاصمة للاقليم . بينما نجـد « منزل باشو » القرية الفلاحية والواقعة على الجادة الرئيسية الرابطة بين الشمال والجنوب ـ تصبح عاصمة الاقليم لموقعها الاستراتيجي وصلاحها لئن تكون نقطة مراقبة لطرق المواصلات . وهكذا اجتمعت في « منزل باشو »

الاعتبارات السياسية والاقتصادية والحربية ممّا جعل الادارة المركزية تعتمد عليها للمسك بزمام الامور في البلاد .

وإنّ هذه الاعتبارات التي لفتت أنظار الامراء الاغالبة قديما هي التي نجدها تتجدّد في العصر الحديث ، في عهد الحماية الفرنسية ، فعندما فكّرت إدارة الحماية في البحث عن مركز يمكّنها من مراقبة جهة الرأس الطيب (الوطن القبلي) وقع اختيارها على قرية « ڤرنباليـــة » التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن باشّو ، لأنها تستجيب لنفس الحاجة التي استجابت لها « باشو » فيما مضى .

وعلى العموم فإن آثار « منزل باشو » - كما هي عليه الآن - بقيت تحتفظ بالمعالم التالية :

١) أنقاض المسجد الجامع الذي تحدثنا عنه آنفا .

٢) المئذنة وبرجها المذكور .

على أنه يمكن أن نتساءل عما إذا كانت المئذنة الاسطوانية الشكل ، والتي تختلف عن المآذن المربعة المعروفة في المغرب هل تعني شيئا ؟ ،

إنه بإمكاننا أن نقبل الرأي القائل بأن رباطات سوسة والمنستير تلعب دورَ المراقبة والرّصد . لكن إمكانيـة تطبيق ذلك على « باشـو »

مستبعدة . ذلك أنها توجد داخل البلاد . وتبعد ـ على الأقل ـ بنحو ثلاثين كيلو مترا عن شاطىء البحر . وهذا لا يمنع أن تكون المئذنة الاسطوانية تقوم بدور المرصد الذي كان يستعمل في الليل لتبادل المراسلات بالاشارات النّارية مع الرّباطات القريبة منها ، وخاصّة رباط « قصر الزيت ».وقد روى لنا الجغرافيون والمؤرخون بعض الأخبار التي تؤكد استعمالَ هذه الطريقة للاعلام السريع بحدوث أمر خطير ، أو اقتراب العدو ، أو النزول المحتمل للقراصنة في مكان معيّن من الشاطىء .

٣) حوض كبير لخزن المياه قائم الزاوية يقع شرقي الجامع وبالقرب منه ، يبلغ طوله حوالي سبعين مترا وعرضهُ ستةً وخمسين متراً وعمقهُ متريْن ونصفا ، ويبلغ سَمْك جداره مترا ونصفا .وكلّ متريْن من هذا الجدار تعضدهما سلسلة من الحجارة المنحوتة . وهو عمل جليل قام به الأغالبة إبّان حكمهم .

والغالب على الظن أنّ هذا الحوض بني لجلب المياه الخاصة باستهلاك المدينة ، إذ نجد على بُعْد كيلو مترين ـ غربي الحوض ـ آثاراً لقناة على وادي تبرنق .

٤) أنقاض حصن يغلب على ظنّ منقّبي الآثار أنه من الآثار

البيزنطية . وأنا أميل ـ شخصيا ـ إلى القـول بأن هذه الانقـاض هي أنقاض بلاط أو قصر لأَحمد بن عيسى ، الحاكم الأَغلبي الذي تمـرّد على أميره الأَغلبي ، كما يتبين لنا ذلك من قول البكري حسبما جاء فيه « وبها قصر أحمد بن عيسى القائم على ابن الاغلب » ص ٤٥ (١)

٥) مقبرة قديمة كبيرة تمتـدّ على مساحة هكتارين ـ على أقـل تقدير ـ تقـع جنوبي الجامـع وقرب ضريح « سيدي الحاج سليمان » مِمّا يحمل على القول بأن هذا المكان كان في العهـد القديم مقـبرة لسكان هذه المدينة المندثرة ، ولكنّنا لانجـد أي أثر يمكّننا من تحديـد تاريخ معيّن لذلك .

لقد أخذت هذه الآثار تُفْقَدُ شيئا فشيئا منذ أَن خرّبت مدينة « باشّـو » بالاضافة إلى ما أَصبحت عليه أنقاضُها كمادّة أساسية لفائـدة القرى المجاورة مثل قُرى الأَخوين وبلّي ونيانو .

وأسجل بأسف أنـه لم تُتَحْ لي زيارة تلك المنطقـة الاّ مؤخراً .

---

(١) يذكر صديقنا « برنشفيك » اعتمادا على النويري « أن الثورة التي اندلعت في البلاد ضدّ إبراهيم الثاني سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٢ م) كان ابن أبي احمد هو قائد ثورة جزيرة شريك » (١٥٥ : م Rev. Tunis. op. cit. P. : 155)
ويبدو لي أن هذا محتمل .

وقد بُوغِتُّ عندما وجدت أَن المئذنة التي تحدثت عنها سابقا لم يبق منها أَي أَثر ، فقد أُزيلت تماما من طرف الجنود الالمان سنة ١٩٤٢ عند احتلالهم للبلاد التونسية . وأَعلمني بعض سكّان الجهة أَن فرقة من الجنود الالمان هدمت برج المئذنة من أَساسه بواسطة المفرقعات ، وذلك مخافة أَن يستعمله « الحلفاء » لاعطاء بعض الاشارات . وهذا أَمر يدعو الى الأَسف ، لأَن ذلك حرمنا من أَحد الآثار الهامّة يجدر الاهتمام بدراسته .

ومن حسن الحظ أَننا عثرنا على بعض الصور التي أُخذت لذلك البرج قبل تهديمه . وهي وإن كانت غير واضحة كما ينبغي ، إلا أَنّها تمكّننا من استنتاج بعض المعلومات .

***

قبل قدوم العرب بقرون يبدو أنه كانت توَجد في موقع « باشّو » مدينة رومانية تسمّى « آدْ مركوريوم / Ad Marcurium » وقد أَكّد ذلك « تيسُّو / Tissot » الذي اهتم بدراسة هذه المنطقة . يقول عن ذلك « .. إن مدينة « مركوريوم » توجد مكانَ قرية « جديدة » المهجورة منذ ما يزيد على القرن ، حيث توجد آثار لقرية قديمة . أما هيكل

« مركور / Marcure » الذي يقع فوق أحد التلال ـ حيث توجد آثار جامع كبير ـ فان بقايا هذا المعبد الوثني استعملت في بناء الجامع نفسه . كما تشهد بذلك بعض الأعمدة التي وجدناها فيه . » (١) .

ولكن الذي يدعو إلى الدهشة بحق هو أن « تيسو » الذي كان على علم بما جاء في كتب الجغرافيين العرب ، والتي يستعملها مصادر في بحوثه ، لم يتفطن الى أنّ ما سمّاه هو « آد مركوريوم » هي مدينة « باشو » نفسها .

ومهما يكن من أمر فانّه وجدت حول هذه المدينة ، التي أعتقد أنها قديمة، مجموعة من بقايا قرى رومانية مثل «عين تبرنق / Tubernac » على بعض كيلو مترات جنوب غربي باشّو . وفي الجنوب توجد « فينا / Vina » في هنشير المعبد قرب « الأربعين » وأخيرا « سيناقو / SINAGO » أو « قصر الزيت » عند العرب في بئر بورقبة حاليا .

ويتضح من كل ما تقدم أن « باشو » التي كانت مدينة فلاحية هامة ـ في أول عهد الدولة الأغلبية ـ أصبحت فيما بعد تحتل مكانة أهم إذ أصبحت عاصمة إقليم جزيرة شريك . وقد ظلت هذه المدينة

---

(1) : Tissot. Geogr. vol II, P : 128, Atlas arch. Fo 129 (Grombalia) .

ـ طيلة ثلاثة قرون ـ في ازدهار كبير ، تزينها البنايات الضخمة خاصة كانت أو عامّة .

وابتداء من غزوة بني هلال أخذت هذه المدينة في التدهور بعد أن دخلت البلاد كلّها في التّدهور و الانحطاط حتى انتهت مدينة « باشو » إلى قرية فقيرة بلا أسوار تحميها . وصمدت بعض الوقت أمام الأحداث، إلاّ أن قدوم الموحدين في القرن السادس الهجري (الثالث عشر . م.) أسدل عليها الستار نهائيا .

ولم يكن هذا المصير المظلم يخص « باشو » وحدها ، بل نجد ـ للأسف ـ أن عدداً لا بأس به من مدن إفريقية ظلت مزدهرة عدة قرون ، ثم انتهت إلى مصير « باشو » للأسباب نفسها : فقدان الأمن ، وانعدام الاستقرار في مركزية الحكم .

إبّيانـــة

يذكر المؤرخون الذين أوردوا أخبارا عن البعثات العربية لفتح إفريقية أن « فحص مرناق » الذي يقع جنوب شرقي مدينة تونس عرف عهدا زاهرا . ويتفق هؤلاء المؤرخون على وجود عدد كبير

من القرى في سهول « فحص مرناق » . بل يذهب البعض منهم إلى القول بأن عدد هذه القرى بلغ ثلاثمائة وستين قرية [١] ولكن بدون أن يذكر أي واحد منهم أسماء تلك القرى .

ونحن لا نشك أن سهول مرناق كانت - منذ العهد القديم - آهلة بالسكان ، ومستغلة استغلالا فلاحيا طيبا نظرا لخصوبة أرضها ، ولقلة عمق طبقات مياهها الجوفية ، ونظرا لقربها من قرطاجنة (عاصمة إفريقية قبل الفتح العربي) .

وإذا حدّثنا الجغرافيون والمؤرخون العرب عن تلك القرى فإنما يعنون بذلك مزارع بها مجموعات سكنية متفرقة حسب المفهوم الروماني « Les Villas et Cella des Romains » وكلمة « قرية » التي تستعمل في العربية في معنى المزرعة يمكن أن تؤكّد تلك النظرية التي قلتها قبل حين .

والمؤرخون - وإن لم يذكروا لنا أسماء بعض تلك القرى - إلاّ أننا نعرف اسم واحدة منها - على الأقل - بقيت موجودة إلى حدود

---

(١) البكري (ص : ٣٧) « ... فاشترط عليه المنازل التي بين الجبلين التي يقال لها فحص مرناق . وهي إذ ذاك ثلاثمائة وستون قرية . »

النصف الأَول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر مسيحي) وهي قرية « إبّيانة » .

وبفضل الخشني [١] في طبقات علماء إفريقية [٢] استطعنا أن نحدد موقع هذه القرية أثناء حديثه عن قاضي القيروان (عبد الله بن أحمد بن طالب) ويذكر لنا الاسباب التي جعلت إبراهيم بن أحمد الأغلبي يعزل [٣] ابن طالب عن خطة القضاء فيما يلي : « ... وكان السبب في ذلك أن إبراهيم بن أحمد طلب من أهل إبّيانة (في الأصل لسانه) قرية تجاور تونس أن يبتيعوها منه فأبوا عليه فقهرهم عليها وأدخل فيها السودان ، فتطاول بعض السودان على بعض بنات أهلها ، فافتضها ، فأتت أمُّها بثوبها بما فيه من أثر دمها ، فرمته في حجر القاضي ابن طالب وأخبرته الخبر ، فتفجع . ثم قال لمن حضره :

× (١) في الاصل « أبو العرب »

(٢) تحقيق ابن أبي الشنب ص : ٢٢٨ النص العربي . والملاحظ أن خطأ من الناسخ جعل ابيانة تكتب « لسانه » ولكن ابن ناجي في المعالم (٢ : ١٢١) ذكر الاسم صحيحا .

(٣) كان ذلك سنة ٢٧٥ هـ عن ابن عذاري (١ : ١٢١) .

ما أظن هذا الرجل يؤمن بالله ولا بيوم الحساب ، فبلغ ذلك إبراهيم ، فكان من أمره فيه ما كان . . [١] » .

وبامكاننا أن نربط هذه الحادثة بالحملة الانتقامية التي قام بها إبراهيم الثاني سنة ٢٨٠ هـ (٨١٣ م) ضد جهة تونس [٢] .

ومهما يكن من أمر فنحن واثقون أن هـذه القرية أنجبت أحد القضاة المالكيين المشهورين هو أبو العباس عبد الله بن أحمد التميمي الأبّيـاني المولود سنة ٢٥٣ والمتوفّى سنة ٣٥٢ [٣] (٨٦٧ ـ ٩٦٤ م) [٤] .

والقـاضي عيـاض عندمـا ترجم للأبّيـاني في كتابه « المدارك »

---

(١) آثارنا تقل نص الطبقات ، ص : ٢٢٨ .

(٢) ابن عذاري . (١ : ١١٧)

× (٣) رواية ثانية في المدارك عن المالكي انه توفي سنة احـدى وسين (طبع بيروت ٣ : ٣٥٢) والديباج صفحة ١٣٦

(٤) انـظـر ترجمتـه في المـدارك ورقـة ١٦٦ ومـا بعـدهـا ، ((×) ومطبوعة بيروت (٣ : ٣٤٧ ، ٣٥٢) ولم يصلنا من مؤلفات هـذا الفقيه الجليل إلا رسالة هامة هي « رسالة مسائل السماسرة » أحتفظ بنسخة منها في مكتبتي آمل أن أنشرها يوما . ولها اختصار أثبتـه الونشريسي في كتاب المعيار × [وكذلك ابن راشد القفصي في كتاب الفائق] .

ذكر طريقين في ضبط اسم الابّياني « فقال : بكسر الهمزة وتشديد الباء . ويقال : صوابه تخفيفها »

وفي مدخل فحص مرناق أي بعد اجتياز قنطرة « وادي مليان » توجد على يمين المتوجه الى حمّام الأنف قبّة تعرف عند سكان الجهة بضريح « سيدي أحمد الابياني » . وفي هذا المكان بالذات دفن العالم المذكور أبو العباس عبد الله بن أحمد الابّياني . أما اسم « أحمد » الذي أطلق عليه خطأ من سكّان المنطقة فلعلهم استوحوه من كنية « أبو العباس » التي تصاحب غالبا اسم « أحمد » .

والمنطقة التي توجد بها القبة المذكورة تسمى اليوم « الخريبة » تصغير « خربة » مما يؤكد أنه كان يوجد تجمّع سكني في هذا المكان من قبل . وإلى جانب القبّة توجد بعض البناءات السكنية يعود تاريخ بنائها إلى قرنين تقريباً . وهي تعرف اليوم باسم « برج الخلّادي » وهو اسم أحد مالكي تلك الأرض في العصر الحديث . وتوجد قرب القبة مقبرة مستعملة الى اليوم . وفي نهايتها توجد أنقاض حوض للماء . وعلى بعد ثلاثين مترا جنوب القبة توجد بئر عظيمة ، يبدو من بنائها الضخم أنها بنيت في العهد الأغلبي خاصة أن أنصاف عقود القباب

ما زالت موجودة . وعلى بعد خمسين مترا ـ شرقا ـ نجد بعض آثار ذات حيطان ضخمة .

والذي يبدو أن هذا المكان كان يمثّل وسط القرية القديمة . ويؤكد فلاحو المنطقة أنهم ـ أثناء الحرث ـ كثيرا ما يجدون آثار بعض الأسس ، وعقود القباب ، وقنوات المياه .

والسؤال الوارد هو : ما هو الاسم القديم لاّبيانة ؟ .

إننا نميل إلى أنها كانت تسمى في القديم باسم « فيبيانا : vibiana » وهي أسقفية إفريقية قديمة لم يقع تحديد موقعها إلى الآن . [١] وإن التقارب بين الاسمين (إبّيانة و vibiana) واضح خاصة إذا علمنا أن الحرفين اللّاتينيين V و U كثيرا ما يتشابهان في النطق اللاتيني ؛ فمن الممكن ـ إذن ـ أن يكون اسمها في القديم فيبيانا أو وِيبيانه (Vibiana, ou Uibiana) . وهذا مجرد افتراض نترك تحقيقه للمنقبين عن الآثار والمتخصصين في اللغة اللاتينية .

(1 - P. Mesnage, l'Afr. chret) Paris , 1912 . P. 234

تَبْصَـه

من بين نُسّاك إفريقيـــة وزهّـادهـا الذين ذكرهم المـالـكي في « رياض النفوس »[١] الناسك المتعبّد أبو السري واصل ، وهو ناسك عاش في القرن الثالث الهجري توفي سنة ٢٩٤ هـ (ق . ٩٠ . م) . يقول المالكي متحدثا عنه (.. ومنهم أبو السري واصل المتعبّد بقصر قفصـة وهو الحصن الذي يقال له في هذا الوقت « الديماس » ..) .

إنّ هذا التفسير (الديماس) الذي قدّمـه لنا المـالكي يوضح بعض الأمور . ذلك أن اسم « قفصـة » نرجح أنه جـــاء غلطا من الناسخ

---

(١) كتاب « رياض النفوس » تأليف محمد بن عبد الله المالكي القيرواني المتوفى سنة ٤٣٨ (١٠٤٧ م) وهو كتاب يعنى بطبقات علمـاء وزهاد القيروان توجد منه نسختان مخطوطتـان إحداهما بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢١٥٣ ، والنسخة الثانية تشمل النصف الاخير من الكتاب توجد بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤ ، وقد اطلعت على كل من النسختين ، وقد نشر عنه دراسة تحليلية السيد هـ ، إدريس في مجلة الدراسات الاسلامية لسنـة ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ (×) طبع القسم الاول من الكتاب في القـاهرة سنـة ١٩٥١ (م) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، وقدم له المرحوم ح ،ح ، عبد الوهاب ،

طالما أن الرباطات بافريقية كانت كلها على سواحل البحر بينما مدينة قفصة توجد داخل البلاد وبعيدة جدا عن الشاطىء .

وبما أننا نعرف بالضبط موقع « الديماس » فإنه يمكننا تحديد موقع هذا الرباط ؛ فالديماس يوجد قريبا من قرية « البقالطة » في منتصف الطريق الرابطة بين المنستير والمهدية حيث ما تزال آثار قصر (رباط) مقام على أنقاض مدينة رومانية قديمة تعرف باسم تبصة (Thapsus ou Thapsa) [١] .

ونحن نعلم أنه في هذا المكان التاريخي وقعت المعركة المشهورة بين « يوليوس » قيصر وبين « شيبيون » الموالي لـ « بومبي » .

أما اسم « تبسوس : Thapsus » هذا فقد يكون هو الذي أصبح « تَبْصَة » وذكره المالكي مع تحريف النسّاخ له [٢] . ويظهر أن طريقة

---

(1) S. Gsell, Hist. anc. de l'Afr. du N. vol II, P. 133, et vol. XIII, P. 123, aussi atlas arch. de la Tunisie (fo Moknine).

(٢) النسختان الموجودتان من الكتاب شرقيتان ، وقد استبدل النساخ حرف (ت) بحرف (ق) وحرف (ب) بحرف (ف) .

نقل العرب لاسم هذا المكان كانت موافقة للطريقة المتبعة منهم أثناء فتوحاتهم [١]

وقد بقي هذا المكان يعرف باسم «تَبْصة» إلى آخر العهد الاغلبي . والأغلب على الظن أنه أصبح يعرف باسم « الديماس » في عهد الصنهاجيين ، وهو العهد الذي عاش فيه المالكي . وظل هذا الاسم معروفا إلى يومنا هذا .

و كلمة « الديماس » أخذها العرب عن اللفظة اليونانية« Thermos » التي تعني مع الكلمة التي اشتقت منها « داموس » الحمّام [٢]. ثم تطوّرت الكلمة وأصبحت تعني القباب والاروقة والأبنية المقوسة .

ومن واجبنا أن نذكر هنا بأنّه في هذا المكان المسمى بـ « الديماس » نزلت جيوش روجير الثاني النّرمندي القادمة من صقلية في حملة عسكرية ضد المهدية سنة ٥١٧ (١١٣٧ م .) وقد أشاد ابن حمديس ، الشاعر

---

(١) انظر البحث الذي كتبته عن الاسم العربي لاسم « Byzacène » في المجلة التونسية ، عدد : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ صفحة ١٩٩ .

(٢) في ابن عبد الحكم (النص العربي من طبعه توري صفحة ٩٦) «.. ان حمامات الرّوم كانت ديماسات كبارا ... »

الصقلي ، في قصيدة رائعة بانتصار آخر ملوك صنهاجة (الحسن بن علي) على الملك النرمندي في واقعة الديماس هذه [١] .

من كل ما تقدّم يحسن بنا أن نقرّ بأن « تبصة » وجدت في خريطة إفريقية منذ الفتح العربي ؛ وأنها عُرفت باسم « تَبْصة » . وبعد بضعة قرون تغيّر اسمها فاصبحت تعرف باسم « الديماس » .

وأترك للمختصين في اللغة البربرية تحديد معنى « تبصة » التي تقرب تسميتها من « تبسَّة » و « تيفاش » وغيرهما .

---

(١) انظر ديوان ابن حمديس طبع رومة سنة ١٨٩٨ .

لمحة عن المهدية الفاطمية

مهدى الى سكان المهدية

أحباب قلبي إنْ شطّ المزارُ بكم — فأنتُم في صميم القلب سكّان
فكيف ننساكم يوما لبعدكم — عنّا وأشخاصكم للعين إنسان

لمحـــة عـن المهديـة الفاطميـــة

سانحـــة (I)

عواصم الحكم في القطر التونسي ثلاث :

١ ـ القيروان ، هي أم القرى الاسلاميـة ومبعث الروح العربيـة في المغرب الكبير والأندلس . دام الحكم بها قرنين ونصفا هما عصر الفخر بالسيادة والسيطرة والفتوح على النصف الغربي من البحر المتوسط ، وبانبثاق نور الثقافة العربية .

٢ ـ المهدية ، عاصمة الفواطم ، ومرفأ الأساطيل التي دوخت قـــارة الافرنج الشمالية حينا من الدهر ، وامتـــد سلطانها من السوس الى الحجاز وإلى اليمن .

٣ ـ تونس عاصمة إفريقية منـــذ أكثر من ثمانية قرون أي من سنـة الأخماس ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) الى يوم الناس هذا .

سانحـــة (II)

ذكريات ردّد الدّهر صداها . . .

يفارق المسافر عاصمة تونس قاصداً المهدية فيمرّ طبعا بأغلب قرى الساحل الى أن يصل « طبلبـة » حيث ضريح الشيخ عبد العـزيز بن عياش المربي الصوفي الكبير . ثم يستمـر في الطريق فيـترك عن شمالـه قرية « البقالطة » وبرأس ديماسها مرفأ « تبصة » الفيـنـيقية . وبعدها تحاذيه عن شماله أيضا مزارع خضراء تمتد طول الطـريق بانحـدار الى البحر وبها مقاثىء لفواكه الصيف من قرع وبطيخ ودلاع وغيرها ... وما من مقثاة الاّ بها كلب لحراسة تلك الفواكه .

ويمر المسافر بعدها قريبا من « ميانش » حيث توجـد فسقيتان كانتا تمونان المهدية بالماء الصالح للشراب بواسطة قنـــاة من الرصاص تجري تحت الارض نحو أربعة أميال . وما زالت آثارها تـــدرك هنا

وهناك . وأخيرا يصل مسافرنا إلى قرية لطيفة هي « هيبون » (*) ومنها يلتحق مباشرة بمدخل المهدية حيث « باب الفتـــوح » ويسمى الآن بـ « السقيفة الكحلة » . وأمام «رحبة النعمة» ومقابل باب الفتوح مسجد قديم (سيدي مطير الآن) كان محمد المازري ـ المجتهد المالكي ودفين المنستير ـ يقرىء فيه الحديث والفقه . وهناك أملى كتابه «المعلم في شرح حديث مسلم » في هذا المصلّى .

يجتاز المسافر من باب الفتوح غربيّ البلد فيقطع سقيفة طويلة سقفها مدموس ، وبها حنيات تحفّها مقاعد . وهذا الممر يفرش أيام الأعراس بالرمل الأصفر لتقع على سطحه ألعاب المصارعة بين شبان القرى المجاورة كرجيش،وهيبون،ولُلِيانة،والأكواش . والاخيرتان قريتان تسكنهما بقايا عساكر « البوشناق » من الحامية التي رسمها الأتراك في البلاد .

وعندما يخرج من هذه السقيفة التي هي في الحقيقة القسم الأسفل من أكبر حصن للبلد ، يجد القادم طريقا موصلا رأسا الى قصر عبيد الله المهدي (مؤسس المدينة سنة ٣٠٠ هـ) فيشقّ شارعاً تحف

(*) اسم هيبون هو عندي « HIPPONE » أي اسطبل الخيل ، والتسمية بيزنطية ويقابله في بلاد الجزائر HIPPONE « بونة » وتسمى الآن عنّابة ، و « HIPPO Zeritos » اسم بنزرت قديما .

جوانبه الآن دكاكين ومخازن للبيع والشراء، وحوانيت لجلوس الأعيان .

وأول ما يصل إلى « بطحاء السوق » ، وبها جامع خطبة حنفي، هي من مشاريع بعض أفاضل الحامية . وبها بعض المقاهي التي يعمرها غالبا صيادو السمك . ومنها يخرج هؤلاء ليلًا للصيد البحري . ولذلك تظل هذه المقاهي مفتوحة طول الليل .

ويستأنف المسافر السير قليلا فيلتحق ببطحاء كبيرة أخرى هي صرّة البلد تسمى « رحبة العيد » من أجل الخيام التي كانت ترسم فيها في مناسبات الموسم . وهناك الجامع الكبير ، جامع عبيد الله المهدي ، بناه على الأرض التي رَدَمها من البحر من الناحية القِبْلية لتتسع بقدر النصف رقعة شبه جزيرة المهدية . وأول الأمر كانت هذه الجزيرة تسمى في اصطلاح الأقدمين « جَمّة » وحرْف الجيم هنا قاف معقودة (Gamma) قلَبها العرب زمن الفتح الى حرف جيم على عادتهم في تعريبهم الأسماء الفنيقية والبربرية في إفريقية التونسية [1] .

---

(١) قال العرب : باجة وهي « باقة » وقالوا « جرجير » اسم الوالي البيزنطي وهو (قرقور) وقالوا بجردة أو مجردة للنهر التونسي الكبير وهو بقردة وهلمّ جرًّا .

وواجهة الجامع الكبير الشمالية هي من أقدم المعالم العبيدية . وعلى طرازها الهندسي أقيمت غالب المعالم الفاطمية بالقاهرة المعزية بمصر مثل باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر ، وجامع الحاكم بأمر الله.

ومن الغريب أن قسيسا بلجيكيا (l'abbé de Smet) كان يقيم بالمهدية . وخطر بباله أن يكتب رسالة في تاريخ البلد فجاء فيها أن النرمانديين لما امتلكوا المدينة أقاموا بواجهة جامعها الكبير تماثيل للسيدة مريم العذراء ولبعض القديسين النصارى . وليس هذا الكلام من باب التوهّم بل هو من باب الجهل بالفن المعماري العربي ؛ فمن عهد قريب عثر على المحراب الأصلي الذي وضعه عبيد الله للجامع ، وهو منقوش على الحجر الذي يتألف منه سائر سور البلد . وسنعود إلى ذكره . وفي صحن الجامع المتسع من ناحيته الشرقية يوجد خزّان كبير جدًّا للماء المجلوب من « ميانش » المذكورة .

وبجانب الخزان كان محل آلات رفع الماء الى قصور الامراء . وهذا المحل استخدِم في العهد المتأخر إدارة للقضاء الشرعي . وكانت إحدى قاعاته مستديرة . ومنها ـ فيما يظهر ـ كان الدولاب الذي يصعّد الماء ، لأن القصور في ارتفاع غير قليل بالنسبة لباقي الجزيرة . وبقرب

هذا المحل كانت « دار المحاسبات » وإن شئت قل " وزارة المال » وهي تصل في نظري الى سكنى « دار كوشطة " .

يخرج الزائر من البوّابة الكبيرة للجامع ، ويقطع الرحبة قاصداً الجهة الشرقية فيمر على منازل السكان محاذيا لساحل البحر الى أن يصل إلى بطحاء كبيرة فتواجهه بناية عظيمة الشأن مرتفعة البنيان هي قصر عبيد الله المهدي ، ويسمى الآن « البرج الكبير » .

تحورت هذه البناية الضخمة لدرجة يصعب الادراك بأنها كانت مسكن عبيد الله المهدي ، مزاحم بني العباس في الخلافة الاسلامية ، والقابض على ناصية المغرب الكبير .

فالأبواب الأصلية للقصر طمست وعوضت بمدخل حقير فتحه الأتراك حين استيلاء " درغوث باشا " على المدينة . و من جملتها سقيفةٌ لا طراز فنّي لها . وبالداخل براح محجوز منه ركن كان بلا شك مُعَدًّا لدفن الأُمراء الفاطميين . إلا أن التاريخ يفيدنا بأن المعزّ لدين الله لما انتقل الى مصر أمر برفع جثث أموات عائلته الى القاهرة حيث دفنوا بمقربة من جامع الحاكم بأمر الله ، سادس أمرائهم .

أمّا قبر جوهر مؤسس القاهرة فهو موجود في ركن من الجامع الأزهر معروف مشهور .

أما القسم الأعلى من القصر فلم يبق منه سوى بعض الجدران . وقد شغلت الجندرمة الفرنسية ـ مدة الحماية ـ هذا القسم ، وأقامت به غرفا سكنها أفرادها ، وهي في غاية الحقارة .

والقسم السفلي الباقي فيه قاعة طولها عشرون مترا أو أكثر مدموسة السقف . والظن الغالب أنها كانت إحدى قاعات القبول (التشريفات) مما يعرف في المغرب الأقصى وكذلك في الاندلس باسم « المشور » أي محل مشورة ومخابرات الخليفة مع رجال دولته ، وكذلك قبول سفراء الدول وأعيان الرؤساء . ومن المضحكات المبكيات أن يصير هذا المشور العظيم سجنا لوالي البلد . وفي أرضيته المبلطة بعض الحصر الحقيرة للمساجين مما يذكّر بالأَبلق والسدير

رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكا من تزاحم الأضداد

وجملة ما يقال عن قصر المهدي أن جدْرانه الخارجية ما زالت قائمة ، وتعطينا فكرة عن عظمة القصر الخليفي . وأمام القصر ميدان متسع كان يمتد الى القصر الذي ابتناه المهدي لابنه وخليفته « القائم بأمر الله » . ويوجد شيء من بقاياه في مخازن يملكها بعض الحمزوات . وكان أجرى هناك بعض الحفريات البسيطة جدًّا فكشفت عن سطوح مغشاة بالفسيفساء العربية ذات لونين . والصور التي تغشاها

هي باقات زهور في غاية الروعة والجمال . وليس بينها وبين الفسيفساء البيزنطية نسب . وقد وُضِعَتْ قطعٌ مما عثر عليه بالقسم العربي من المتحف القومي بباردو .

وقد غفلت أن أذكر أنَّ بشرقي قصر المهدي يوجد عدد كبير جداً من المواجل والجباب لخزن الماء الضروري لكلّ سكان المدينة . ومن هنا يتبيّن أن الخليفة الفاطمي الأول كان يتوقع بعد وفاته أن يحاصر بعض الثائرين المهدية . وقد وقع ذلك بالفعل في مدة استيلاء ابنه نزار الملقّب « القائم بالله » وكاد الملك الفاطمي ينهدم من أصله على يد مَخْلَد بن كَيْدَاد الملقّب بـ « صاحب الحمار » لولا مناصرة قبائل كتامة وصنهاجة للخليفة القائم ، وهو ابنه إسماعيل المنصور الذي قاد الجيوش في ظروف صعبة جداً . وتتبَّع « صاحب الحمار » وعصاباته البربرية القوية الى أن ظفر نهائيا به في بعض جبال « الاوراس » فقاده في موكب رهيب إلى المهدية حيث لقي حتفه ، ووُضِعَ في قفص فوق جمل وأمامه قِرْدٌ يلاعبه .

ولنترك قليلا القصرين العظيمين وميدانهما لنتدرج نزولا الى الناحية الجنوبية حيث نلقى مرفأ البلد . وهذا المرسى كان من أبدع منشآت المهدي . وكانه أراد أن يستغني به عن مرفأ سوسة الحربي

الذي أسسه الأغالبة ، ويجعل مرسى مدينته المحدثة أحصنَ الحصون لأساطيله القوية .

هناك اختار المهدي مكان المرفا ، وكان قطعةً من الحجر الصلد فامر أن ينقر بالفؤوس والمعاول إلى أن جعله حوضا واحداً . وكان عمق مائه نحوا من اثني عشر مترا . ثم إنه أقام على مدخل المرسى سلسلة من حديد يُرفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت تَحَصُّناً للمرسى من مهاجمة مراكب الروم .

وبعد هذا ابتنى ـ عندما ينتهي المرفأ ـ « دار الصناعة » لإنشاء السفن . يقول أبو عبيد البكري : « وهي من أعاجيب الدنيا » .

ولما كنتُ بالمهدية طلبتُ من إدارة الأشغال العامة الاذن لنائبها هناك باستعمال آلة قيس الأعماق ، فكانت النتيجة أن عمق بحيرة المرسى يزيد على اثني عشر مترا .

أما امتداد المرسى ودار الصناعة فكان ـ حسب تقديري ـ عشر مرات مساحتها الظاهرة اليوم . ولا ننسى أنها كانت تحوي ثلاثمائة سفينة حسبما ذكره جغرافيو العرب المعاصرون .

وبفضل هذه المنشأة البديعة وتوابعها أمكن للفاطميين شحن المراكب الحربية ذات الشان بالجنود وتسييرها ـ تحت قيادة

يعقـوب بن إسحـاق ـ إلى قـلاع عديدة من قـارة أروبا مثل جنـوة وكورسيكا وسردانيا وغيرها من المراسي الكبيرة ، وغنم ما كانت تحويه من ذخيرة وعتاد . وبذلك علا صيت الافريقيين في البحر ، وخشيتهم إفرنـج السواحل . ولم ينل الاسطـول الاسلامي بعـد ذلك مـا ناله من السمعة والشهرة في تلك المدة . وتوالت فتـوحات الاسطول المهـدوي وغزواته على سواحل العدوة الافرنجية ، فشحن « إسماعيل المنصور » ثالث خلفاء بني عبيد أسطولا أمّـر عليـه « القائد رشيـق » فأُتيـح له فتـحٌ كبير . وقد يدّعي بعض بحارة المهدية أن الباب المصفّح بالحديـد الذي كان على مدخل المدينة ربما يُرى في قعر البحر أيام الصحـو . ولا أدري نصيـب هذه الرواية من الصحة .

والمحقق هو أنه عثر منذ خمسين سنة تقريبا في عمق بحر المهدية على مركب يوناني قد غمر نصفه الرمل وبقي نصفه الآخر في الماء وهـو من جملة مراكب كان قد شحنها بعض قُـوّاد الرّومان حين استيـلائهم على مدينة « أثينة » عاصمة الاغريـق . وكل ما وجد من التحف الغاليـة والأعلاق النفيسة وسقوها الى عاصمة بلادهم « رومة » لتوشيـح بيوتهم الخصوصية بتلك الأعـلاق التي لا نظـير لها عندهم . ومن جمـلة السفن المشحونة تلك التي غرقت أمام المهدية لهيجان البحر وتلاطم أمواجـه

فبقيت هناك ما يقـرب من ألفي عـام حتى عثر عليها بعض غوّاصـة صيادي الاسفنـج (النشاف) من رعايا اليونان ، فاعتـنت بذلك إدارة الآثار وحوّلت ما أمكن تحويله الى المتحف القومي بباردو .

وهذه التحف تعدُّ من مفاخر المتحف بل أنفس ما يوجد فيـه من الآثار لبراعة صنعها وجمال هندامها .

وإذا قصد الزائر بعد ذلك أقصى الناحية الشرقيـة حيثُ نُصب المنـار ، الذي يرشد المراكب ليلا للابتعاد خوفا من الاصطـدام برأس إفريقية، يصل إلى حيث كان يوجد صرح عال مستقل يتـتبع من أعلاه حارسه مرور المراكب بعرض البحر . وقد رأيت شخصيا بقايا أنقاضه المتهدمة . ثم أقيم عليه المنار المعروف هنالك .

رابع الفاطميين : هو « معد » الملقّب بالمعزّ لدين الله أشهر الملوك في زمانه وأبعدهم صيتا . تولى بعد أبيه إسماعيل المنصور . وقد حذق العلوم واللغـات الاجنـبية السائرة وقتـئـذ كالبربرية والافريقيـة واللاتـينيـة . واشتهرت دولتـه برجال أفـذاذ ساعـدوه على امتلاك جل العالم العربي في زمانه .

ومن أشهر هؤلاء الأفذاذ القائد « جوهر » الذي ابتـدأ بالاستيلاء على سائر المغرب إلى حدّه الأقصى ؛ فقد ثبـت تاريخيا أن جوهـرا لما

بلغ في فتوحه « بحر الظلمات » وهو ما نسميه الآن بالمحيط الأطلنطي أمر بعض أتباعه بصيد أفخر أنواع أسماكه حيًّا ، ثم جعل ذلك الصيد في خوابي كبيرة من الفخار ، وأضاف اليها من ماء البحر ما جعل العيش في وسطه ممكنا ، وبادر جوهر بارسال الخوابي إلى مولاه المعز لدين الله. وبعد مدة بلغت الخوابي مدينة المهديـة حاملةً لأصناف أسماك المحيط ، فأكل منها الخليفة المعز وآل بيته وحرمُهُ ورجالُ دولته . ولم يُسْمَعْ بمثل هذا الصنيع في ما مضى من التاريخ .

وبعد ما انتهى المعز من امتلاك المغرب بأسره حوّلَ اتجاهه إلى الشرق الاسلامي ، وعين قائده المبخات جوهرا لهذه المهمة العظمى سنة ٣٥٨ (٩٦٩ م) لِمَا يعلم من اضطراب أحوال مصر واختلال أُمورها بعـد وفـاة « كافـور الاخشيدي » . وكان جـانب كبير من رجـالات الاخشيديين على اتصال بالمعز محرضين له على امتلاك بلادهم . وما كاد خبر مسير جوهر يصل الى العساكر الاخشيدية حتى تفرقوا هاربين ، فدخل مصر بدون مقاومة،وخطب لسيّده المعز . واختط بهذه المناسبة مدينة « القاهرة المعزية » إعلانا لانتصاره . وقد ترك مدينة « الفسطاط » التي كان أنشأها القائد الأموي عمرو بن العاص عند الفتح الأول سنـة ٢٠ .

وإلى هذا الحـــادث يشير شاعر المعز « محمد بن هانىء » المهدوي الأَصل ، الأَندلسي الانتقال حيث يقول من طالع قصيدة غراء :

تقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟
فقل لبني العباس : قـــد قضي الأَمرُ .

انتقـال الفاطميين الى مصر :

وتقدم جوهر بجيوشه الافريقية الى امتلاك البلاد الشامية فاستولى على الرّملة من بلاد فلسطين ، ثم على دمشق عاصمة الشام سنـــة ٣٥٩ (٩٧٠ م) .

ولما ورد خـبر هـذا الفتـح الجليل إلى المعـز لدين الله عـزم على الانتقال الى المشرق . وهي الغاية التي كان يرمي اليهـا بنـو عبيد من يوم انتصابهم في ملك إفريقية ، فأخذ يرتب شؤون مملكتـه المتسعة الأَطراف فاستخلف على إفريقية والمغرب الامـير الصنهاجي بُلُكّـين بن زيري وأقرّ بقية الولاة على أعمالهـم .

ثم تجهز للرحيل فأعـدّ ألف حمـل من الذهب جعلها كالأَرحية وضعها على ظهور الابـل وأمر ببنـاء قصر في كل ثلاثين ميلا مـا بين

القيروان ومصر . ومـا زالت آثار تلـك القصور ظاهـرة في صحراء طرابلس وبرقة . وكان خروجه من « صبرة المنصورية » بأهله وجنده وذخائره في احتفال لم يسمـع بمثله .

ونزل بالقاهرة المعزية التي أنشأها قائده جوهـر في رمضـان سنة ٣٦٢ (٩٧٣ م) فكانت مقرّ ملكه وملك الخلفاء الفاطميين من بعـده الى آخر دولتهم (*) .

صنع الزجـاج بالمهدية :

في فضاء وراء مقبرة الجالية الافرنجية بالمهديـة يوجـد أثر بنـاية تـشبه في شكلها « القمـع » . وهو في الواقـع فرن لصنع أدوات البلور كالقـنيـنات (Les fioles) بأشكال مختلفة ومتغايرة لخزن العطورات والإثمد للعيون والأدوية وغير ذلك .

والواقف على ذلك الفرن يلاحظ أن بجنباتـه قطعـا سـال عليها

(*) تولى بعد المعز عشرة خلفاء فاطميين ، من سنـة ٣٦٥ الى ٥٦٧ هـ لم نأت على أخبارهم هنا إذ كانت دولتهم في غير المهدية .

الزجاج فألصقها بحجارة وصارت تلمع . وليس من شك أن المادة المستعملة هي « الكارتز »[١] .

ومن بين الجهات التونسية التي كانت مشهورة بصنع الزجاج ناحية « طرّة » من بلاد نفزاوة وذلك فيما يظهر لوجود الكارتز بكثرة هناك .

ولقد عثرتُ بفرن المهدية على قنينتين أو ثلاث مكسورة أو معطوبة فوضعتُها ببعض متاحفنا للفنون الاسلامية . وكان في أملي أن أُجري حفرية بمكان « قصر قراضة » حذو ضريح الشيخ « ابن عيّاضة » لما توقعت من الكشف عن بعض التحف الفاطمية هناك فلم يساعف القدر على هذه الحفرية .

ولم تنقطع عند أهل المهدية عادات موروثة يقيناً عن العصر الفاطمي وخصوصا عند النساء ـ والمرأة عنصر التقليد والمحافظة ـ فمن ذلك طبيخ يسمى « المريس » وهو المعروف بـ « الزرير » في مدينة تونس ، وهو خليط من الابزار والبهارات حارّ الطبيعة يُعْطَى

× (١) هو المَرو (حجر صواني أهمه ذرات الرمال) عن معجم المصطلحات الاثرية ليحيى الخشاب ص ٢٩٩

للمرأة النُّفَسَاء بعد وضعها ليعين على الطمث وإزالة ما بقي من الدماء في بطنها ٠

وأهمّ ما ورثت النساء عن أمهاتهن من ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحرير على البدل الداخلية مثل « القمجّة » وغيرها ٠ ومنها أنواع من الوشاح والحواشي الحريرية المزركشة بألوان متغايرة . ومن هذه الحواشي تحلّي صدور بعض اللباس النسائي ، وهي تحفة فنية . وفي لباس عرائس المهدية ما يدل دلالة قطعية أن هذا الهندام متوارث من عهد الفاطميين ٠ وقد قلده الكثير من نساء بقية بلدان القطر التونسي إذ كانت المهدية عاصمة القطر الكبرى ٠ وكذلك ما يجري من التقاليد والعادات في المهدية في الأفراح وفي المآتم وفي المناسبات الكبيرة في الحياة الاجتماعية ٠ ومن يتتبع بالتفصيل ويكون له إلمام بالتاريخ الماضي وتقاليده يَرَ العَجَب ٠

زار أحد علماء الآثار من الفرنسيين جهة المهدية بعد نصب الحماية بخمس أو ست سنين فما شاهده بأحواز المدينة بناية فاطمية في غاية الحسن والاتقان تعرف باسم « برج عَرِيف » وبداخلها كتابات كوفية في نهاية الجمال ٠ وقد نقل لنا ذلك الاثري صورة ما فضل من البناية ٠ ولما كنتُ بالمهدية اعتنيت عناية خاصة

بالبحث عن هذا الأثر البديع ، وزرت مكانه مرات متكررة ولم أعثر له على بقية ولو كانت ضئيلة ، واستفدت بالقاء السـؤال على شيـوخ الناحية أن حجارة « برج عريف » هذا رفعها سكان قَرْيَتَيْ « الاكواش » لبناء محلات سكنى جديدة لهم فأدخلوها في جدران ديارهم ، وقد غاب أثرها غيابا كاملا بكل أسف ،

جهـم وجمـة :

مكانان في قطرنا يعرفان باسم "جهم" و « جمة » ، أما الأول فهو كائن على شط بلد « سليمان» ويسمى بـ « قصر جهم » وثانيهما هـو اسم المهدية قديما ، وكانت تعرف بـ « جمة » وفي كلتا الكلمتين حرف الجيم كان ينطق بها قافا معقودة (g) . وهكذا في كل الاعلام الجغرافيـة كان حرف (g) يستحيل دائمـا الى (j) ، وبناء على هـذه القاعدة فإن اسم جمة القديم للمهدية كان يلتفظ به « ڤمَّة » ولا أدري ان كان هذا اسم فيـنـيقـي او أنـه بربري الأصل ، وأميل ـ شخصيا ـ الى أنـــه فينيقي ، ويدلّ على ذلك سقالة المرسى القديم الموجود أمام دار المرحوم إبراهيم بن زينب ، وهي عبارة عن صخور عظيمة الشان طول الواحدة منها مترين تقريبا ، ويمتـــد في البحر ما بين الخمسة والعشرين الى

الثلاثين مترا . وهذه الصنعة ليست بعربية، لأن مرسى الفاطميين كان في الناحية الجنوبية المقابلة لا في الجهـة الشماليـة . ولا أعتقـد أنها من صنيع البربر لعجزهم عن إحداث مرفا من هذا الشكل . وكل شغلهم كان الصيد البـري . أما أسوار المدينة فكانت بلا ريب أحصن ما تحصنت به مدينة في البحر المتوسط فيما عدا بيزنطة .

وتقدم أن ذكرت أن عبيد الله المهـدي ـ عند شروعه في البنـاء ـ ردم جانبا من البحر أسس فيه الجامع وخزّانه الكبير ، وما يلاصقـه لرفع الماء الى جهة قصور السكنى بدواليب ذات صنعة فنية . وأحاط جُدْران الجامع من جهة البحر برصيف متين جـدّا ليتحمّل تـلاطـم الأمواج .

وتقدم أن ذكرت أن القسم الذي ردمه المهدي من البحر لا تقلّ مساحته عن نصف شبه جزيرة جمّة . ومن هنا يُدْرَك ما قام به المهدي من العمل الجبّار .

ومن الصور الزيتية التي رسمها أحد فناني الاسبان في القرن السادس عشر الميلادي للمهدية يدرك الانسانُ العظمةَ المدهشةَ لحصانة المدينة خصوصا من ناحية مدخلها الوحيد (باب الفتوح) أي « السقيفة الكحلة » وكانت الابراج متراصة .

وبلغني من الثقة ، وهو المرحوم الشيخ حسن بن حمـودة ، مفتي المهدية - وكان صديقا لوالدي عليهما الرضوان من الله - انه أراد مـرة إصلاح الدار التي يسكنها بالقرب من البرج الكبير (أي قصر المهدي) فلما نزل بالاصلاح الى الجُدْران السفلية وجـد بيتا قديما مصبوغـا بأدهان عجيبة عليها كتابات كوفية لم يفهمها لقلّة عنايته بالخــط الكوفي ، فعفـي على الجميع ، وأفسد البنّاؤون تلك الزخـارف والكتابات ؛ فلم يبق لها أثر .

وليس من شك أن قصر عبيد الله المهدي كانت تمتـدُّ أطرافـه الى قسم كبير من ناحية دار ابن رمضان الكبرى في المدينة ، فلولا جبـاب الماء وأهراء الطعام التي احتاط بها المهدي من كلّ مهاجمة على مدينته لما كان ابنه القائم يستطيع مقاومة صاحب الحمار كما مرّ ذكره .

يلاحظ المتتبع لسور المهدية أنه كان من العظمـة والجلال مـا لم يكن يشاهد في أي مدينة أخرى من مدائن إفريقية أو المغرب العربي ؛ فانّ ارتفاعه في الهواء كان يقرب من أحد عشر مترا إلى اثني عشر ، وأن عرض بناء السور كان لا يقـلّ عن ستة أمتار ؛ فمن الميسور أن يمشي ثلاثة من الفرسان بخيلهم على سطحه الأعلى . وهذا ما لانعرفه في مدينة إفريقية أخرى .

وفي زمان الصِّغَر كنّا نشاهد بعض الأَنقاض الباقية من السور ونصعد إلى سطحها الأعلى فوق الأَقواس التي تحملها . وكان عرض البحر يظهر لنا من بعيد .

زويـــلة

ومن تدبير عبيد الله المهدي السديد أَنْ جَعَل مدينته على قسمين منفصلين عن بعضهما انفصالا تامًّا :

فالأولى هي « المهدية » نفسها . وقد رسمها لسكناه . وبنى بها القصور ودوراً لآل بيته وكبار رجال دولته وكذا للجنود الحامية .

وأما المدينة الثانية فهي « زويلة » وهي على رمية سهم من الاولى . وبينهما مصلَّى العيدين المتقدم ، ثم الحِمَى . وهو يمتد كالميدان بين المدينتين .

وبنى بزويلة الفنادق وأسواق التجارات على اختلاف أصنافها وأنواعها . وأدار بها خنادقَ متسعةً تجتمع بها مياه الأَمطار فكانت « زويلة » كالرَّبض للمهدية .

وحِمَى زويلة كان محفوفا بجنّات معروشات وبساتين فيهـا سائر الثمار وأنواع الفواكه .

ولما افتكّ الأتراك المهدية من يد الاسبان ونصبـوا بها حاميتهم العسكرية المجلوبة من سائر مملكتهم المتسعة ، استقرّ أعيان تلك الحامية بمدينة المهدية في زمان الشتاء . واتخذوا بزويلة ديارا وحدائق وبساتين للمصيف . وهي من أمتـع البيوت لما يحيط بالمساكن ـ وتسمى الأبراج ـ من الأشجار المحملة بالفـواكه الشهية . ومـا من أفـاضل « الحزوات » الا من له برج تحيط به حديقة هناك .

وبزويلة يوجد مسجد عتيق يعود تاريخه إلى تـأسيس المدينـة كان نزل بـه « محمد بن تومرت » عنـد عودتـه من مزاولة العلوم بالمشرق .

كلمات عارضة

I ـ سكان المهدية اليوم يرجعون بأصولهم الى عناصر مختلفة؛ فَنَحْو النصف منهم من الجالية التركية التي نصبها درغوث باشا (طورغود) وصهره بيالي باشا في حصن المهـدية كما كانوا يسمّونه في القرن السادس عشر للميلاد .

وهذه الجالية تتركب من عناصر من بلاد الأناضول مثل الحمزوات، ومن أرناووط . يعني من سكان ألبانيا . ومن بينهم كلّ من ينتسب الى صَفَرَّات .

وهناك جماعة من بلاد « اللّاز »الواقعة على ساحل البحر الأسود ، ومنهم عائلة ابن رمضان و « لاز أوغلي » ، ومنهم جماعة وافرة من البوشناق ولهم قريتان صغيرتان تعرفان بـ « الأكــواش » على نحو ثلاثة كيلومترات من المهدية .

وبمرّ الزمان اختلطت الجالية التركية بعناصر أهلية من « زناتة » و « مصمودة » و « طرابلسية » .

ثم إن المصاهرات مع قاطني قرى الساحل مزجت كثيرا بين السكان .

ويقال إن أقدم العائلات المهدوية اللتي تصعد بأصلها الى زمن العبيديين عائلة « السبْخي » . وقد انتقلت في عصر خراب البلد الى سكنى السبخة التي بالقرب من هناك . ثم عــادت إلى المدينة بعد الاطمئنان .

11 ـ الحقّ أقول : اني أعرف المدائن التونسية من أقصى البلاد الى أدناها ، وأعرف من طباعِ أهاليها ما يكفي لكتابة تآليف مستقلّ .

وأعلم على الخصوص أنّ أهل المهدية من أكرم الناس للقاء الضيف والبرور به ، وبقِرَاه . وهم مكرمون للقادم عليهم ، مضيافون له من غير دعوى ولا ضجر .

ورأيت من حسن معاملتهم ولطافة أخلاقهم ـ وقد عاشرتهم دهرا طويلا ـ ما يجعلني أنسب اليهم الصراحة في القول ، واللّطف في المعاملة . وكأنها عادات موروثة عن أجدادهم الأتراك .

ولنتذكّر أن من بين أبناء المهدية شابا كان ممتازا برجحان العقل والعلم المتسع ، ونظرياته الفلسفية السديدة ، وهو الاستاذ المرحوم « الطاهر بن مصطفى صفر » الذي اشتهر بوطنيته المخلصة ، وصِدْقِ لهجته في خطبه الحماسية . وقد كان من ألصق الناس وأقربهم الى الزعيم المفدّى الرئيس الحبيب بورقيبة . وعاجلت المنيَّة الطاهرَ صفر في ريعان الشباب . لكن ذكره بقي خالدا في قلب كل وطني تونسي عرف صدقه .

ولا ننسى أيضا أن من بين شبابهم من ضحّى بنفسه في شأن إعلاء الوطن ، وأذكر منهم المرحوم « الجيلاني صفر » الذي خدم بلاده الى أن توفي مأسوفا عليه من كل السكان . على روحه الرحمة والرضوان.

وجانب كبير من رجال المهدية يحترفون بصيد السمك . وهم من

أعلم الناس بمعرفة أنواع الحيتان ووسائل صيدها ، إذ لكلّ منها طريقة خصوصية في التحيّل على أخذها .

III ـ ولأهل المهدية شغف باكل الحوت، فاذا مضت على المهدوي أيام ولم ياكله يصرّح بانه « قرم » أي اشتاق الى ذلك . على أن مادة « قرم » وضعت في أصلها العربي الى الشوق الى أكل اللحم لا أكل الحوت . ولكلّ وطن أوزانه وأرطاله . ثم إنهم لا ياكلون السمك إلاّ في فصل مخصص ويُعرضون عن أصناف أخرى .

وبيان ذلك أنهم يصطادون الحوت حين مروره ـ لأول مرة ـ أمام بلدهم متجها الى المحيط الاطلنطي للبيض ، فيكون حينئذ سمينا ولذيذا . وعند رجوعه من المحيط يكون مهزولا ، فهم يفرقون بين « ماشية الطلعة وماشية الرجعة »، وصيدهم الممتاز هو أن يخرجوا بفلائكهم ويقطعون الليل كله أو جله في السفر ، والصباحَ يصطادون كلَّ اليوم ، في الغالب غير بعيد عن جزيرة بنطلارية حيث توجد في البحر جبال لا يقلّ ارتفاعها عن ثلاثمائة متر . لكن صيدهم يكون للأسماك الغليظة التي تلتجيء الى مغارات من الجبل فتسكنها في عمق أربعين إلى ستين مترا . وهي تقتنص غيرها من صغار الحيتان . وهذه الأنواع هي « المنَّاني » و « الجغَّالي » و « المرجان » .

وربما يبلغ وزن الواحدة من المناني أو الجغالي العشرين والخمسة وعشرين كيلو . ولصيادي المهدية خبرة تامة بمحلّات تلك الجبال فيقصدونها ، ويقفون على سطحها بعد ما يسامتون بين نقطتين من البر . وهو ما يسمونه بـ « النيشان » .

كنتُ تعرّفتُ ـ مدة إقامتي هناك ـ بأرملة لها ثلاثة أولاد ، وكلّهم يشتغلون بالصيد البحري ؛ فحضر لدي يوما كبيرهم وتذمّر من سلوك أمّهم معهم إذ أنها تقبض كلّ ما يبيعون به صيدَهم اليومي ، وأنها ممتنعة كلّ الامتناع من إجابة رغبتهم في الزواج . واجتمعتُ بأمّهم في بيتي . ووجّهتُ لها اللّوم في سلوكها مع أولادها وهم رجال مجتهدون في عملهم ، فكان جوابها أنها اشترت بما تحصل لديها من مدخولهم زياتين بأسمائهم الثلاثة ، وأن كلّ ما يبيعون من السمك تضع ثمنه من الأوراق المالية في خابية أَعَدَّتها لذلك ، وأنها لو تساعدهم الآن على الزواج فسيتقاعسون عن العمل النافع ، وتشغلهم زوجاتهم عن مهنتهم المعتادة ويرغبون في إقامة البيوت . وهذا الأمر هو حاصل لا محالة لكن بعد حين ريثما تشتري لهم من غروس الزيتون ما يضمن لهم الحياة . وأخيرا طلبت مني أن أزورها في بيتها المتواضع حتى تحقق صدق قولها وصحة مفعولها .

والحق أنها أدهشتني بصواب منطقها ونظرها البعيد لما يعود على أبنائها بالخير العميم .

ومن الغد أقنعت ولدَها البكر ، وقد زارني ، بالاقتداء بعمل أمه التي لا تنوي لهم إلاّ النفع العاجل والخير الآجل .

فانظر - يا رعاك الله - الى صـــلاح الامهات وتقديرهن لما هو آت .

والمهدويات من أحرص النساء على نظافة أبدانهن وملبوسهن وأثاث بيوتهن . وذلك في المترفهات منهن والفقيرات بالسواء ؛ فالمرأة التي تسكن حارة « برج الرأس » تخرج صباحا من مسكنها محمّلة بالأَدباش من حُصُر وماعون وغير ذلك ، فمتى تصل الى البحر تاخذ في تنظيف الجميع بمائه الطّهور الى أن يصير ذلك كما تريد . ثم ترفع الجميع ، وتعود الى بيتها ، وقد قامت بالواجب المفروض عليها

* * *

١٧ - لأهل المهدية بعض اصطلاحات خاصة يستعملونها في كلامهم الجاري . وربما لا توجد عند غيرهم من سكان الآفاق .

فاذا سألت أحدهم : أين يوجد فلان من أبنـاء البلد ، يقـول لك « سرح » . ويقصدون بذلك أنه خرج إلى عمله المعتـاد سواء كان صيدَ السمك أو الاشتغال بضيعته . وليس لفعل « سرح » في العربيـة ولا في اللهجة التونسية هذا المعنى .

ويقولون : فلان « صوّب » بمعنى نزل ، مثل : صوّبتُ للسوق[1]. وذكرنا فيما تقدم أنهم يقولون « قرم » لمن اشتـــاق الى أكل السمك . والقرم في الحقيقة هو الرغبة الى تناول اللحم لا الحوت .

ومن يتـتبـع الكلام الجاري بينهم يجد غير ما ذكـرنا من شوارد اللغة « ولكل بلد عادة ، ولكل قوم ضادة » كما في المثل القديم .

---

(١) إن مثل هذه المصطلحات (صـوب ـ سرح ـ) موجـود في منـاطق أخرى من البلاد وبنفس المعنى .

العلاقات التونسية الايطالية

في العصـــور الوسطى

25 ورقات (ثالث)

العلاقات التونسية الايطالية في العصور الوسطى

* أتذكر أنني قلت مرّة : إنه لا توجد حدود بين تونس وايطاليا ، اللهم إلاّ هذا البحر الصغير الذي يفصلها . ولن أطلب دليلا على هذا غير ما يذكره الإخباريون الأفارقة الذين عاشوا في القرون الوسطى الاسلامية . ذلك أن مؤلفي التراجم القيروانية مثل المالكي ، والدبّاغ ، وابن ناجي ذكروا لنا أن الافارقة (أي سكان تونس الحالية) إذا أصابتهم سنواتُ جَدْبٍ وقلّةِ محصول من جراء انحباس الغيث وقلّة المرعى ، عمدوا إلى سفنهم ومراكبهم ونقلوا عليها حيوانهم من غنم ومعز وخيول وحتى الابل ، ثم اجتازوا هذا البحر الصغير للاقامة طيلة أشهر في صقلية المنتفعة بالأمطار أكثر من بلادنا . وهكذا فإن الأفارقة يعمدون الى الانتجاع في أرض مضيافة للابقاء على حيواناتهم . وإذا هل

---

* أصل البحث محاضرة القاها المرحوم حسن حسني عبدالوهاب بالمركز الثقافي الدولي بالحمامات يوم ٥ نوفمبر ١٩٦٢ أمام وفد من العلماء الايطاليين .

فصل الأمطار فإنهم يرجعون الى إفريقية وقد سلمت دوابُهم من موت محـقَّـق .

وهذا يدل على أن العلاقـات بين تونس وإيطاليا كانت ـ منـذ القرون الوسطى علاقات إنسانية تـتسم بحسن الجـوار . ونحن نأمـل أن تتواصل هذه العلاقات الطيبة المتينة القديمة حاضرا ومستقبلا مثلما كانت في الماضي . ونحن على يقين أيضا من بقائها على هذه الحال بفضل سياسة حكوماتنا الرشيدة ، وبفضل المواقف الأَخوية التي تربط منذ الأَحقاب بين شعبينا . ولا شـك أن هـذه الروابط ستعزز من أجـل الإبقاء على المصالح العليا للبحر المتوسط ، وهو الذي كان أول مركز للحضارة الانسانية .

وإذا رجعنـا الى تاريـخ القـرون الوسطى ، وحفظنـا أنفسنا من الانزلاق في السبل المطروقة بترديد أفكار مشاهير العلماء الذين سبقونا مثل « ميشال أمـاري / **Michel Amari** » وصديقي الـقـديم « كرلو الفونسو نالينو / **Carlo Alfonso Nallino** » أمكن لنا الاطلاع على ما كسبته البلدان من غُنم لا يجحـده جاحـد طيلة الأَربعـة قرون التي جعلت صقليـة (أي جنـوب إيطاليا) وتونس تخطان مصيرا مشتركا . ذلك أن كلّ من يهتم بتاريخ التبـادل الذي وُجـد بين العـالم

العربي وبين المسيحية في ذلك العهد يعتقد لا محالة أنه ـ منذ انبثاق الاسلام ـ كانت صقلية المسلمة بنصف سكانها والمسيحية بالنصف الآخر ، تعد « أرض تخلص » نشأ فيها الاتحاد ـ وكدت أقول الزواج ـ بين الشرق والغرب . وهي وحدة صعبة التحقيق ، كثيرا ما انفصمت عراها . ولكن مصلحة الامتين لا بد أن تصل ـ إن عاجلا أو آجلا ـ الى تغلب هذه الروح على الفرقة ، وإلى دفعهما الى الوفاق والتفاهم المتبادل .

وإن وثيقة تاريخية ـ كان لي الحظ في اكتشافها ضمن مخطوط عربي من القرن العاشر ـ تسمح لنا بابداء بعض الملاحظات حول نتائج الاحتلال العربي الأغلبي لصقلية وتأثيره في العلاقات الايطالية العربية أثناء تلك الفترة . ولقد وجدنا فيها ثلاثة أحداث أو أربعة تجعلنا نؤكد أن الادارة الأغلبية في ذلك العهد لم تَأْلُ جهدا في بث العُمران بالبادية الصقلية العارية آنذاك ، ونقلت النصارى من الجهات الآهلة الى الجهات الخالية فأوجد الأغالبة بذلك توازنا في العُمران ، ومكّنوا الجهات القاحلة من الازدهار . غير أن ما قام به الأغالبة لم يقتصر على هذا ، فقد كانوا أول من عَرّف بصناعة الكاغذ بصقلية ، ثم فيما بعد بجنوب ايطاليا .

وكلنا يعلم أن عرب المشرق ـ وبكلمة أدق العباسيين ـ هم الذين أخذوا في القرن الثامن المسيحي عن الصينيين هذه الصناعة . وانتقلت هذه الصناعة من بغداد الى دمشق ثم مصر . ولم يمض نصف قرن حتى استقرت بالقيروان .ثم نقلها الأغالبة بدورهم الى عاصمتهم بصقلية « بالرمو » في أواسط القرن التاسع المسيحي .

وكان الورق ـ في أول أمره ـ يصنع بالمصانع الأميرية .ثم خرج عنها ، وعبرت صناعته مضيق مسّينا ، لتظهر بـ « سالرنو / Salerne » ثم « فابريانو / Fabriano » حيث لم تنفك الى يومنا هذا آثار تقنيتها باقية . ومن هناك تصل الى نابولي وبولونيا في عهد ملوك النرمان . وكان من الطبيعي أن تنتقل هذه الصناعة الى ايطاليا الشمالية لتستقر بجرمانيا مما سيسمح بعد ذلك بقليل لـ « ڤوتنبرق » باختراع الطباعة .
ومما لا شك فيه أنه لولا الورق لما أمكن للطباعة أن تظهر . كما أنه تجدر الاشارة إلى أن ظهور الورق عن طريق إسبانيا وفرنسا لم يتم إلاّ بعد مرور قرن كامل على دخوله أوروبا الوسطى عن طريق إيطاليا .

وكانت هذه الظاهرة إحدى النتائج الاقتصادية الموفقة للروابط مع العالم الايطالي . وهكذا نجد أن أغلب الملوك الأغالبة ـ وخاصة

إبراهيم الثاني وابنه عبد الله وآخرهم زيادة الله الثالث ـ الذين حكموا صقلية وكانوا متصلين أشد الاتصال وأدومه بسكان الجزيرة النصارى ـ عرفوا اللغة اللاطينية ، وبصفة أدق اللاطينية في أواخر عهدها أو اللغة الافرنكية .

ويجدر أن نقرّ بأنهم وصلوا الى حذق هذه اللغة وإجادة استعمالها عند مخاطبة الصقليين . وهو ما نجده أكثر من مرة في الاخبار التونسية القديمة .

وكان إبراهيم الثاني ميّالا إلى روح البحث العلمي شغوفا به . ويظهر أنه عند تأسيسه لبيت الحكمة ـ في مقر إقامته الجديد برقّادة ـ اهتدى الى أمر طريف في حدّ ذاته ، فقد أمر بدعوة بعض « الرهبان النصارى » من صقلية وهم الوحيدون الذين كانوا يشتغلون بالعلوم القديمة ـ بغية تعريب جملة من التآليف في العلوم الطبيعية : الرياضيات، علم الفلك ، علم النبات ، الخ . . .

ولما استقر هؤلاء الرهبان في رقّادة انهمكوا في عملهم مستنجدين بعلماء اللغة العرب . ويظهر أن جملة من الكتب اللاطينية ترجمت بهذه الصفة الى العربية في ثوب أدبي . وإني أرى أن ترجمة رسالة « بلينوس الأصغر » في علم النبات يرجع الفضل في وجودها الى بيت

الحكمة . ذلك أن الجغرافي « ليون الافريقي » (الحسين الوزان سابقا) أخبرنا أنه رأى هذه الترجمة أثناء مروره بتونس في القرن الخامس عشر المسيحي .

وللاسف فإن المعطيات التي لدينا عن بيت الحكمة برقادة ، قرينة بيت الحكمة ببغداد العباسية ، قليلة ضحلة . ورغم ذلك فان المعلومات القليلة المتعلّقة بهذه الجامعة التونسية الاولى وبأثرها وإشعاعها تجعلنا نؤكد ـ عن اعتقاد راسخ ـ أهميتها . ولقد حاولت جمع الأخبار المتعلقة ببيت الحكمة في بحث أعددته لهذا الشان (١) .

وانتقلت عادة إتقان اللاطينية بعد الأغالبة الى الفاطميين ، اذ أن بعض الامراء منهم ـ وخاصة المعز لدين الله رابعهم ـ كانوا يتخاطبون بهذه اللغة مع حاشيتهم وفتيانهم الصقليين .

والمعروف أن عددا من الاميرات فى عهد بني زيري الصّنهاجيين كُنَّ من أصل إيطالي أو صقلي . وساقتصر هنا على ذكر حاضنة باديس الشهيرة . ونحن نعلم أن أفراد عائلتها القادمين معها إلى إفريقية كانوا كلهم صقليين وكاثوليكيين . ومقبرة النصارى القديمة بالقيروان كشفت

× (١) انظر : الورقات ج ١ من ص ١٩٢ الى ٢٢٧

لنا عن أسماء بعض أفراد عائلة حاضنة باديس بأتباعها . ولقد وُجد فيها ثلاثة أنصاب لقبور محررة باللاطينية .وهي الآن موضوع دراسة وبحث . وأتمنّى أن تكشف لنا نقائش أخرى من نفس النوع ، ومن نفس الفترة عن وضع هؤلاء النصارى القيروانيين المنحدرين من إيطاليا .

وكانت الأَميرة فاطمة التي اعتنقت الاسلام محبوبةً محترمةً من النخبة في ذلك الوقت . ولقد أهدت الى مدينة القيروان نفائس وأعلاقا نخص منها المصحف الجميل من الحجم المتوسط المكتوب على الرّق . وهو يعدُّ اليوم من نفائس جامع عقبة .

وبما أننا بصدد الحديث عن المبادلات الثقافية بين إيطاليا وتونس ، فإنه من المناسب التعرض الى الحياة الخصبة التي عاشها نصراني تونسي « قسطنطين الافريقي » المولود بقرطاجنة سنة ١٠١٥ م ؛ فلقد تعلم بالقيروان اللغة العربية وعلومها . ثم انتقل الى مصر وفيها أتم معارفه. وأخيرا رحل الى صقلية حيث آواه الأَمير النرماني «روبرت دي ڤيزكارت / Robert de Guiscard » وأسس له ـ إعجابا بعمله ـ دَيْر « مونتي كاسينو / Monte - Cassino » العظيم ، فأدار قسطنطين شؤونه بحكمة ، ودرّس فيه اللغة العربية لرهبانه ، وترجم في آن واحد الى

اللاطينية عدداً من الكتب العربية في الطب والفلك أغلبها لعلماء تونسيين مثل تآليف أطباء القيروان كاسحاق بن عمران ، وإسحاق الاسرائيلي ، وأحمد بن الجزار . ومثل « كتاب البارع في علم الفلك » لأبي الحسن بن أبي الرجال وزير بني زيري المشهور . وفيما بعد دُرِسَت هذه الكتب وشُرِحت في أول جامعة أوروبية أعني جامعة « سالرنو » وإن ظهر في هذه التراجم بعض الخلل فانها تعد مادة أولية لتدريس تقنيات وطرق لا يملكها في ذلك الوقت إلاّ العرب .

وكلنا يعلم الطريق الذي سارت فيه التآليف العلمية العربية ، فلقد شاعت وتناقلتها الجامعات الاروبية جامعةً عن جامعةٍ من سالرنو ثم نابلولي ، الى بادو ، الخ ..لتبعث وتنشر النهضة الاروبية العظيمة في القارة المواجهة لنا . وعلى كل فان الشرارة الاولى انطلقت من الشواطىء التونسية الايطالية . أو ليس هذا مما يعدّ مفخرة لكلّ من البلدين .

وكنت جمعت في تعليق طويل نشر سنة ١٩١٠ م في كتاب (الذكرى المئوية لميكال أماري) بعض الأخبار عن صقلية العربية في البلاد التونسية ، ولقد تمنيت أن أواصل هذه التعاليق بزيادة ما اكتشفته منذ ذلك الزمن . ولكن الوقت عاقني .

وإني سأسجل بسرعة بعض الملامـح المتعلقة بصقلية العربيـة أو العربية النرمانيـة . وأول ما أذكـره هو قطعتان جميلتـان من الذهب « دينار » ضربهما في المهدية « رجار الثاني » وابنه « غليالم الاول » ملكا صقلية اللذان احتلا - كما هو معلوم - السواحل التونسية طيلة اثنتي عشرة سنة متتابعة (من ١١٤٨ الى ١١٦٠ م) واكتشفت هاتين القطعين المجهولتين عند علماء النقود الى ذلك الوقت في المهدية نفسها . والفرق بينهما وبين القطـع النرمانية الاخرى هو جمال الضرب فيهما ، وطابعهما الافريقي البحث ، وديباجتهما العربية . بينما نقـودهم المضروبـة في صقلية تحمل الصليب ومكتوبـة بالعربيـة واللاطيـنية ؛ فقد وصـل الأمر بهذين الملكين إلى إضفاء ألقاب الخلافة على نفسيهما . رجار الثاني « المعتز بالله » وغليالم الاول « الهادي بالله » .

بهذا نرى ما وصل إليه هذان الملكان الحكيمان المتسامحان من اتباع سياسة إفريقية مغايرة لمواقفهـم في صقليـة حيث كان السكان خليطـا متباينا من إيطاليين ويونان وعرب وبربر .

ونحن نعلم أن أهل البلاد هربوا من مدنهم أثنـاء احتلال جيوش النرمان للسواحل التونسية ليلتجئوا الى داخل البلاد . ولكنهم عندمـا فطنوا الى أن رجـال الشمال حكماء متسامحون رجعوا شيئا فشيئا

إلى ديارهم التي غادروها ، وعوملوا معاملةً فيها كثير من العـــدل والانسانية .

وهل نحن في حاجة الى التذكير بأن النرمان كانوا ـ خلافـا للملوك النصارى في القرون الوسطى ـ أكثر الملوك تقديرا للمسلمين لما تحـلوا به من معرفة للعالم العربي والحضـارة الاسلامية التي لا يدخرون وسعا لاحتضانها ؟ ويكفي أن يعود المطلع الى رحلة ابن جبير ليقتنـع بذلك .
ثم ألم يقنعنـا صديقنا العالم الاستـــاذ « ريزيطانو / Rissitano » المتخصص في كل ما يتعلق بصقلية العربية وذلك فيما نشره من واسـع البحوث ومـا أكده في أحاديثه القيمة بالاذاعة التونسية بمدى اضطلاع هؤلاء الملوك النرمان بالعربية ، وتذوقهم للمديـح الذي كان يقوله فيهم شعراء العرب بصقلية ؟

وبعد هذا أنتقل الى خبر آخر خاص بالعلاقات بين صقلية وتونس ، ففي المكتبة العتيقة بجامع القيروان يوجد بين مخطوطات هذه المكتبة جزء من مدوّنة الامام سحنون . وهذا الجزء مكتوب على الرق نسخه أثناء القرن التاسع الميلادي سرقوسي ، ضبط لنا في الصفحـة الاولى من الكتاب اسمه وجنسه وأصله ، كما أنـه لم يغفل عن ذكر الفقهاء الذين نشروا مذهب مالك في صقلية . وهـــذه الاشارة هامـة جدًّا بالنسبة

لتاريخ الفقه ، لأننـــا نعرف أن المسلمين في الجزيرة الكبيرة كانوا يتشبثون بمذهب أبي حنيفة حتى أواخر عهد الأغالبة الذين كانوا هم أنفسهم على مذهب هذا الامام .

وإني أنتهز هذه الفرصة لأدعو صديقي الاستاذ « ريزيطانو » الى الاهتمام بهذا الكتاب ، بقطع النظر عن أن هذا الجزء قد يكون هو لمؤلف العربي الوحيد الذي وصلنا من صقلية مما كُتِبَ في القرن التاسع الميلادي .

ويوجد أيضا في نفس هذه المكتبة مخطوط وحيد نفيس . وهو ترجمةمن اللاطينية إلى العربية لتاريخ الشعوب القديمة وهو منسوب الى القديس « يرونيم / Saint Jérôme » ولاشك أن الترجمة كانت بتعاون بين العلماء العرب والرهبان النصارى في القرون الوسطى . وأني احيل - لمزيد التعليق في هذا الموضوع - الى ما قام به العالم الصديق الاستاذ « ليفي دلافيدا / Lévi Della Vida » من بحث نقدي في ذلك .

ولا أغفل كذلك - في هذا المضمار - عن ذكر ظاهرة تتمثل في أن بعض العائلات التونسية لها من الاسماء ما يذكرنا باصلهم الصقلي .

ففي قربة - المدينة الواقعة بالوطن القبلي - نجد عائلة تدعى « الزقلي » وهو تحريف للفظة صقلي فمالت « الصاد » الى « الزاي ». وهي ظاهرة

صوتية معروفة ، بينما نجد في الساحل التونسي عائلة أخرى عريقة تدعى « السكلي » وأبدلت هنا القاف كافا ، كذلك فان عددا عديـــدا من العائلات المنتسبة الى الأوساط البورجوازية «في تونس العاصمة» تنحدر من أصل إيطالي أو صقلي جاءت الى تونس في القرون الثلاثة الأخيرة . وأذكر على سبيل المثال عـائلات مـارية (Marîa) وأبتي (Abâti) وبلّاسيرة (Bella cera)وجنويز (Genovese) في قريةرأس الجبل.

على أني أكتفي بهذا القدر منبها الى أن ما يقرب من ربع العائلات البورجوازية القديمة في تونس العاصمة أجدادهم إيطاليون أو صقليون أو بنطلاريون ، وأنهم لم يكونوا عريقين جدّا في نزوحهم الى تونس ، وإنما جاؤوا خلال القرون الثلاثـــة : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، وهناك مثال تاريخي أكثر دلالة : فمراد باي ملـــك تونس تزوج حوالي سنـــة ١٥٦٦ م سَبِيَّةً من فلورنسا . وصارت بذلـك « بيـة » وولدت له رمضان بـاي الذي خلفـه سنـة ١٦٩٦ م . وأصبحت البيَّةَ الوالدةَ دون أن تتحوّل عن ديانتهـا ، وكانت أحسن مرشد لابنها الذي برَّ بها طيلة حياتهـا أجمـل البِرّ ، وهـي نفسها التي كانت سببا في دخول « الارغن » الى تونس ـ لأول مـرة ـ وقد جلبتـه من مسقط رأسها ، وسرعان ما تعلم ابنها الضرب على هذه الآلة الجديدة فولع بها ، وعزف عليهـا في قصر باردو ، وبعد تولّي ابنهـا

الْمُلْك بسنوات قليلة توفيت هذه « البيّة » على دين أجـدادها ، وقد باركهـا أحد القساوسة الكاثولكيين .

وما لبث ابنها أَن قام ـ وفاءً لذكراها ـ ببناء أَول كنيسة كاثوليكية حيث دَفَنَها فيها . وهي الكنيسة الواقعة بباب قرطاجنة في نفس المكان الذي انتصبت فيه بعد مـدة الكنيسة الارثـذوكسيـة بتونس . ولا نعلم سرّ ذلك .

ومهما كان الأَمر فان تسامح الأَمير رمضان في هـذا المجال جـدير بأن يذكر على غرار تسامح ملوك النّرمان الصقليين قديما .

وهكذا يمكن القول بـأن ما كان يسلّم به من عـداء بين الشعبين المتقابلين على ضفتي البحر الابيض المتوسـط استمرَّ طيلة القـرون الوسطى وما بعدها إنما هو من قبيل الخرافة التي يفنّدها ـ لحسن الحظ ـ التاريخ .

وهـذا يحملنا على القول بـأن العلاقات بين الشرق المسلم وأوروبا الغربية كانت دائما ودية ، أَخوية نوعا مّا ، وفوق كل ذلك إنسانيـة .

وإني أَود أَن أَختم هذا الموضوع بنادرة فاض بها الخاطر :

عندما كنت منذ عشرين سنـة « عاملا » بنابل ذهبت الى إقليـبية

ـ وهي مدينة معروفة بالوطن القبلي ـ ونزلت مباشرة عند « الخليفة » ـ وهو محترم ـ وبينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث إذ دخلت علينا امرأة إيطالية متقدمة في السن ، وأخذت في الحديث مع « الخليفة » بلغة عربية تونسية خالصة . وكنت أعرف أن مجموعة من السكان الايطاليين في (بنطلارية بالضبط) يعيشون منذ أكثر من قرن قرب إقليبية وهم من الفلاحين الصغار المتعاطين لزراعة الكروم والمهيئين للزبيب مثل أهل « بنطلارية » وقبل أن تخرج زائرتنا الايطالية سألها « الخليفة » بالعربية : « كرمينا / Carmina » متى ستزوجين « ببينو / Pepino » ابنك ؟ فأجابته في تعجب : كيف تسألني هذا السؤال ، يا سيدي . وأنت تعلم أننا في شهر عاشوراء . ولا يجوز لنا أن نعقد زواجا أثناءها . . ما ثمه كان الصلاة على النبي . وبعد ذلك سنرى .

وكانت هذه المرأة كاثوليكية مسيحية تذهب كل يوم الى الكنيسة في إقليبية لحضور القدّاس .

وإني ـ إذ ذكرت هذه الحادثة ـ فلأُذكّر بمدى ما كانت عليه شعوب البحر المتوسط من تداخل في اللهجات والعادات والعقائد والتطيّر مما جعل منها شعوبا متشابهة في كلتا الضفتين .

حول النقائش العربية بالمنستير

حول النقائش العربية بالمنستير (١)

لقد طال النقاش ـ ولعله سيطول أكثر ـ حول لفظة « منستير » وإذا أطلق العرب لفظة « منستير » على الوحدة المعمارية المشتركة بين الحصن والدَّير التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة (٨ م) وقبل استعمال كلمة « رباط » في مدلولها العربي الخاص ، فإن هذا مما يدعو إلى التساؤل والاستغراب .

ولكن لا ينبغي أن يفوتنا التنبيه إلى أن البيزنطيين الذين أخذ عنهم العرب لفظة « منستير » كانت لهم ـ إذ ذاك ـ منشئات كبيرة على النحو المشترك بين الأديرة والحصون الحربية مِمّا لا يجعلنا نستبعد أن لفظة « منستير » كانت شائعة الاستعمال في المشرق العربي (سواحل سوريا وفلسطين) . وقد حصل هذا قبل دخول تلك

(١ ×) أصل البحث مقدمة لكتاب « النقائش العربية في « المنستير » الذي ألّفه السيد مصطفى زبيس بالفرنسية إلا أنها لم تطبع بالكتاب .

اللفظة ربوعَ إفريقية بمدّة طويلة . وإن الجزم بأن على موقع روسبينا القديمة (Ruspina) لم يكن هناك « منستير » على النحو المسيحي الأصيل ، فإن ذلك يجعلنا نعتقد بأن لفظة « منستير » وردت من المشرق العربي . وأنها عرفت هناك قبل أن تعرف بافريقية . خاصة عندما نعرف أن الافارقة لم يطلقوا لفظ « رباط » على الحصون الساحلية إلاّ في القرن الثالث الهجري (٩ م) .

وقد كان هذا المَعْلَم مؤسسا ـ من أول أمره ـ للاغراض الدينية والحربية معاً . ثم تحوّل إلى مركز للعبادة والمرابطة للدفاع وصدّ غارات القادمين من الخارج خاصة تلك الغارات المفاجئة التي كانت تشنّها الاساطيل البيزنطية أو اللاطينية . وكان يعيش في هذه القلعة جنود متعبّدون أطلق عليهم اسم « المرابطون » ؛ لانهم كانوا يسكنون الغُرَف التي توجد في الرّباط . وكان هؤلاء المرابطون يلقون نفس الحظوة التي كان يلقاها زملاؤهم النّصارى من قبل . ولّما كان هؤلاء المرابطون يمثلون السلوك المستقيم في التديُّن والتقوى فإنهم كانوا يلقون الاحترام الكامل والتأييد الذي لا يشوبه أيّ احتراز من سكّان إفريقيّة الذين كانوا مُشبَعين بالتديّن العميق والتمسك بمبادىء الاسلام .

وكان من نتيجة كل ذلك أن « الرباط » أصبح ـ منذ عهده الاول ـ

يمثّل مركز الاشعاع الرّوحي ومصدر الخير والبركة . وهكذا انضم حول « الرباط » سكان الساحل وأحاطوه بهالة من التقديس حتى تعلّقت همتهم بدفن موتاهم حواليه ، ولو كانوا يسكنون بعيداً عنه .

ولعلّه مما يلفت النظر أن مدينةً مثل المهدية في عهد ازدهارها لم تكن بها مقبرة . ذلك أن سكانها أصبح من المألوف لديهم أن يحملوا موتاهم عن طريق البحر ليدفنوهم حذو الرّباط في المنستير . وأنشأت العائلة المالكة الصنهاجية مقبرة خاصة بها في المنستير . وهي المقبرة المشهورة بمسجد « السيّدة » . وكان أمراء صنهاجة ينفقون الاموال الطائلة على مدافن موتاهم مما أثار إعجاب مؤرّخي ذلك العصر .

وإنه لِمَّا يسترعي الانتباه تلك الالقاب العسكرية والمدنية لعدّة شخصيات كانت بارزة - لكنها مجهولة في التاريخ التونسي - التي كشفت عنها شواهد القبور في المنستير . وللتدليل على ذلك سنسوق مثالين يوضّحان ما ذكرناه آنفا :

أولهما لقب « القائد مختار » - الذي هو في نفس الوقت لِوَلَدٍ وحفيدٍ - وقد مات في مدينة « باري » الايطالية ، ثم نقل جثمانه إلى إفريقية ليدفن بالمنستير . وفي هذا الصدد يمكن أن نتساءل : لمن يمنح لقب « القائد » ؟ الغالب على الظن أن الشخص الحامل لهذا اللقب لاتكون

مرتبته دون مرتبة « الامير العام للاسطول » لأحد ملوك بني زيري في أواخر الدولة الصّنهاجية، ومن المعروف أن هؤلاء الملوك حرصوا على تقوية أسطولهم الحربي والرفع من عـــدد قطعاته داخل قلعتهم الحصينة (المهدية) . اما الاسباب التى دفعتهم إلى تقوية أسطولهم الحربي وتوفير سفنه فتعود إلى اضطرارهم إلى حماية مملكتهم ضد القوات النرمانية المنتصبة بصقلية ، بالاضافـــة إلى توفير الغنائم عن طريق القرصنة البحرية ، ولا يخفى أن أبسط المعلومات عن النظم البحرية لدى ملوك بني زيري وعن رؤساء أساطيلهم تكتسب أهمية خاصة نظرا لان المصادر التاريخية المتوفرة لدينا لا تعطينا أية تفصيلات عن ذلك .

أما المثال الثاني فيتعلق بلقب « الأمين» الذي عُثِر عليه في نقيشة تعود الى القرن الخامس الهجري (١١ م) . وقد تردد الباحثون طويلا بين إثباته كلقب من ألقاب الوظائف المالية ، وبين كونه لقبا من ألقاب الوظائف البلدية . ولا يبعد أن يكون ذلك قريبا من وظيفة « أمين المعاش » كما كان يطلق في العهود الاخيرة بتونس . وقد ترجح لدينا في آخر الامر ـ ولعلنا نكون على صواب ـ أن « الامين» كان يطلق على الشخص المكلّف بالإشراف على شؤون رباط

المنستير ، بمعنى أنه المتصرّف في أملاكه ، والقيّم على المرابطين فيه، والمتعهد لحالة بنائه إلى غير ذلك من الشؤون . وتجدر الإشارة الى أنّ اكتشاف هذه الوظيفة لم يتم إلا عن طريق تلك النقائش، وأن المصادر التاريخية لم تشر إلى ذلك بالمرّة .

ويكفي هذان المثالان ـ من بين الامثلة العديدة ـ للتدليل على أهمية المعلومات التي تتوفر لدينا من خلال دراسة النقائش الاثرية في اطار المجهود الرّامي الى إعادة كتابة تاريخ افريقية في العصور الوسطى ، في المجالات الإدارية والاجتماعية والحربية .

ومن حسن الحظ ـ في هذا المجال ـ أنه لا تكاد توجد مدينة كبرى في العالم الاسلامي ليس بها مقبرة مشهورة ضمت رفات أعلام من عظماء الرجال والنساء . نجد هذه المقابر مثلا في دمشق ، القدس ، الكوفة ، البصرة ، بغداد ، القاهرة ، القيروان ، قرطبة ، فاس ، غرناطة ، بلرم ، الخ . وبعض هذه المقابر تحمل اسم بعض المعالم التاريخية مثل مقبرة الباب الصغير في دمشق، أو بعض الشخصيات العلمية أو السياسية مثل ضريح الامام أحمد بن حنبل أو ضريح الخيزران والدة هارون الرّشيد .

اما بالنسبة لإفريقية التونسية فيكفيها فخراً ان تكون بها المقبرة

البَلَوية نسبةً إلى أبي زمعة البلوي الصحابي الجليل ، والذي كان أول مدفون بها حيث استشهد سنة ٣٤ هـ (٦٥٤) في معركة جلولاء . ويوجد بالقرب من ذلك المكان قبر حفيدة الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومن أجل ذلك سمّيت الحوطة التي توجد بها «مقبرة قريش» ، وعلى مقربة منها مقبرة الاشراف التي أُطلق عليها العامة اسم « الجناح الاخضر » . أما عدد ما يوجد بها من أعلام فلا يكاد يحصى . وكانت مقبرة القيروان - من جهة أُخرى - محلّ احترام وتقدير مسلمي البلاد التونسية خاصة سكان البوادي . لهذا كانت مدفنا لبعض القبائل مثل جلاص وحتى نفّات بجهة قابس .

أَما مدينة تونس فتوجد بها « مقبرة السلسلة » . وهي جديرة بدراسة مستقلة مفصلة . وسمّيت بـ « السلسلة » لانها أُحدثت ابتداءً من ناحية القصبة وامتدت من باب المنارة إلى الباب الجديد محاذية لاسوار المدينة العتيقة . ويسودُ الاعتقاد بأن هذا الامتداد ابتدأً من ناحية مستشفى « عزيزة عثمانة » حيث يوجد ضريحٌ من أقدم الأَضرحة الاسلامية بتونس ، هو ضريح الفقيه المشهور علي بن زياد ، أَحد تلاميذ الامام مالك بن أَنس والمتوفّى سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) .

ولا يسعنا أن نغفل مدى الاهمية التي يوليها المسلمون ، منذ فجر

الاسلام ، لدفن موتاهم بالقرب من أهليهم وذويهم ، وكذلك حرصهم الشديد على أن تكون قبورهم أقـــرب ما يمكن من ضريح بطـل من الابطال أو عالم أو صالح مشهور بالتقوى والعبادة ؛ ففي مكة ـ مثلا ـ نجد مقبرة « المعلى » التي يرجع تاريخها الى عـــدة قرون قبل ظهور الاسلام ؛ ففي هذه المقبرة دفن الكثير من أشراف ومشاهير قريش كان من ضمنهم أجداد الرسول عليه السلام وأعمامه كما دفنت فيها زوجته الأولى خديجة ـ رضي الله عنها ـ وغير ذلك كثير ٠

أما مقبرة البقيـع بالمدينة المنوّرة فلها مكانة خاصـة عند المسلمين كافة ؛ لأنها تضم عددا من أسرة الرسول الذين توفوا بعد الهجرة كما ضمت الكثير من الصحابة المجاهدين الأولين عن هذا الدين الحنيف ٠

وهنا تجـــدر ملاحظة وهي أن من العلماء العرب من اهتمّ ـ منذ خمسمائة سنة ـ بالنقائش المرسومـة على أضرحـة مقبرة معينة بطريقة لا تبعد عن الطريقـة العلميـة النقديـة التي يسلكها علمـاء الغرب المختصون بالبحث عن الآثار القديمة ، وهذا أحد قضـــاة مكة المكرّمة (١) يعنى بمقبرة « المعلى » ويخصها بتأليف مستقلّ سمّـاه

(١×) جمال الدين أبو المحاسن علي بن محمد الشيبي (٧٧٩ ـ ٨٣٧ هـ) فقيه أديب ، شاعر مورّخ ، تولّى سدانة الكعبة وقضاء مكة ونظارة الحرم ، له عدّة تآليف ، انظر عنه : الضوء اللامع (٩ : ١٣) ـ البدر الطالع (٢ : ٢١٤) كشف الظنون (١ : ٦٩٧) ،

« الشرف الأعلى في ذكر قبور المَعْلَى »[١] ويطوف بنفسه على قبورها قبراً قبراً ، وينقل لنا ما هو مكتوب على كلٍّ واحد منها بالحرف الواحد من غير زيادة ولا نقص . كما يشير ـ عند الاقتضاء ـ الى أغلاط النقّاشين مع التنبيه إلى نوع الخط ، والاتيان بترجمة المتوفّى استناداً على أوثق المصادر السابقة ، كما لا يفوته ـ متى توفّر له ذلك ـ التنبيه الى أنّ المتوفّى كان أميرا أو عالما أو متعبّداً أو أن المتوفّى لم يمت بمكة . وانما نقل جثمانه اليها ـ بعد وفاته ـ من المكان الذي مات فيه ، ولو كان من أقاصي البلاد (الهند ـ تركستان ـ اليمن ـ الشام ـ مصر ـ المغرب . . الخ) .

والقارىء لهذا الكتاب لا يسعه الاّ الاعتراف لصاحبه بما لديه من المستلزمات العلمية المشروطة لدراسة النقائش في عصرنا الحاضر .

إن قراءة النقائش والكتابات المعثور عليها في الحفريات صارت من أهمّ خصائص علم الآثار الحديث في نظر من يشتغل بالبحث عن

(١ ×) منه نسخة خطية في مكتبة ح . ح . عبد الوهاب . وورد اسم الكتاب في الاعلان للسخاوي (ص ٦٥٠ . طبعة فرانز روزنتال) الشرف الاعلى في ذكر مقبرة باب المعلى . وفي هدية العارفين (٢ : ١٨٩) الشرف الاعلى في ذكر مقبرة الباب المعلى .

المدنيات البشرية المنقرضة، فكم أفادتنا قراءة النصوص القديمة عن أحداث تلك الشعوب ، وعن حياتها الاجتماعية ، وعن أسماء النابغين من أبنائها ملوكا ـ كانوا ـ او قوّاداً أو رجال دولة ، أو علماء مشاهير !

وكم من كتابة قديمة ضيّعت الامم فَهْمَ رموزها حتى جاء علماء الغرب فكرّسوا أوقاتهم لفك تلـــك الطلاسم ، وتوّصلوا بالصبر والمثابرة والمقابلة إلى فهم كتابات ولغات انقرضت وطمست فتبيّنوا معانيها ، وفسّروا غوامضها ، ونشروا نتائج مجهودهم للعلماء فصارت نصوصا واضحـــة تهدي إلى معالم مدنيات ماتت وقبرت مع أصحابها وواضعيها ٠

* * *

إن علم النقائش هو الذي استطعنا به أن نضع مؤسسة بشرية قديمة (المقبرة) في إطار حي واسع يُمْكِننا به أن نتبين أبعادها في نطاق التاريخ الانساني ٠ وذلك هو الذي قوّى الرّغبـــة في دراسة المقابر القديمة في بلادنا ٠ وإني لمقتنع بأنها كفيلة بمدّنا بمعلومات قيّمة ومفيدة

بخصوص الانساب والجغرافيا والصنائـع والوظائف ممّا يساعدنا على التعرّف على طبيعة الحياة التونسية في القرون الوسطى ·

وأملي أن ينكبّ شبّان تونسيون من مؤرخين وعلماء آثار على دراستها خاصة بعد أن أنجز السيد مصطفى زبيس الكثير في هذا الميدان · وإن دراسته القيّمة والمركزة عن نقائش المنستير لتكتسي صبغة علمية جديرة بالتنويه · سيما أن مدينة المنستير تشهد تغييرات عمرانية هامّة اكتسبت بها السحر والرونق وحافظت بها على جمالها العتيق وطابعها الحضاري الممتاز · ولا عجب في ذلك ما دامت مدينة المنستير محلّ رعاية واهتمام ابنها البارّ فخامة السيد الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية الفتية ·

دار حسين - ماي ١٩٦٩

●

من معالم افريقية

مـن معـالـم افـريقيـة

مـرسـى ابـن رمضـان

يمتاز عصر بني الأغلب في إفريقيـة التّونسية بانشاءات عمرانيـة متعدّدة ومتنوّعة : فمن مصانـع لخـزن ماء المطر في سائر جهات البـلاد من أدنـاها الى أقصاها ، إلى حصون على سِيف البحر وهي الرباطات للدفاع عن حوزة البلاد من هجمات الروم البيزنطيين وغيرهم ؛ فلا يكاد يسير المسافر أكثر من عشرين كيلو مترا ـ أكثر أو أقل ـ دون أن يجـد حـصنا منيعا أشادته الادارة الاغلبية في مكان مختـار لمقاومـة من يحاول النزول بتراب إمارتها و إزعاج الأهالي القاطنين بسلب أموالهم وأسر الاشخاص وعرضها للبيـع في مزاد أسواق المدائن الافرنجيـة الكبرى ؛ فمن لم يقدر على الفـداء من الضعفـاء والمساكين يبـذل لآخـر راغب في شرائه ، ولو كان بثمن قليل جدّا .

يذكر جلّ مؤرخينا وجغرافيينا القـدامى أن عـدد الرباطـات ـ التي كانت تحرس السواحل الاسلامية وتبتدىء من طنجـة على رأس

المحيط الأطلسي وتنتهي بثغر الاسكندرية ـ كان لا يقلّ عن عشرة آلاف حصن كلّها مبنية بالحجارة القوية والكلس (الجير) . والمسافة الفاصلة بين المصدر الأول والنهائي لا تقلّ عن الستّة آلاف كيلومتر . وأنا أشك في نسبة هذا العدد . وأقتنع فيما يخص سواحل البلاد التّونسية بما يقرب من مائة رباط مقامة كلّها بُنياناً محكما قويَّ الاركان ، متين الأساس والجدران . ومن فضل الله عليّ أن عرفت الكثير منها ـ ولا أقول غالبها ـ وقد وصفت البعض منها في غير هذا . ولله المنّة .

كان أهل القرى والمداشر المجاورة في كلتا الجهتين يفزعون الى تلك الحصون كلّما أحسّوا بخطر يهدّد مساكنهم المتباعدة عن بعضها ، والتي لا تقيهم مفاجأة الحاملين عليهم الذين أعدوا العدّة لأسرهم عنوةً وسَبْيِهم بشتّى الوسائل .

وهذه الغزوات من بلاد الافرنج كانت تتكرّر وتتجدّد لا سيما على الأقطار المصاقبة لأوطانهم وليس على النواحي الواقعة داخل القطر البعيدة عن ساحل البحر . على أن هذه الحملات كانت تصدر من جوانب البحر المتوسط الغربي كجزيرة سردانية وكرسقة وصقلية وما يليها من الاصقاع قبل استيلاء القوة الأغلبية عليها في القرن الثالث للهجرة . وفي ذلك الحين تحوّلت حركة الهجوم الى خليج البنادقة

والى مدائن إفرنجية استقلّت بحكم نفسها بما يشبه الجمهوريات الاغريقية في قديم الزمان .

وكان هؤلاء الافرنـج يقصدون خاصّة ناحيتين من البر التّونسي : أولا ما نسميـه « الساحل » وثانيـا « جزيرة شريـك » الوطن القبلي في عرفنا الحالي . وقد قاسى سكّان المقاطعتين قديما ويـلات ومصائب تزايد همّها يوم خرجت « مالطة » عن حكم تونس واستوطنها ما يسميه الافرنـج « فرسان رودس » بعد ما طردهم الأتراك العثمانيون من تلك الجزيرة ، وقـد عوضتهم الكنيسة جزيرة « مالطة » ونسبتهم اليهـا فقيل « فرسان مالطة » .

يهمنا من هذا كلّه أنه كان يوجد بالواجهة الغربية لجزيرة شريك مرسى على مسافة قريبة من المرفـــأ الحربي الكبير للقوات الفاتحة الاسلامية وهي « نوبــــة » وهو المقابل لانقاض مدينة قرطاجنـة من الجهة الغربية .

والمرسى المقصود هنا بالذات هو « قصر النخلة » وبه عرف منـذ أحقاب [١] . ثم امتلكه رجل يسمّى « ابن رمضان » فعرف بـه فقيل

(١) هو كائن بالناحية الشمالية من حمامات « قربص » المعدنية .

« مرسى ابن رمضان » . وفي مدة الاستعمار حازه معمّر فرنسي يدعى « ريبيرو / Ribereau » ولا أدري باية وسيلة . ومن المؤسف أنّه أدخل على المعقل تغييرات كبيرةً غيرت بعض هندامه العربي القديم لأنه اتخذه سكنا له ولآل بيته .

وكان بأعلى المرسى مرصد يكشف عن البحر من بعيد قد أزيل فيما أزيل من أركانه . لكن ما بقي من آثاره يدل دلالة قطعية على عناية الأغالبة البالغة في حراسة تراب مملكتهم من ناحية هجمات الاعداء المباغتة .

ويرى القارىء في الصورة الشمسية التي ننشرها مع هذا الفصل جمال ما بقي من « قصر النخلة » مع اعترافنا بضرورة إعادة البحث في موضوعه مع غيره من الرّباطات الساحلية التي تشير الى مجد البلاد التّونسية، وعراقة تمدينها العربي ، وعناية حكّامها المتقدمين بالصالح العام .



صورة قصر النخلة (مرسى ابن رمضان)

بـــاردو ومعـــالمـــه

في مستهـلّ القـرن التاسـع للهجرة (الرابع عشر للميلاد) يرد ـ لأول مرّة في تاريـخ تونس ـ اسم « باردو » إذ نرى السلطان أبا فارس عبد العزيز بن أحمد يختطّ هناك قصرا يحيط به بستان رائق للنزهة والاستجمام .

ولما ظهر الـوباء الجـارف الواقـع على تونس في سنـة ٨٧٣ هـ نرى السلطان أبا عمرو عثمان ـ حفيد المتقـدم ـ يعتزل سكنى القصبة ويحتجب بسانية « باردو » مدّة عام وثلاثة أشهر حتى ينقضي عهـد الوباء . وهذا أقدم ما نعثر عليه من خبر « باردو ».

أما وجه تسمية المكان بـ « باردو » فيظهر أن القصور التي كانت للأمراء من بني حفص هناك قد كان باشر بناءها إما جماعة من الأسرى الاسبانيين الذين امتلكهم غزاة البحر (القرصان) وقتئذ ، أو جماعة من المسيحيين الذين يكوّنون فرقـة عسكرية مخصوصـة في الجيش الحفصي تعرف باسم « العلوج » . واليهم ينسب أحد أبواب مدينـة

تونس ؛ فهم الذين أطلقوا ـ بلا شك ـ على تلك الناحية اسم « باردو » تشبيها لها بالبناءات والحدائق المعروفة باسم (Pardo أو Prado) في المملكة الاسبانية (١) .

وبقيت قصور « باردو » وبساتينه مَرْبَعاً للامراء الحفصيين من ذلك الحين الى آخر عهدهم سنة ٩٣١ هـ .

ولما امتلك الأتراك العثمانيون إيالة تونس كان حكّامهم يقصدون تلك القصور والبساتين لا سيّما في زمن الرّبيع .

واستمرّت هذه العادة الى عصر البايات من بني مراد ؛ فان ثانيَ من تولّى منهم ـ وهو حمودة باشا ويدعى محمدا ـ قد اعتنى بتشييد مباني في « باردو » اتخذها منتزها ومحلّ سكنى . وقد أفادنا أحد كتّاب الافرنج ـ وهو « دارفيو / le Chevalier d'Arvieux » بعض الشيء عن قصر حمودة باشا المرادي . كما أنه أورد نص المعاهدة المبرمة بينه كنائب لفرنسا وبين حمودة باشا . ومحل إبرامها بقصر « باردو » في

---

(١) كلمة (Prado أو Pardo) معناها في اللغة الاسبانية القصر أو النزل الملكي . ولا يخفى أنه يوجد حذو مدريد (عاصمة اسبانيا) قرية صغيرة تسمى الى الآن « El Pardo » . وكان الملك « كارلوس الخامس / Charles quint » أنشأ بها في سنة ١٥٤٣م قصرا يقصده حين يخرج للصيد .

سنـة ١٦٦٩ م ، وهذا الكاتب يسمّي المـكان (la maison des Bardes ou de Bard) .

ولم يزل بايات الاسرة المـرادية يتعاقبـون على سكنى « باردو » الى آخر دولتهم .

ولما انـتـصب حسين بن علي تركي (رأس الاسرة الحسينيـة) في الايالة التونسية وجّه عناية خاصّة من أول أمره الى البنـاء والتشييد في « باردو » . ولم يلبث إلاّ قليلا بتونس حتى انتقل الى «باردو» مع أهل بيته وحشمه وحاشيتـه بعـد أن أنشأ هنالك قصرا فخـما وأحيى المسجد القديم ، وحـوّله الى جامع خطبة ؛ فرتّب له إماما لتقـام به صلاة الجمعة كما جعل به قاضيا على مذهبـه الحنفى الزكي .

ولما استبد بالأمـر الباشا علي ، ابن أخي حسين باي المتقـدم ، أَدَارَ سُوراً حصينا على مـنشآت « باردو » ، كما أنه بنى عدة قاعـات وردهات في القصر ، كما بنى البرج الكبير ، والبيـت المنسوب له « بيت الباشا » وبيت المحكمة . وَخَنْدَقَ على الجميـع بخندق وبسور هَدَمَهُ الفرنسيون بعد الحماية .

ولا يفوتنا أن نذكر أنـ « الباشا علي » هـذا جدّد أيضا بناية « باردو » التي بالقرب من مدينة باجة .

ويرجع الفضل في تجديد الكثير من معالم « باردو » ـ خصوصا في زخرفة جامعه والزيادة فيه ـ الى الباي حمودة باشا الحسيني .

وكذا فعل الباي حسين الثاني بن محمود ، فهو الذي أنشأ « دار الحريم » . وكان بناؤه لها في (١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م) ، ثم زاد عليها ابنه محَمد بن حسين زيادات معتبرة . وهي الان المحلّ المخصص للآثار الاسلامية .

وفي الفِنَاء الذي حول القصر كان محمود باي بن محمد الرشيد أنشأ حديقة غنّاء جعل في وسطها كُشْكًا (Kiosque) مُرَوْنَقًا بأنواع المرمر ، كما حفر قربه بئرا نصب عليها ناعورة لاستنباط الماء لسقي الجميع .

وبالقرب من هذه الحديقة أنشأ أحمد باي الأول داراً لضرب المسكوكات كانت تسمّى « دار السكّة » حلّ مكانها بعد ذلك الثكنة المعروفة بـ « قشلة الطبجية » وذلك في سنة (١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م) .

ودام ضرب النقود التونسية بهذه الدار إلى سنة ١٨٩١ م حيث أُبْطِلَ العمل بها بتغيير السكة التونسية حيث صارت تسبك في معمل السكة الفرنسية في باريس .

ولما ابتدىء في تهديم سور « باردو » في أول انتصاب الحماية سنة

١٨٨١ م كان عدد الأبراج المحيطة به ثمانية ، ويوجد بها نحو المائة مدفع من النحاس والحديد .

ومهما يكن من أمر فان مباني « باردو » ومعالمه أقيمت في عصور مختلفة تمتدّ من القرن التاسع (وربما الثامن للهجرة) إلى الوقت الحاضر ؛ يعني من عصر الملوك الحفصيين وعهد الولاة الأتراك والأمراء من بني مراد الى عصر الحسينيين .. إلى ما شاء الله . ومن العسير جدّا على الباحث أن يعيّن تاريخا محدَّداً لكلّ من تلك المعالم التي هُدِّم الكثير منها في عصر الحماية . ولله عاقبة الامور .

●

باجات افريقية (*)

أ) : باجة القمح

وهي « فافا » القديمة « وتكتب اليوم على صيغة « باجة » ، وتقع هذه المدينة من مدن إفريقية على بعد ١٠٠ كلم غربي تونس . ويبلغ عدد سكانها في وقتنا الحاضر ٢٣٠٠٠ نسمة ، وتستند على ربوات خصبة يخترقها مصب وادي مجردة ، وتؤلف أهم المراكز الموجودة في تلك الجهة كما كانت في العصور القديمة وكما استمرت على ذلك الى يومنا هذا .

وقد لعبت باجة دورا استراتيجيا ممتازا في الربط بين تونس والجزائر خاصة في العصور الاسلامية [١] .

(*) نُشر هذا البحث بدائرة المعارف الاسلامية (المجلد ١٤ / الطبعة الجديدة)

(١) انظر : ر . برنشفيك (الحفصيون ١ : ٣٠٠) .

إنّ باجة - وهي عاصمة الناحية الأكثر خصبا في فلاحة الحبوب - قد سميت من أجل ذلك « هري إفريقية » كما سميت في كامل العصور الوسطى « باجة القمح » للتمييز بينها وبين مدن أخرى تحمل نفس الاسم في إفريقية والاندلس [١]

وقد خصّ الجغرافي الشهير أبو عبيد البكري مدينة باجة بوصف دقيق ضاف مايزال محل الاعتماد الى هذا اليوم عدا تغييرات طفيفة حدثت فيما بعد على تسميات لبعض الاماكن .

يقول البكري : « إنها تبعد عن القيروان بثلاث مراحل .. ومدينة باجة كبيرة كثيرة الأنهار . وهي على جبل يسمى عين الشمس في هيئة الطيلسان » [٢] .

وقد استمرت هذه العين في تزويد المدينة بالماء الى هذا اليوم ، كما استمرت على حمل الاسم المذكور . أما المعالم الاخرى التي يذكرها البكري فهي :

(١ ×) انظر « المشترك وضعا والمفترق صقعا » لياقوت الحموي ، ص : ٣٣ .

(٢ ×) المسالك ، ص : ٥٦

الاسوار التي أضيف اليها ـ فيما بعد ـ سورٌ خارجي يحيط بأحياء جديدة .

القلعة ، وهي مازالت الى وقتنا الحاضر تسمى القصبة . وهي - على حد قول البكري ـ مبنى عتيق قد بني بنيانا متينا بالحجارة الضخمة . وهذه القلعة البيزنطية بناها « الكمت باولوس » في عهد الامبراطور « جوستنيوس » حسب ما جاء ذلك مرسوما على حجارة مكتوبة باللاطينية . وقد تناولتها مرات متوالية يدُ التحوير في عهد الحفصيين والحسينيين .

أما الجامع الكبير فكان متقن البناء قِبْلته سور المدينة (١) .
ولمدينة باجة خمسة حمامات وفنادق كثيرة وثلاث رحاب مفتوحة تقام فيها أسواق المواد الغذائية . ويذكر البكري ضواحي باجة فيقول : « وحولها بساتين عظيمة تطّرد فيها المياه » (٢) .

وفي باجة وَجَدَمأواه فريقٌ من الحامية البيزنطية بقرطاجنة عندما حاصرها حسان بن النعمان نحو سنة ٧٦هـ / ٦٩٥ م . وبعد أن فتحها

---

(١) المسالك ، ص : ٥٦

(٢) نفس المصدر

هذا القائد الأموي صارت فيما بعدُ مركزا حربيا مهمًّا للجند العربي . ويؤكد الهروي أن معبد بن العباس بن عبد المطلب من بني عم الرسول قد لقي حتفه بباجة ، وأن ضريحه موجود بمرجها .

أما اليعقوبي ـ وقد زار إفريقية في القرن الثالث هجري (التاسع مسيحي) فيذكر أن سكان باجة هم من سلالة الجند العباسي القديم ، ومن عناصر أهلية غير عربية . وأما القلقشندي فيستند على مرجع قديم ، ويقول : « إن قبيلة بني سعد التي تربّى فيها الرسول ـ عليه السلام ـ قد انتشرت في كل صوب ، وأن فريقا منها كان في عصره ساكنا بباجة إفريقية الى جانب الجند العباسي » .

وفي أيام الامراء الأغالبة اتّخذت باجةُ مظهر عاصمةٍ كبيرةٍ للجهة . وتوافد العمّال عليها وكانوا من أسرة بني حميد وزراء وأقارب الأغالبة وأصهارهم . وكان هؤلاء العمّال حريصين على استبقاء عمل باجة في أيديهم من أجل ثرائه ، وبسبب ما كان يدرّه عليهم من الخيرات . أما قضاة باجة فكانوا يُختارون من بين أشهر فقهاء القيروان . وكانت الرئاسة على الجند وعلى الفرق الموالية للأغالبة القاطنين بالناحية تسند لأبرز القوّاد وأكثرهم حنكة . ويحملنا ذلك على الاعتقاد أن قدماء الجنود الذين واصلوا سكناهم في ناحية باجة قد خلفوا أسرة كبيرة في المدينة

تحمل اسم قبيلتهم وهي « قضاعـــة » التي مازالت موجـودة الى هذا اليوم .

وفي أيام الفاطميين دَمَّرت مدينةَ باجة الجيوشُ البربرية التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيـداد (صاحب الحمار) ونهبوها وأشعلوا النار في البعض من أحيائها ، وذلك سنـة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م . ولكنها استرجعت سريعـا أسبـاب الازدهـار بسبب خصب تربتـها وثراء منتوجاتها الفلاحية . وعند الزحفة الهلالية (القرن الخامس . هـ / الحادي عشر . م) حلّت بها طوائف من قبيـلة رياح ، فاستوطـنـت باديتها . ثم خرجت باجة من تبعيتها للزعماء البدو الى التبعية لبني حماد ، ملوك بجاية. أما في عهد الحفصيين فقد عاد الى باجة ازدهارها المفقـود . إلاّ أنها ظلت دوما ماوى الخارجين على الدولة .

وفي أيام الأتراك العثمانيين (القرنان العاشر والحـادي عشر هـ / السادس عشر والسابـع عشر .م) كانـت باجة مركـزاً لمحـلّة من الانكشارية التي سوف تُخَلِّف فيها طائفةً من سلالتها .وقـد بُني داخلها في ذلك العصر جامعٌ لأتباع المذهب الحنفي . ولما كان عهد الملوك الحسينيين اتخذت باجة مظهر قرية من القرى الفلاحية الضخمـــة التي تطغى عليها المسحة البدوية . وهي مركز لعامل (وال) ينوب فيها السلطة

المركزية . وقد بني في باجة في تلك الأيّام بعضُ المعالم التاريخية منها قلعة على بعد كيلو متر واحد غربيها سميت « باردو » على اسم القصر الملكي الموجود في ضاحية تونس .

وقد أنجبت باجة ثلّةً من العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخين . ونقتصر على ذكر أسرة القلشاني التي منحت البلاد التونسية في القرن التاسع هـ (الخامس عشر . م) سبعة أو ثمانية من القضاة والفقهاء الأعلام . ولنذكر أيضا اسم محمد الصغير بن يوسف الذي عُنِي بتدوين تاريخٍ عاشه بنفسه للبايات الأربعة الأولين للدولة الحسينية (من سنة: ١٧٠٥ الى سنة ١٧٦٨ م .)

ب) : باجة الزيت :

سميت بذلك لتمييزها عن المدينة الحاملة لاسمها في المنطقة الشمالية للبلاد . وهي مدينة من المدن التابعة لكورة الرصفة (روسبا القديمة عند الرومان والبيزنطيين) تحتلّ موقعا وَسَطَ غابة الزيتون بالساحل التونسي في الطريق الواصل بين المهدية والجمّ على بعد ١٣ كيلو مترا شرقيَ هذه البلدة الأخيرة . وتحمل مشيخة المنطقة التي كانت فيها باجة اسم مشيخة وادي باجة (قرب المهدية) . ويظهر أن هذه المدينة كانت

تعيش في ازدهار إلى أن كانت الزحفة الهلالية . ثم أخذت بعد ذلك في الانحدار إلى أن اضمحلت تماما في عهد الدولة الحفصية . على ان موقعها مازال موجودا ، وقد انتشرت فيه خرائب كثيرة ، منها فسقية كبيرة المساحة . وقد ذكر مدينة باجة هذه عدّة مرات المالكي وياقوت الحموي الذي نقل عدة نقول عن ابن رشيق من كتابه « أنموذج الزّمان».

ج) : باجة القديمة :

وهي بلدة قد اضمحلت اليوم ، ولكن خرائبها مازالت ظاهرة . وموقعها قرب « نوبة » الحالية في الناحية الشمالية القريبة من مدينة تونس . وكان بباجة هذه جامع وكتّاب وسوق وعدد من المنازل . وقد اشتهرت بالخصوص لأنّها أنجبت شخصية من أبرز الشخصيات الصوفية ألا وهو أبو سعيد خلف بن يحي التميمي الباجي المولود سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) والمتوفّى في ٦ شعبان ٦٢٨ هـ (٩ جوان ١٢٣١ م) . وهو من تلاميذ أبي مدين شعيب دفين تلمسان . وقد دفن أبو سعيد ببلدة جبل المنار بين قرطاجنة والمرسى فسميت البلدة باسمه .

●

المــــراجع

أ) : عن باجة القمح :

اليعقوبي : البلدان ، ط ، النجف ١٩١٨ ص ١٠٧ (الترجمة الفرنسية لقسطون فيات القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢١١) ،
البكري : النص العربي - ص ٥٩ - الترجمة الفرنسية ص ، ١١٩ ،
ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٥
الادريسي : النص العربي ص ١١٥ ، الترجمة الفرنسية ،ص ١٣٤،
الهروي : مناسك الحــج ، ط : ج ، سوردال طــومين ، دمشــق ، ١٩٥٣ ص ٥٣ ،
القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٣٤٠ ،
ليون الافريقي : الترجمة الفرنسية بقلم إبولار ، ص : ٣٧٤ ،
محمد الصغير بن يوسف : المشرع الملكي في أخبار أولاد علي تركي (مخطوط بمكتبة ح ،ح ، عبــد الوهــاب) الترجمة الفرنسية بقلم : ف ، ســارّ ،و ، الاصرم ، تونس ١٨٩٧ ،

ب) : عن باجة الزيت :

المالكي : رياض النفوس ، ج ٢ ، - ص ٧٩ - ٨١ (مخطوطة مكتبة : ح ، ح ، عبد الوهاب)
ياقوت : معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٣ / ١٩٠٦ ، ج٢ - ص ٢٥ ،
الصفدي : الوافي بالوفيات . ج ٣ (مخطوطة الزيتونة)

ج) : عن باجة القديمــة :

أبو الحسن الهــواري : منــاقب أبي سعيد الباجي (مخطوط مكتبة : ح ، ح ، عبد الوهاب) ،

تاريخ صقلّية الاسلاميّة

28 ورقات (ثالث)

تـاريـخ صقليـة الاسـلاميـة

مقدمة (١)

هنالك صفحة من تاريخ العرب يبدو أن المؤرخين ـ مسلمين كانوا أو غربيين ـ قد أهملوها بينما يمكن اعتبارها من الصفحات المجيدة التي يحتوي عليها السجلّ الذهبي للحضارة الاسلامية ، ألا وهي صفحة الحكم الاسلامي بصقلية . ذلك أنّ جميع المهتّمين بشؤون الشرق قد افتتنوا ـ منذ أمدٍ بعيد ـ بالأندلس التي أخذت بمجامع قلوبهم ؛ فازالوا عن مُدُنها البديعة ما تراكم عليها من غبار العصور الماضية ، وصارت الوثائق تتكاثر يوماً بعد يوم ، بينما صقلية التي ظلّت عدّة

(١) قدّم هذا البحث إلى المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ م .

قرون تابعة للممالك الاسلامية الزاهرة لاتزال منعزلة في البحر ، وقد أُسْدِل عليها ـ تعَسُّفاً ـ ستارُ النسيان والإهمال رغم ما تتمتع به من جمال فتّان ، ومن ثروات رائعة ؛ فهي لم تحظ بما حظيت به الأندلس من اهتمام وعناية . ذلك أن العلماء الذين حاولوا انتشالها من طيات النسيان كان عددهم قليلا رغم ما تملكه تلك الجزيرة من كنوز عجيبة جديرة بأن تستأثر بإعجاب المؤرخين والمستشرقين . وإذا أمكن للأندلس أن تعتزّ باحتفاظها بقصر الحمراء وجامع قرطبة وبعدد لا يحصى من القصور الفخمة ، فإنه ليحق لصقلية أن تفتخر عن جدارة بقصر العزيز والفوّارة والقبّة . وقد تغنى ـ طيلة ثلاثة قرون ـ ببلرم وأحيائها الزاهية وبالبيضاء ومعاملها الثرية وبمازرة وأبراجها الحصينة شعراءُ لهم من السمعة والرقّة ورهافة الحس ما للشعراء الذين خلّدوا بأشعارهم قرطبة وإشبيلية وغرناطة .

إن تاريخ صقلية يضع بين أيدينا صفحة من صفحات التاريخ العام الجديرة بكلّ اهتمام . وذلك لسببين اثنين : أولهما موقع الجزيرة التي تعتبر همزة وصل بين أوروبا وإفريقيا ، وثانيهما تنوّع سكّانها .

ومن ناحية أخرى فإن صقلية اعتادت ـ طيلة الفترات المتوالية من تاريخها ـ الخضوع لأيّ غازٍ أتاها من الشمال أو من الجنوب ،

من الشرق أو من الغرب . شأنها في ذلـك شأن جميع البلدان الصغـيرة التي لها نفس الموقـع ؛ فالاغـريـق هم الذين أسسوا لهم مستعمرة غـربي الجزيرة بعدما دَحَروا « الصيقول / Les Sicules » والفنيقيين . ثم جاء دور قرطاجنـة فاستـولت على المدن الصقلية وألحقتهـــا بممتلكاتها . ثم استرجعتها رومة وجعلت منها مصـدرَ خيراتها . ثم استـولى عليها القائـد « بَليزار / Bélisaire » فأصبحت جـزءاً من الامبراطـورية البيزنطيـة .

وقد عمد كلّ شعب من هذه الشعوب ـ بعد بسط نفوذه على هذه الجزيرة ـ إلى إدخال أنظمته وقوانينه ومعتقداته وعاداته التي حلّت محلَّ أنظمة الشعوب السابقة وقوانـينها ومعتقداتها وعاداتها . وقـد أثبت كلّ شعب إقامَتَهُ بالجزيرة بالمدن التي أنشأها أو دمّرها ، وبالمعالم التي أقامها أو حطّمهـــا ، وبالفنون التي نشرها أو قضى عليها ، وبالعادات التي ركّزها أو تبنّاها . لهذا حُقّ لنا أن نتساءل عن الدور الذي لعبه المسلمون بصقلية مدّةً دامت أكثر من ثلاثة قرون .

إن هذا هو ما سنحاول إبرازه في الصفحات التاليـة . ولو أن ذلك سوف لا يكون مستوفياً للموضوع تمام الاستيفاء .

الاستيلاء الاسلامي على صقلية

الغزوات الأولى :

ما إن فتح المسلمون البلاد الإفريقية الشمالية حتى فكّروا في غزو الجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط حمايةً لممتلكاتهم الجديدة . وأقرب هذه الجزر وأهمُّها هي جزيرة صقلية التي كانت تابعة - إذ ذاك - للامبراطورية البيزنطية ، يحكمها وُلَاة يعيّنهم قيصر الرُّوم . وتبعاً للخطة الحربية التي تقتضي التعرّفَ على حالة البلاد قبل فتحها ، فقد جهّزت حملة استطلاعية بقيادة عبد الله بن قيس سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ ، ٦٦٦ م) . وبعد استطلاع السواحل الجنوبية لصقلية قفل الجيش الاسلامي راجعاإلى إفريقية . وسارَ فيما بعدُ على هذا المنوال محمد بن أوس الانصاري ، وبشر بن صفوان الكلبي ، وحبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢هـ (٧٤٠ م) . ولم تحرز هذه الحملات إلاّ نجاحاً نسبيا إذ لم تكن للعرب نية الاستقرار فيها بصفة دائمة .

فتح صقلية

وما إن مضى ربع قرن على انتصاب الاغالبة على القيروان حتى أصبحت إفريقية تتمتع بشيء من الاستقلال تحت هذه الإمارة الجديدة. وكانت صقلية في ذلك العهد مطمح أنظار الكثير من الراغبين في الاستيلاء عليها . وكان من الأسباب التي عجّلت بالفتح العربي لصقلية أن الوالي البيزنطي (أوفيماس) الذي كان يتولّى أمرَ صقلية ثار على الامبراطورية البيزنطية واستنجد بالأمير زيادة الله ضدّ خصمه الامبراطور البيزنطي ، فاستجاب الأمير الأغلبي لندائه بعد أن أدرك أن الفرصة أصبحت سانحة لمواصلة العمل الذي قام به أسلافه من أجل الاستيلاء على صقلية .

وفي منتصف سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أقلع من سوسة أسطول يضمّ عشرة آلاف مقاتل متوجها إلى صقلية بقيادة قاضي القيروان

أسد بن الفرات [١] . ونزل المسلمون قرب مدينة مازرة وتمكّنوا في وقت قصير من الاستيلاء على بعض المدن الجنوبية وكثير من الحصون . ثم نصبوا الحصار على سرقوسة ، عاصمة الجزيرة ، برّاً وبحراً. وأثناء هذا الحصار تعززت القوات الاسلامية بالمدد الجديد الوافد من إفريقية، فقرر أسد بن الفرات الإسراع بفتح كامل الجزيرة . ووجَّهَ كتائب عديدةً من الجند نحو بلرم . ولكنّ الله ـ سبحانه ـ لم يشأ لأسد أن يشاهد نتائج العمل الذي شرع فيه بكلّ شجاعة وفخر . ذلك أنّ مرضا قد انتشر بين صفوف الجند العربي فأودى بحياة الكثير منهم ، وفي مقدمتهم أسد بن الفرات سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) . وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبي الجواري الذي اقتفى أثر سلفه ، فكان النصر حليفه ، واستولى على مازرة وجرجنت [٢] وأخذ يستعدّ

---

(١) ولد أسد بن الفرات بنيسابور في خراسان حوالي ١٤٢ هـ(٧٦٠م) وقدم إلى إفريقية مع الوالي محمد بن الاشعث ، ثم ارتحل إلى المشرق حيث درس على الامامين مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان ، ورجع بعد ذلك إلى إفريقية ودوّن كتابه « الاسدية » ، ثم ولاه زيادة الله قضاء القيروان سنة ٢٠٤ هـ (٨١٨ م) .

(٢) هي Girgenti ، وفي الروض المعطار (كركنت) ، انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ماي ١٩٥٦ ص ١٧٢ .

للهجوم على قصريانّة وهي أهم القواعد الحصينة بالجزيرة . ولكنّ المنية عاجلته قبل الشروع في ذلك .

وضعف أمر المسلمين نتيجةً للمعارك المتواصلة حتى أوشكوا على الانسحاب والعودة إلى إفريقية لولا أسطول يتركّب من ٣٠٠ مركب أندلسي وإفريقي جاء لنجدتهم . وبفضل هذا المدد الجديد تمكّن الأمير زهير بن عوف من الاستيلاء على بلرم التي استسلمت سنة ٢١٧ ﻫ (٨٣٢ م) [١]. وبهذا الفتح أوشك فتح الجزيرة على الانتهاء اذ سقطت الحصون الواحد بعد الآخر ؛ ففي سنة ٢٤٢ ﻫ (٨٥٧ م) تمّ فتح « شفلودي » و « قافليانو » « ومسّينى » [٢] على يد العباس بن الفضل. وبعد سنتين استسلمت مدينة قصريانّة [٣] المنيعة . وبذلك توطّدت أركان الفتح الاسلامي للجزيرة رغم المحاولات الفاشلة التي كانت تقوم بها حكومة القسطنطينية لاسترجاع مراكزها ونفوذها بصقلية . وقد زادت هذه الانتصارات حماسَ المسلمين فهاجموا قَلَوْرِيَّة وأنكمبَردة[٤]

---

(١) بالنسبة للاسماء والاحداث التاريخية اعتمدنا ابن خلدون عوض النويري وابن الاثير .

(٢) Messina - Gagliano - Cefalu

(٣) Castrogiovanni

(٤) Les pays des Lombards - Calabre

بجنوب إيطاليا ، وأقاموا فيها بعض المؤسسات . ولم يبق للرّوم بصقلية إلاّ بعض المراكز التي تحصّنوا بها وجمعوا فيها كلّ قواتهم .

وفي سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) تمكّن الوالي الجديد جعفر بن محمد من افتكاك سرقوسة بعد تسعة أشهر . وقد لقي حَتْفَهم في هذه المعركة الشهيرة أكثر من أربعة الآف مقاتل بيزنطي . ومن ذلك التاريخ لم تعد القسطنطينية تُعير أيَّةَ أهمية لصقلية التي أصبحت ولاية إسلامية. ومن حسن الحظ أن نزل بصقلية أحد أمراء إفريقية السابقين (ابراهيم بن أحمد الأغلبي [1]) . فقد استطاع هذا الأمير أن يوحّد صفوف المسلمين ، وأن يخمد نيران الفتن الداخلية . وقد استطاع سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) أن يستولي على « طبرمين » فارتعدت لهذا الحادث فرائص امبراطور الرّوم بالقسطنطينية نفسها حسبما رواه

---

(١) أظهر بعض المؤرخين المسلمين إبراهيم بن أحمد الاغلبي في مظهر الطاغية السفاك للدماء ، إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن عهد هذا الامير امتاز ببناء عدد كبير من الحصون بسواحل إفريقية ، وأنه أول من فكّر في إنارة الاضواء بكافة الحصون الساحلية لارسال الاشارات عند ما يقع أي هجوم مفاجيء ، وبهذه الطريقة يمكن تبادل المعلومات من سبتة إلى الاسكندرية ، كما لا ينسى أنه في عهد هذا الامير وقع اقتبال سفراء « شارلمان » بالقصر القديم القريب من مدينة القيروان .

ابن خلدون . ولم يقتصر إبراهيم بن أحمد على هـذا الانتصـار فاجتـاز مضيق مسّينى قاصداً أرض قلورية . وبعد احتـلاله لعدد كبـير من الحصـون نصب الحصـار على قلعـة « كشنـتـه »[1] فاصيب أثنـاء ذلك بمرض الزحـار (زلق الامعـاء) فتوفي سنـــة ٢٨٩ هـ . ودفـن ـ أول الأمر ـ ببلرم . ثم حمـل رفاتـه إلى القـيروان من طـرف ابنـه أبي العباس .

وبعد مرور ثلاثة عشرة سنة على هـذا الحـادث انتقلت السلطـة بافريقية من الاغالبة إلى العبيديين. وذلك لأسباب ليس هنا محلّ ذكرها. وقد ارتأى مؤسس الدولة الأغلبيـة (عُبَيْـد الله المهـدي) أن يُدْخِل إلى جزيرة صقلية نظاما إداريا جديدا ، فعهد بالولاية عليها إلى أحـد أنصاره بينما كان أهل صقلية قد بايعوا ابن قرهب . فـكان هذا سـببا في اندلاع الثورة التي تولّى قمعهـا قـائـد الحملة العبيدية موسى بن أحمـد باستيلائه على بلِرْم وتهديم حصونها سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

وفي سنـة ٣٢٥ هـ (٩٣٧ م) هبّ الصقليون لحمل السلاح ضـد الجيش العبيدي الذي أرسله القائم بن المهدي بقيادة خليل بن إسحاق .

---

(١) Consenza

ولم يستطع هذا القائد إخماد نيران الثورة نوعاً مّا إلا بعد عناء كبير. وقد قام ببناء قلعة «الخالصة»[1] في ضواحي بلرم لحماية خاصته وجنده من ثورة السكان.

وفي سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) اندلعت ثورة كبرى في بلرم وجرجنت. ثم انتشرت في كامل أنحاء الجزيرة. وهي ثورة تختلف عن جميع الثورات السابقة؛ فإلى هذا العهد كانت الثورات محدودة يمكن التغلّب عليها بسهولة بسبب ما كان موجوداً من الخلاف والشقاق بين مختلف المدن. ولّما اكتسب الصقلّيون التجربة الكافية في هذا الميدان، وعرفوا كيف يضحّون بأهوائهم الخاصة في سبيل المصلحة العامّة تمكّنوا من الإحراز على استقلالهم الذاتي؛ فقد عجز الخليفة «المنصور» عن إعادة النظام إلى نصابه بالجزيرة، واقتنع بالسيادة الاسمية عليها بعد أن عهد بالامارة على الجزيرة لأحد قوّاده وخاصته هو الحسن بن علي الكلبي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٦ م). ومنذ ذلك التاريخ أصبح الحكم وراثيا

---

(١) يقول الشريف الادريسي في وصف بلرم «.. فأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها، وبه المدينة القديمة المسماة بـ «الخالصة» التي كان بها سكنى السلطان والخاصّة في أيام المسلمين، وباب البحر، ودار الصناعة التي هي للانشاء ..»

في أسرة الكلبيّين إلى اليوم الذي صارت فيه الارستقراطية تكتسي صبغة ترابية ضيّقة فقضت على وحدة البلاد السياسية وفتحت الجزيرة أبوابها - بعد قرن من ذلك - في وجه الغزاة الأجانب .

على أن بعض الأُمراء من أسرة الكلبيين حققوا لصقلية الاطمئنان والازدهار نخص بالذكر منهم احمد بن الحسن الذي هاجم « رمطة » (سنة ٣٥٣ ه ٩٦٤ م) وهي آخر حصن من حصون الرّوم . كذلك أخوه أبو القاسم علي المشهور بمهارته وعفافه والذي عرف كيف يكتسب محبّة شعبه . و « ثقة الدولة » الذي أنسى عهدُه المجيد وفضائِلُه الجمَّةُ كلَّ ما قام به الامراء السابقون من أعمال جليلة ، كما يقول ابن خلدون .

و من آخر الامراء الكلبيين أحمد الأكحل الذي عهد بالحكم - بعد مدّة قصيرة من تولّيه الإمارة - لابنه جعفر . وهو شاب تنقصه الخبرة فانتهج سياسة خرقاء حتى تضايق منه الصقلّيون ومن مظالمه ، فولّوا وجوههم شطر القيروان مستنجدين بالمعز بن باديس الذي أرسل إلى صقلية ولديه فانضم إليهما أهل الجزيرة وقتلوا أحمد الاكحل سنة ٤٢٧ ه (١٠٣٤ م) . ولكن ما إن تمّ للصقليين ذلك حتى ندموا على ما فعلوا فشقوا عصا الطاعة في وجه الامراء الواردين من إفريقية وطردوهم وولّوا عليهم « صمصام الدولة » شقيق أحمد الاكحل المقتول . الا أن

مدّة صمصام الدولة لم تطل إذ سرعان ما دبّ الخـــلاف والشقاق بين الصقلّيين ، فثار أهل بلرم على صمصام الدولة وخلعوه. وجعلوا مكانه أحد قوّاد الثورة (محمد بن الثمنة ، القادر بالله) . الا أن مـدن مازرة وأطرابنش وقصريانَة أعلنت استقلالها عن بلرم . ودخلت الجـزيرة في عهد ملوك طوائف فتفاقمت معه الفتن وساد الوهن مِمّا هيّأ إلى تقلّـص ظل الاسلام عن جزيرة صقلية كما سنراه فيما بعد .

●

التنظيم الاداري لصقلية في العهد الاسلامي

بعد فتح صقلية عدل العرب الفاتحون عن الاجراءات الصارمة التي كانوا قد اتخذوها ـ في أول الأمر ـ ضدّ كلّ من تحدثه نفسه بالمقاومة فاهتموا بالتنظيم الداخلي للبلاد . إلاّ أنّ المؤرخين المسلمين لم يفيدونا بشيء في هذا الموضوع . والوثائق الوحيدة التي تمكّننا من التعرف على المؤسسات التي أقامها المسلمون بصقلية هي الاخبار التي نقلها لنا بعض من زار هذه الجزيرة فى ذلك العصر من الرّحالة ، أو المؤلفات النادرة التي كتبها المؤلفون الصقلّيون والتي سلمت من التَّلَف ، أو الكتب القليلة العدد التي أ ّلفت منذ ذلك العهد [1]

كانت الجزيرة ـ قبل الفتح الاسلامي ـ مقسمة إلى ولايتين : بلرم وسرقوسة . وبعد الفتح أصبحت تنقسم إلى ثلاث ولايات . تحتوي الأولى على القسم الغربي الجنوبي (وادي مازرة) ، والثانية على القسم الغربي الشمالي (وادي نوطس) ، والثالثة على القسم الشرقي

---

(١) يرجع الفضل الكبير في كتابة أهم الدراسات المتعلقة بتاريخ صقلية الاسلامية إلى المستشرق الكبير السنيور « ميكايل اماري » .

الشمالي (وادي الموني) . ويبدو أنّ هذا التقسيم أكثر ملاءمة لشكل الجزيرة المثلث .

وكان على رأس كلّ ولاية وال . والولاية مقسمة إلى عدّة « أعمال » يقوم بشؤون كل « عمالة » منها قائد [١] . وكان يقيم بكلّ ناحية قاضٍ يساعده كاتب محكمة . وكان يقيم ببلرم ـ التي كانت وما تزال عاصمة صقلية ـ مُفْتٍ للفصل في القضايا الهامّة .

أما الضرائب فكان يتولّى قبضها محتسبون يقيمون بجميع المدن يشرف عليهم وعلى جميع الشؤون المالية ديوان المحاسبة .

وبالرّغم من أن السكان المسيحيين كانوا يمثلون نصف سكان جزيرة صقلية فإن السياسة التي اتبعها إزاءهم الوُلاة المسلمون كانت تتصف بالتسامح طبقا لتعاليم الاسلام . وقد ظل مسيحيو صقلية راجعين بالنظر إلى القضاة الاغريق الذين احتفظوا ـ طيلة الحكم الاسلامي ـ بوظائفهم . وكانوا يدفعون ضريبة خفيفة يعبّر عنها بالخراج . وقيمتها ٤٨ دينارا في السنة بالنسبة للأغنياء و ٢٤ دينارا

---

(١) بقي هذا اللقب معمولا به فيما بعد ، حتى ان الاخباريين اللاّطين كانوا يلقبون كل مسلم يتقلد مناصب هامة في بلاط النرمان باسم « كايتوس / Caïtus » .

لمتوسطي الحال و ١٢ دينارا لمن يكسب عيشه بنفسه . وكانت هذه الضريبة ـ التي هي دون ما كان يفرضه البيزنطيون على الصقلّيين ـ لا تؤخذ من رجال الكنيسة والعجّز والنّساء والأطفال . ومقابل هذه الضريبة الخفيفة أمكن للمسيحيين أن يحافظوا على مؤسساتهم وقوانينهم المدنية والدينية وحرية القيام بشعائرهم الدينية . وقد روى الراهب الدومينيكي « كُرّادان / Corradin » ـ وكان رئيسا لدَيْر القدّيسة كاترينة ببلرم ـ أن الرهبان كانوا أحرارا في الخروج بأزيائهم الدينية ليناولوا المرضى القربانَ المقدس . وهكذا احترم العرب الفاتحون الحرية الشخصية لكل فرد من الافراد ـ مهما كان اعتقاده ـ وفقا للتسامح الذي جاء به الدين الاسلامي الحنيف . وقد قال الراهب « موروكُلّي / Maurocolli » أنه كان تُنصب في الحفلات العامة في مسّيني رايتان : إحداهما للمسلمين وهي خضراء اللّون وعليها صورة برج أسود ، والأُخرى للنصارى . وهي حمراء اللون وعليها صورة صليب مذّهب .

●

الرقي الاقتصـــــادي

الزراعـة :

بعد الحوادث الدامية التي مزّقت صقلية شرّ ممزّق طوال القرون، وبعد الغزوات المتوالية عليها فـإن جزيرة صقليـة لم تستـطـع أن تنهض من حـالة الانحطاط التي أصبحت عليهـا في ميـادين الزراعـة والصّناعة والتجارة إلاّ تحت ظل السيادة الاسلامية ؛ فنظرا لما تمتـاز به أرض صقلية من خصوبة التربة أقبل المسلمون ـ خاصة البربر منهم وهم يكـوّنون القسم الاعظـم من الفاتحـين ـ على الزراعـة التي حققت بفضلهم تقدما باهرا . وقد أدخلوا إلى الجزيرة زراعة الأرز والقطـن وقصب السكر ، وشجر البرتقال والتوت والفستق والنخيل ومختلف أنواع الزهــــور العاطـرة المستوردة من حـقـول الشام وإفريقيـة والأندلس . وقد روى لنا ابن حوقل أن حقول الحنطة والشعير كانت تغشّي أكبر قسم من الجزيرة كأنها رداء من ذهب .

وفي سبـيل خدمة الأرض حفروا القنوات التي ما تزال موجودة إلى يومنا هذا ، واستعملوا النّواعير والمجاري المعقوفـة الـتي كانت

مجهولة بأروبا في ذلك العصر . وقد استطاع العرب ـ بفضل كلّ ذلك ـ أن يُحْيُوا أقلَّ الأراضي خصوبة ، وأن يجعلوها مثمرة بصفة عجيبة.

الصناعة والتجارة :

أما فيما يتعلق بالصناعة فإن المسلمين استغلّوا أحسن استغلال جميع المواد الطبيعية التي تزخر بها خبايا الأرض الصقلية فاستخرجوا من المناجم الثرية النّحاس ، والفضة ، والذهب ، والرّخام ، والكبريت .

أما المنسوجات المطرّزة بالأحجار الكريمة ، والزرابي المُحلاة بالرسوم العديدة ، والجلود المزركشة ، والحليّ ذات النقوش البديعة المصنوعة بمعامل بلرم ومازرة فإنها لم تكن مشهورة فحسب ؛ بل كانت مطلوبة من قصور الشرق والغرب . كما أدخل المسلمون إلى صقلية صناعة الحرير ، وصبغ المنسوجات . وقد انتشرت من صقلية هذه الصناعات إلى جميع أصقاع أروبا . وفي متحف « نورَمبرق » يوجد إلى الآن الرّداء الفاخر الذي صنع بمناسبة تتويج « الكونت روجير ». وهو عنوان على براعة العملة المسلمين بصقلية في هذا النوع من الفن .

وإن جـداول المكوس التي أدرجت ضمن الاجازات التـجـارية العربية [١] لتكفي وحدها دلالة على ما بلغتـه التجـارة في صقلية من اتساع وازدهار . وهي التجارة التي كانت تربط بين صقلية وإفريقيـة والمشرق والأندلس . ولقد صـدق الم. « جيبهـار / Gebhart » عنـد ما كتب : [٢] « .. لقد أصبحت جزيرة « أمبيدوكل / Empédocle » العتيقة تحت أيدي المسلمين كأنها جنّة من جنات الشرق اليانعة بمدنها الثمانية عشرة ، وحصونها الثلاثمائة والعشرين ، ومعادنها المنتجة للذهب والفضة والنّحاس والكبريت ، وبما انتشر فوق أرضها من حقـــول الحبوب والكروم ، ومزارع القطن وقصب السكّر ، وحدائق النّخيل والبرتقال ، وبزهورها الزاهية ، وبمرابط الخيـول الجيـاد ، ومصانـع الأقمشة والحرير ، وبما كان فيها من قصور ومساجد » .

---

(١) بمتحف بلرمو ودير الكهف (Lacava) توجـد مجموعة ثمينة وهامة من المناشير العربية التي يرجع تاريخها إلى عهد السيادة الاسلاميـة على صقلية .

(٢) L'origine de la Renaisance en Italie

الحضـــارة الاسلامية بصقليـة

الفنون ـ المعـالم ـ العـلوم ـ نوابـغ الصقليين

إذا كانت المعلومات المتعلقـة بالموضوعات التى تحـدثنا عنهـا في الصفحات السابقـة تـكاد تكون معدومـة ، فإن الأمر ليس كذلك إذا أردنا التعرّف على ما وصلت إليه الحضارة الاسلامية بصقلية من تقـدّم ورقـــيّ .

وبالرّغم من أن المعالم العديدة الرّائعة التي وصفها الرّحالون الذين تجولوا بالجزيرة في القرن الرابع الهجري (العـاشر مسيحي) لم تُبْـقِ منها عوادي الأيام إلّا بعض الآثار ، فإنهـا تكفي لإعطائنـا فكرة عن روائع الفنّ الاسلامي البـديع ، والزخارف الطريفـــة ، والأروقة الأنيقة،والخزف المزركش، والرّخام الثمين، والنحت الرقيق المعروف بـ « نقش حديدة » ـ وبالجملة تعطينا فكرة عن كل ما اقتبسه المسلمون من الفنّ المعماري عن القيروان وقرطبة وبغـداد لتجميل مدينـة « طِنقرية / Tinacria » العتيقة .

ويقول السنيور ميكايل أماري : لم تَبْقَ اليوم في كامل الجزيرة عمارة على الحالة التي كانت عليها أيامَ السيادة الاسلامية . ومع ذلك فإن هذا العهد لم يكن عقيما مثل عهد الهيمنة البيزنطية من ناحية تقدّم الحضارة الصقلية . ولنذكر على سبيل المثال بلرم بسكانها البالغ عددهم 350 000 (١) نسمة ومساجدها الخمسمائة ، وقصورها العديدة ، ومساكنها المحاطة بالحدائق الغنّاء ، وأسواقها (٢) ومعاملها الثرية ، فإن هذه المدينة عندما زارها ابن حوقل حوالي سنة 362 هـ (972 م) كانت لا تضاهيها أية مدينة أخرى .

ومن أهم الآثار التي تركها المسلمون بصقلية قصر العزيز . وقصر جعفر (المقرّان الفاخران للامراء الكلبيين) والقبّة والمنصورية القصران البديعان اللذان تغنّى بهما الشاعر عبد الرحمان بن محمد

---

(١) حسب إحصاء سنة ١٩٠١ أصبحت بلرم تعد ٣١١ ٢٦٤ نسمة (×) أما إحصاء سنة ١٩٦٩ فهي تعدّ ٠٠٠ ٦٦٠ نسمة .

(٢) تجدر الملاحظة أنه يوجد ببلرم حي يدعى «العطارين - Attarini» وهو سوق العطارين الذي كان موجودا بصقلية في العصر الاسلامي على غرار الاسواق الموجودة بمدينة تونس وغيرها من المدن العربية .

البثيري [١] في قصيد يُعَدُّ من عيون الشعر نقتطف منه الأبيات الآتية:

وقصورُ منصوريّةٍ حطَّ السرورُ بها مطيَّهْ
أعجب بمنزلها الذي قد أكمل الرحمان ريّه
والملعب الزاهي على كلّ المباني الهندسيه
ورياضه الأُنُف التي عادت بها الدنيا زهيه
وأُسودُ شاذروانه تهمي مياهاً كوثريه
وكسا الربيعُ ربوعَها من حسنه حُللًا بهيه
وغدا يكلّلُ وجهَهَا بمصبّغات جوهريه
عطَّرْنَ أنفاس الصَّبا عند الصبيحة والعشيه [٢]

ولنخصَّ بالذكر هنا أيضا « قصر الفوّارة » البديع الواقع شرقيَّ بلرم ، والذي بقي موقعه إلى يومنا يحمل اسم « الفوّارة » . وقد تغنّى بجماله عبد الرحمان بن أبي العباس الأطرابنشي [٣] :

---

(١) نسبة إلى بلدة بثيرة الصقلية المولود بها عبد الرحمان بن محمد .

(٢) انظر خريدة القصر للاصفهاني قسم شعراء المغرب (١ : ٢٣ ، ٢٤) طبع تونس ١٩٦٦

(٣) نسبة إلى أطرابنش المولود بها .

فوّارة البَحْـرَيْن[١] جمّعتِ المُنى ... عيش يطيب ومنظـر يستعظـم
قُسِمَتْ مياهك في جداول تسعة ... يا حبّـذا جـريانهـا المـتقسّم
في ملتقى بَحْرَيْكِ معترك الهوى ... وعلى خليجك للغـرام مخيَّـمُ
لله بحـر النخلتين وما حـوى الـ ... ـبحرُ المشيدُ به المقام الأعظم
وكأنّ مـاءَ المفرغين وصفـوه ... دُرٌّ مـذابٌ والبسيطـة عَنْـدَمُ
وكأنّ أغصَان الرياض تطاولت ... ترنو إلى سَمَـكِ الميـاه وتبسم
والحوت يسبـح في صفاء مياهها ... والطّـيرُ بين رياضهـا يـترنّم
وكأنَّ نارنج الجزيرة إذ زها ... نـارٌ على قُضُبِ الزبرجد تضرم
وكأنّما الليمون صفـوة عاشق ... قد باتَ من ألَمَ النّـوى يتـألّم
والنخلتـان كعاشقين استخلصا ... حذر العِدَى حصنـا منيعـا منهمُ
أوريبَةٌ علقتهما فتطــاولا ... يستمحيان ظنون من يتوهَّمُ
يا نخلتَيْ بَحْرَيْ بـلرم سقيتـما ... صَوْبَ الحيا بتواصلٍ لا يُصْرَمُ
هنّئْتـما أَمنَ الزمـان ونلتمـا ... كلَّ الأمـاني والحـوادث نوَّم
بالله رفّـا واسْتُرا اهـل الهـوى ... فـبـأمن ظّـلكما الهوى يتحرّم
هذا العيان بـلا امتراء إنمـا ... سمع القيان زخارف تتـو هم[٢]

---

(١) يشير الشاعر بكلمـة « البحرين » الى خليج بلرم والى البركـة الصناعية التي تحيط بالجزيرة التي يقع بها قصر الفوّارة .

(٢×) انظر خريدة القصر للاصفهاني (١ : ٢٥، ٢٦)

صقلية الاسلاميـــة

تحت الحكم النّرمـــاني

ينقسم تاريخ المسلمين بصقلية إلى طورين كبيرين : يبتدىء الطور الأول ـ أعني العصر الاسلامي ـ مع الغزوات العربية الاولى ، وينتهي بالاستيلاء النّرمـاني على صقلية . أمـا الطور الثـاني ـ أعني الطـور الاسلامي النّرماني ـ فيبتدىء بعهـد « الكونت روجـار » وينـتهي بإجلاء المسلمين عن الجزيرة وذلك في مستهلّ عهـد أسرة « السواب / Souabe » .

وقد بـينّا فيما سبق أهمّ مراحل الفتـح الاسلامي ، والتقـدّمَ الذي حققه المسلمون بصقلية . بقي علينا الآن أن نتحدث عن الطور الثاني الزاهر الذي امتاز بروح التسامح الديني . كيف لا وهـو العصر الذي « اقتبس فيه رجل الشمال النرماني عن الرّجل المسلم فنونَه وعلومَه ، وحضارتَه التي كانت قد ازدهرت في بلاطات الخلفاء بالقاهرة وبغداد

وقرطبة ، وجلب له مقابل ذلك العوائد والتقاليد الاقطاعية التي سيتاثر بها العربي الصقلي حتى في لغته . »

إن الفتن الداخلية التي أضاعت الاندلس من أيدي المسلمين منذ بضعة قرون هي نفسها التي كانت سببا في زوال النفوذ الاسلامي من صقلية ؛ فقد انقسمت الجزيرة إلى عدة إمارات تكاد تكون مستقلة ونشبت الخلافات بين مختلف أمرائها . وتفاقم الأمر إلى درجة أن أحد أمراء صقلية «ابن الثمنة» قد انتهز فرصة خلافه مع أمير « قصر يانّة » فذهب يستنجد بزعيمين من زعماء النرمان هما : « روبير ڤيزڤار / Robert Guiscard » و « روجير / Roger » ابنا « طنكراد ديهوتفيل / Tansrede De Haute Villes » أمير قلورية ، وأكبردة . وما كان ينتظر هذان الأميران هذا النداء إلا ليستوليا على الجزيرة الاسلامية الكبرى. وهكذا عوض أن يعملا لفائدة من استنجد بهما أدركا أنه من الأجدى لهما أن يعملا لمصلحتها الخاصة ، سيما أن الظروف لتنفيذ رغبتهما كانت مواتية .

واذا كانت الحملة النرمانية الأولى التي انطلقت من « ميلتو / Mileto » لم تكلل بالنجاح المرجو ، فإن سقوط بلرمو سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) كان منذرا باحتلال كامل الجزيرة ما عدا بعض

القلاع الحصينة . وابتداء من تلك السنة أفل نجم المسلمين السياسي عن صقلية ، وان دام تأثيرهم الحضاري بعد ذلك زمنا طويلا .

* * *

عندما خضعت صقلية لسيطرة النرمان التامة ٤٨٤ هـ (١٠٩٠ م) كان يسكنها أربعة أجناس يختلف بعضها عن بعض . وهي الإغريق، العرب ، اللمبار ، اليهود . وكان لكلٍّ منهم لغته وشريعته المستمدة من البلاد التي ينتسبون اليها ؛ فالاغريق كانوا يعملون بقانون « جوستنيوس » والمسلمون يتبعون تعاليم القرآن ، واللمبار (من نرمان وبريطان) يعملون بقانون الفرنجة . وانه ليصعب علينا اليوم أن نتصور كيف أمكن في بلاد صغيرة مثل صقلية أن يتعايش هذا العدد الكبير من العناصر المتباينة ذات العادات واللغات المختلفة بدون اضطراب أو تناحر . فكان لابد من انتهاج سياسة تتحلى بروح العدل والانصاف والتسامح . وهو ما أدركه المسلمون منذ الاول كما أدركه أيضا من تولى الأمر بعدهم من المسيحيين في هذه الجزيرة .

* * *

لقد رأينا ما وصلت إليه صقلية من الازدهار . وقد أدرك الملوك النرمان سمو منزلة المسلمين ، فكانت لهم رغبة وحيدة هي الاستفادة من تلك المنزلة ، وذلك بالمحافظة على الجالية الاسلامية المستقرة في الجزيرة والتي كان يتالف منها ـ في حقيقة الأمر ـ العنصر الارستقراطي والثقافي والصناعي . وهكذا منح النرمان ثقتهم للمسلمين ، وبذلوا لهم الحماية والرعاية ٠ من ذلك أن رجار الثاني الذي يمكن اعتباره أكثر أمراء عصره علما وحنكة كوّن من المسلمين جيشا استخدمه بنجاح في غزواته ، كما عهد بقيادة أسطوله الى ضباط مسلمين. وعلى نفس المنهج سار خليفته غليوم الاول الذي يدعوه المؤرخون اللاطينون (غليوم الخبيث) وذلك لميله للمسلمين إذ كان يقلدهم ـ حسبما رواه ابن جبير [١] ـ أهم المناصب الحكومية والخطط الادارية « وهو كثير الثقة بالمسلمين » وقد كان المسلمون يقابلون عطفه عليهم باخلاصهم له . وقد أظهروا حزنا شديدا عند ما بلغهم نبأ وفاته . يقول « هوق فالكان / Hugue Falcand » وكانت سيدات أغنى الأسر

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣١٥

الاسلاميــة يطفن بالقصر نهـار مساء متدثرات بالاكياس،وقد تـدلت شعورهن وتعالت أصواتهن مدوية في الفضاء . »

* * *

ما أغرب المشهد الذي أصبح يمثله بلاط ملوك النرمان . فبعـد كل ما قدموه من مآثر تعيد الى الاذهان « فرسان المائدة المستديرة » استسلم أولائك المقاتلون الذين لا يبالون بالتعب الى حياة الدعة . يقول المسيو « دي سلان / De Slane » إنّ « كل شيء في ذلك البلاط يذكرّ بالعادات والتقاليد الشرقية من حجاب وغلمان وعبيد الى خصيان (سود وبيض) وقيان وعازفين ، ومن حـريم الى مراسم وتشريفات . ولم تكن اللغـة العربية لغة التخاطب فحسب ، بل كانت لغة الثقافة كذلـك . وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكي باللغة العربية ثم تنقـل الى اللاطيـنـية أو اليونانية كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفي .

وفي قصور صقلية الفخمة وحدائقها الغناء التي جمع فيها الامـراء الكلبيون أعلاق آسيا وإفريقيا وقف الشعراء العرب يمدحون ويمجدون

ملوك النصارى ، فاستمع الى هذه الابيات [١] من قصيدة طويلة نظمها ابن بشرون في مدح رجار الثاني صاحب صقلية :

لله منصورية	راقت ببهجتها البهيه
بوحوشها ومياهها الـ	ـغزر العيون الكوثريّه
فقد اكتست جناتها	من نبتها حُلَلًا بهيّه
غطّى عبير ترابها	بمدبجات سندسيّه
يهدي إليك نسيمها	أفواه طيب عنبريه
وبها « رجار » سما العلا	ملك الملوك القيصريه
في طيب عيش دائم	ومشاهد فيها شهيه

ولم يستنكف العلماء من التوجه الى بلاط ملوك النرمان مثلما كانوا يفعلون مع الامراء المسلمين إما للاقامة أو للتأليف . من ذلك أن الجغرافي الشهير : « الشريف الادريسي » استدعاه « رجار الثاني » الى بلرم ، فألّف له كتابه الذائع الصيت : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وهو الكتاب الذي ظل في أوربا مرجعا هاما في علم الجغرافيا الى أوائل القرن السادس عشر . وباشارة من هذا الأمير نفسه

× (١) انظر « خريدة القصر ـ قسم الشعراء المغرب » (١ : ٢٤)

نقش الشريف الادريسي خريطة العالم على كرة من الفضة وزنها ثمانمائة أوقية. وقد رسم عليها جميع البلدان التي كانت معروفة في ذلك الزمان . وبعد ذلك بمدة هاجر أبناء الفيلسوف ابن سينا وطنهم ، والتجأوا إلى بلاط « غليوم الثاني » فاستقبلهم استقبال من يعطف على العلوم والآداب والفنون . وبفضل ما تحلى به هؤلاء الامراء من حكمة وتسامح أصبح بلاطهم ببلرم ملتقى مثقفي المسلمين حتى أن أبا الفداء وابن جبير شبّها هذا البلاط ببلاط الخلفاء في بغداد وفي القاهرة .

ولأول مرة ـ منذ ظهور الاسلام ـ أصبحت صقلية التي نصف سكانها مسلمون ونصفها الآخر مسيحيون « هَمْزَةَ وصل بين الشرق والغرب ، وقد تحقّق فوق أديمها التآلف بين متساكنيها . ولو أن التآلف الصعب كثيرا ما تنفصم عراه إلا أن المصلحة المشتركة للامم تفرض انتصاره على أي شقاق إن عاجلا أو آجلا » إلاّ أنه من سوء الحظ فإن هذا الازدهار لم يدم إلا المدة التي كان فيها ملوك النصارى في حاجة إلى إعانة المسلمين . وما إن أصبحت الحاجة غير داعية الى ذلك حتى أقصوهم عن بلاطهم. وبعبارة أخرى تخلصوا من وصايتهم الأدبية التي أصبحت تحرجهم وتخدش من كرامتهم .ومع ذلك فقد أقام المسلمون بصقلية مدة أخرى . ولكن حالتهم لم تبق كما كانت من قبل

فقد نغص عيشهم تعصب أجوارهم النصارى حتى أن أثرياءهم اضطروا إلى الاحتماء ببعض «الاسياد» المسيحيين ليؤمّنوهم ضد ردود الفعل الشعبي.

وعندما تولت الحكم أسرة « السواب » سنة ١١٩٤ م ابتدأت أعمال الاضطهاد والتنكيل التي تشبه إلى حد بعيد الاعمال التي ذهب ضحيتها المسلمون بالاندلس ، فأصبح المسلمون يغادرون موطنهم صقلية آلافا مؤلفة متوجهين إلى البلاد الافريقية لاسيما تونس (١) ولم يبق منهم هنالك إلاّ من عجز عن الرحيل ، فأصبح معظمهم من العبيد يفلّحون الاراضي الشاسعة التابعة لاملاك التاج أو يرعون الاغنام التي على ملك أشراف الفرنجة ، وكثيرا ما كانوا يباعون أو يُسلمون مع الاراضي التي يعملون بها ، وقد قال أحد شعراء ذلك العصر وهو عبد الحليم الصقلي يصف سوء الحالة التي أصبحت عليها الجزيرة ،

عشقت صقلية يافعا ... وكانت كبعض جنان الخلود
فما قدر الوصل حتى اكتهلت ... وصارت جهنم ذات الوقود (٢)

---

(١) استقرت بعض هذه العائلات المهاجرة بالسواحل التونسية . وقد أضافت الى ألقابها أسماء المدن التي نزحت منها وفاء لذكر الوطن السليب ، مثل عائلة المازري (نسبة الى مازرة) والقطاني (نسبة إلى قطانية) الخ ..

(٢) خريدة القصر ، قسم شعراء المغرب (١ : ٢٢)

وبعد ذلك بمدة أعني في أواسط القـرن الثالث الميـلادي أصبحت عمادة أبناء النساء المسلمات إجبارية « ولو رغم إرادة أمهاتهم » وذلـك تطبيقا للتعليمات البابوية ، كما أصبـح ممنوعا منعا باتا على المسلمين حمـل أي نوع من السلاح . والانكى من ذلك « أنـه فرض على المسلمين أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيـج الأحمـر طولها شبر وعرضهـا اصبعان » للتمييز بينهم وبين النصـــارى . وهكـذا لم يبـق أمام المسلمين إلا الاستسلام أمام القوة الغاشمة، قدر من الله ولا راد لقضائه،

وبذلك انقطعت الروابط التي كانت تؤلـف بين شعبين مختلفـين أصلا وعادات ، ولكنهما استطاعا أن يعيشـا جنبـا إلى جنب حقبـة طويلة من الزمن في ظل سياسة التسامـح الديـني التي توخاهـا الامـراء العرب في أول الأمر ثم ملوك النرمان فيما بعد ، ومهما يكـن فقد نشـأ عن هذا الاختلاط بين الشرقيين والغربيين بصقلية امتزاج لم تزل آثاره بادية للعيان رغم توالي القرون وتعاقب العصور . وتلك حقيقة لايمكن أن يشك فيها كل من كلف نفسه عناء البحث عنها ،

* * *

تلك هي الخطوط العامة لتاريخ المسلمين بصقليـة ، وتلـك هـي

أيضا مـآثر « أولائـك الهمـج » (كـذا !) الذين وصفهم المؤرخـون اللاطينيون بأشنـع النعوت حتى أن هناك من اتهمهم بأ كل لحم الانسان بينما هم الذين جلبوا معهم إلى صقلية الخـير والحضارة ٠ وممـا لا شـك فيه أن تلك الحضارة لم تكن مضاهية للحضارات التي ازدهرت في ذلك العصر بمصر أو الاندلس ، ولكن من المتأكد أن الحالة التي ترك عليها المسلمون الجزيرة في الميادين الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصادية تفـوق بكثير الحالة التي وجدوها عليها عند ما فتحوها ، ذلك لان التأثير الحضاري لأي شعب من الشعوب يُقدَّر ـ كما يقول الدكتور غوستاف لوبون ـ بقيمـة التقـدم الذي حققـه ذلك الشعب بالنسبة الى الشعـب الآخر ٠

وعلى هذا الاساس يمكن القول : بان تأثير العـرب بصقليـة كان كبيرا ، بل إنه كان غير محدود ٠ ناهيك أنـه يعتبر من العوامل التي ساعدت على بعث حركة النهضة الايطاليـة التي انـتشرت في كافـة أصقاع أوربا الغربية خلال القرن الخامس عشر ٠

* * *

وإن المسافر الذي يتجول اليوم في ربوع تلك الجزيرة لا يكاد يصدق أن ثمانمائة سنة تفصله اليوم عن عهد الاستيلاء الاسلامي ، ففي كل خطوة يخطوها يشهد بأن الانسان الصقلي عربي الاصل من خلال نبراته الصوتية ، وقامته الهيفاء ، وعضلاته القوية ، وبشرته السمراء، وسواد عينيه وشعره . وفي كل مكان يتوقف فيه هذا المسافر يعلمهُ دليلُهُ - ولو مع شيء من التحريف - أن ذلك المكان يحمل اسم « منزل » أو « قصر » أو « قلعة » . وفي ذلك دليل قاطع على أن آثار الفتح الاسلامي بقيت - وستبقى - ماثلة للعيان على مر الزمان إلى أن يرث الله الارض وما عليها وهو خير الوارثين .

●

مشاهير علماء وأدباء صقلية :

أما فيما يتعلق بتقدم العلوم والآداب والفنون ـ وهو ما اختصت به جميع البلدان الاسلامية في العصور الوسطى ـ فإن صقلية تحتل مكانة مرموقة في هذا المجال . ومِمَّا لا شك فيه أن الخلافات بين الامراء والفتن الداخلية لم تسمح لصقلية بالوصول إلى ما وصلت إليه الأَندلس أَو مصر أَو العراق من مستوى رفيع في هذا الميدان . ورغم ذلك فقد نشأت هنالك طبقات من الأَطبّاء والفلكيين والفقهاء والحكماء ، والمؤرخين والجغرافيين الذين نالوا تشجيع الامراء المسلمين في أول الامر وأُمراء النرمان فيما بعد .

اما الشعراء ـ وعددهم لا يكاد يحصى ـ فقد أَبدعوا في الشعر ، ونظموا الموشحات التي لم تكن معهودة من قبل ، وحسب رأينا المتواضع فإن مُلهمة الشعر الصقلية لم تفقد شيئا من روعتها عندما أبدلت المِزهر الإغريقي بالعود العربي .

وَلْنُلْقِ نظرة ـ ولو وجيزة ـ على أولئك النّابغين الذين أَنجبتهم صقلية فإن ذلك كفيلٌ بتعرفنا ـ أكثر من أَيّ شيء آخر ـ على ما وصلت

إليه صقلية من ازدهـــار في ظل الاسلام رغم قصر المدّة التي قضاها المسلمون فيها . فمن أولئك النبغاء :

محمد بن يونس التميمي : ويلقّبُ بـ « الإمام الاكبر » وقد كان متبحّراً في علوم الشريعة وبقية العلوم الاخرى . وألّف كتابا جمع فيه أهمّ المسائل التي بحثـــها الامام مالـك بن انس ـ رضي الله عنـه ـ في « المدونة » [١] . توفى ابن يونس بمـازرة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) تاركا بَعْدَه جماعة من العلماء ممّن صاحبوه وأخذوا عنه .

عبد الرحمن بن الفحّام : المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ(١٠٣٠م) والمتـوفّى سنة ٥١٦هـ (١١٢٣م) . وهو من أشهر القرّاء البـارزين في ذلك العصر حسبما أخبرنا به أصحاب التراجم والطبقات[٢] وقد ترك تاليفا في القراءات السبع اسمــه « التجريد لبغية المريـد » ظـــل يستعمله طلبة المغرب الاسلامي عدّة قرون .

محمد بن ظفر الصقلي : الملقب بـ « حجة الدين وبرهان الاسلام » وذلك لتضلعه في الفقه . وكان في نفس الوقت مفسّراً، ولغويا ، ونحويا

× (١) في الأصل « الموطأ »

× (٢) انظر مثلا : غاية النهاية (١:٣٧٤) - وحسن المحاضرة (١:٤٩٠) طبع القاهرة (١٣٨٧ - ١٩٦٧).

وأديبا ممتـازا ، كما ألّف في الاخـلاق وأدب السلوك. ومن اهمّ كُتبـه كتاب « سلوان المطاع في عـدوان الاتبـاع » . وهو كتاب يبحث في السياسة ، كَتَبَهُ المؤلف لقائد من قُوّاد صقلية في سنة ٥٤٥ هـ(١١٥٩ م) ومن كُتُبه المشهورة أيضا كتاب « خير البِشَر بخير البَشَر » وتوفّى ابن ظفر سنة ٥٦٥ هـ (١٦١٩م). ويمكن القول بأنه إلى عَهْدِ ابن الجوزي لم ينتج مؤلف من المؤلفين المسلمين ما أنتجه ابن ظفر من الكتب .

وإلى جانب هؤلاء العلماء الافذاذ الذين أنجبتهم صقلية ينبغي أن نذكر :

محمد بن علي التميمي: المشهور بلقب «الإمام المازري» والمعروف بشرحه على « صحيح مسلم » وشرح « البرهان » لإمام الحرمين . وللإمام المازري تآليف كثيرة في الفقه والتوحيد والطب . وعند ما هاجر إلى إفريقية تولّى خطة القضاء بالقيروان والمهدية حيث توفّي سنة٥٣٦هـ (١١٤١ م). ونقل رفاته فيما بعد إلى مقبرة المنستير. و«تربته» يزورها الناس الى يومنا هذا . ومِمّن أخذ عنه بالاجازة القاضي عياض المشهور [١]

---

(١) انظر الدراسة التي كتبها عنه فيما بعد المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بعنوان « الامام المازري » نشر دار الكتب الشرقية .

ومما يذكر هنا من رجالات الصقلية علي بن جعفر بن القطّاع اللغوي الكبير، والمؤرخ وصاحب التراجم والشاعر. ولد ابن القطّاع سنة ٤٣٣هـ (١٠٢١ م) وتوفّي بمصر سنة ٥١٥ هـ (١٢٢١ م). وقد ألف كتابا عن تاريخ صقلية ، وهو مفقود الآن . كما ألّف كتابه « الدّرّة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة » جمع فيه البعض مما جادت به قريحة شعراء صقلية . أورد لنا شيئا من هذا الشعر العماد الاصفهاني في خريدته (١)

ومن مشاهير علماء صقلية أحمد بن عبد السلام الذي يتمتع في تونس بسمعة شعبية ويلقَّب فيها باسم « الطبيب الصقلي » وقد بلغت شهرته إلى أن الخليفة الفاطمي (٢) حثه على عدم مغادرته بلاطه. واعترافا لهذا الخليفة بالجميل فقد أهدى إليه أحمد بن عبد السلام كتابه الذي جعله دليلا للاطباء حول أمراض الانسان بداية من الرأس الى

× (١) انظر خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب ١ : ٣ - ١١٩)

× (٢) كذا بالنص الفرنسي . والمعروف أن أحمد بن عبد السلام توفي حوالي سنة ٨٢٠هـ وانه ألف للخليفة الحفصي (ابي فارس عبد العزيز) مختصرا في الطب بوّبه الى ثمانين بابا . انظر الضوء اللامع (١: ٣٤٧) وكشف الظنون (١ : ١٤١٢) .

أخمص القـدمين كما ألّف له كتاب « حفظ الصحة » . ويُوجـد لهـذا الطبيب بمكتبة الجـامع الاعظم بتـونس كتاب لم يسبق نشره في شرح أُرجوزة ابن سينا .

وما أكثر الاساطير التى تدور بتونس حول هذا الطبيب الشهير، حتى أن إحياء الاموات كان يعتبر لعبة صبيان بالنسبة إليه. وكلّ امرأة تزور مقبرة الزلّاج لا بدّ أن تقف أمام قبره وتتوجه إليه بالدعاء التالى: « يا طبيب السقلي داويـني بكُليّ » وهي معتقدة أنـه ستقـع استجـابة دعائها .

وقد أنجبت صقلية طبيبا آخر لا يقلّ شهرة عن الطبيب السالف الذكر وهو أبو سعيد الملقَّب بالمغربي الصقلي . ويذهب بعض مؤرخي العرب الى مقارنته بابن سينا وابن زهر. ولم يصلنا من كتبه إلاّ كتاب واحد في فنّ علاج الامراض

وفي ذلك العصر كان يعيش بصقلية عثمان بن بشرون ، ويلقّب في غالب الاحيان باسم « الـكاتب » . وقد أشاد بذكره العماد الاصفهاني في خريدته . وأورد عدّة مقتطفـات من كتابه « المختـار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » ، وقد ترجم في هذا الكتاب لعدد كبير من أدباء الاندلس والمغرب ، وخاصّة صقلية .

أما عبـد الجبار بن حمديس فيعتـبر من أبـدع شعراء المغـرب في عصره. وقد وُلِد ابن حمديس بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) واشتهر منذ شبابه بآثاره الشعرية. وعند استيلاء النرمان على صقلية هاجر إلى الاندلس حيث نزل ضيفا على الملك المعتمد بن عبّاد. وقـد لازمـه الى أن استولى المرابطون على إشبيلية.واستقرّ ابن حمديس في آخر حياته بجزيرة ميورقة الى أن وافاه الاجل سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) بعد أن كُفّ بصره وتجاوز الثمانين سنة . وكان ابن حمديس أعجوبة عصره . وقد قال عنه مترجموه : « إنه كان يغوص في بحر الفصاحة ليستخرج منـه دُرَرَ شعره النادرة » .

وقـد نشر ديوانـ شعـره من طرف «مونصادا / Monçada » في بلرم ومن طرف « سكيابرلّي Schiaparelli »[١] برومة وكان يترنّم في غالب أشعاره بذكر وطنه صقلية . من ذلك قوله :

ذكرتُ صقـــليَّةَ والأَسى ... يجـــدِّدُ للنفّس تَذكارَها

فإن كنتُ أُخرِجتُ من جنّةٍ ... فـــإني أحدِّثُ أَخبـــارَها

ولو لا ملوحة مـــاءِ البكا ... ء حسبتُ دمـوعيَ أنهارَهـا

× (١) وطبع في بيروت سنة (١٣٧٩ - ١٩٦٠) بتحقيق الاستـاذ إحسان عباس .

وهناك شاعر صقليّ آخر لا تقلّ فصاحته عن فصاحة بن حمديس ، وهو يمتاز بقريحةٍ لا حدّ لها ، ألا وهو الحسن بن علي الطوبي الذي قام برحلة كبيرة عبر بلدان المشرق · وعند رجوعه الى إفريقية اختاره المعز بن باديس الصّنهاجي ضمن حاشيته فأصبح يتغنّى بمفاخره · وقد ترك ابن الطّوبي عدَداً كبيراً من قصائد المديح · وكان المعزّ بن باديس يكرر كثيرا البيت الذي اشتهر به ابن الطوبي والذي يقول فيه :

وأغبط الماءَ حين ترشُفُهُ　　　إذا كان دوني مقبّلا فاها

ولنختم قائمة هؤلاء النّبغاء بذكر شاعر من شعراء صقلية اشتهر بشعره الغنائي هو علي بن عبد الرحمان بن أبي البشر الذي كانت موشحاته تنشر المرح والسرور في بلاط بلرم وحدائقها الغنّاء · ومن سوء الحظ فإنه لم يصلنا من تلك الموشحات إلا الموشح الذي ورد ذكره في خريدة القصر [1] منه هذا المقطع :

مانع غير مسعفِ　　　ليس يأبى نقض عهدي

وليس إلاّ السكوت

× (١) خريدة القصر قسم شعراء المغرب (١ : ٩) وقد اعتنى الاستاذ رزّيتانو بشعر ابن ابي البشر ونشره بالقاهرة سنة ١٦٦٨ م.

جـــائر غير منصـــف حال عمّا كان يبـــدي
إنـ الوصال بخوت

وتجدر الإشارة الى أن قائمة الأُدباء الذين أنجبتهم جزيرة صقليـة لا تقتصر على من ذكرناهم. فهناك طائفة أخرى من العلماء الذين لايقلون شهرة أو سمعة عمّن ذكرناهم مثل ابن الكتّاني الملَقّب بالنحوي الرقيق ، والفقيه عبد الرحمان الصقلي ومؤلّف كتاب «ألفاظ زهور الانوار»(١) والجغرافي ابن هامل ، والشاعر الهجّاء علي البلاّنوبي (٢) أصيل مدينـة «بلاّنوبة / Villanova » بصقلية الخ ..

× (١) ورد اسم هذا الكتاب في المكتبة العربية الصقلية صفحة ٦٢٨ اعتماداً على ما جاء في نسخة مخطوطة لندن « جواهر الالفاظ وظهور الانوار » وجاء اسمه في مخطوطة دار الكتب المصرية « الانوار في علم الاسرار ومقامات الابرار » . ويسمى عادة « أنوار الصقلي » . انظر إحسان عبـاس : العـرب في صقلية صفحة ١١٥.

× (٢) ان تطـور الدراسات الصقلية أثبت ان هـذا الشاعر وصاحب الموشح المذكور آنفا شخص واحد هو : أبو الحسن علي بن عبـد الرحمن بن أبي البشر الانصـاري البنّلوبي العروضي الكاتب . وقـد تحقق لدى الاستـاذ رزّيتانو انه كان يعيش بمصر بين سنتي ٤٥٠ - ٤٤٢ هـ . انظر رزّيتانو : مقدمة ديوان البنّلوني (٢ - ٧) وتـاريخ الادب العربي في صقلية (١٢١ - ١٢٥) وانظر إحسان عباس : العرب في صقلية (١٠ - ١١) .

وهكذا نرى أن بَلاط أمراء صقلية لا يمكن له أن يغبط بلاطات أمراء الشقيقات الكبرى مثل بغداد او القيروان او قرطبة، لانه لا يقلّ عنها فيما اشتهرت به من فخامة وبذخ ، وما كان حولها من رجال الادب والعلم وكبار الشعراء والادباء ٠

●

ثبت بالفصول المعرّبة

اسم المعرّب	عنوان النص بالعربية	عنوان النص بالفرنسية
البشير بن سلامة	العلاقات التونسية الايطالية في القرون الوسطى	LES RELATIONS ENTRE LA TUNISIE ET L'ITALIE AU MOYEN-AGE
حمادي الساحلي	الاستيلاء الاسلامي على صقلية	LA DOMINATION MUSULMANE EN SICILE
« «	ثورة الطنبذي : منعرج في تاريخ الاغالبة	UN TOURNANT DE L'HISTOIRE AGHLABITE L'INSURRECTION DE MANSOUR TOMBODHI SEIGNEUR DE LA MOHAMADIA
فرحات الدشراوي	بلاد قمودة في العصور الوسطى	LES STEPPES TUNISIENNES (REGION DE GAMMOUDA) PENDANT LE MOYEN-AGE
« «	عناصر الشعب التونسي وامتزاجها	COUP D'ŒIL GENERALE SUR LES RAPPORTS ETHNIQUES ETRANGERS EN TUNISIE
« «	مدائن اضمحلت من البلاد التونسية	VILLES ARABES DISPARUES
مصطفى زبيس	باجات افريقية	BADJA (ANTIQUE VAGA) BADJAT - AL-ZAYT BADJA - AL-KADIMA
« «	حول نقائش المنستير	LES INSCRIPTIONS ARABES DE MONASTIR

استــــدراك

وقع السهو عن بعض الهفوات المطبعية ، أو سقوط بعض الحروف أثنـاء الطبع ، لهذا نرجو من القارىء الكريم تدارك ذلك حسب الجدول التالي :

الخطـأ	الصواب	ص	السطر
أوجدتها	أو وجدتها	٩	١٧
الثمار	الغمار	٦٦	١٥
سيدة	سيدهْ	٧٨	١٦
تحركه	فحركه	٨٨	١٣
أ الى	إلى	٩٤	٦
لجنوب	الجنوب	٩٨	٢١
الثـالة	القالة	١٠٠	٧
عنـ	عنـد	١٠٠	١٤
أيـن	أي	١٠١	١٧
فى	فـى	١١٠	٣
سلبت	قلبت	١٢٥	٣
يـالواو	بالواو	١٢٩	١٠
وتححقيق	وتحقيق	١٤١	٤

الخطـأ	الصواب	ص	السطر
مجـأنة	مجـّانة	٢٠٣	٣
تجرد	تجـدد	٢١٣	١١
سلهان	سليمان	٢١٦	٦
حمـاس	وحمـاس	٢٢٤	٨
ألتعلقة	المتعلقة	٢٣٥	٦
الباحت	الباحث	٢٤٨	١٠
غهـد	عهـد	٢٥٦	١
بالاه	بالـــه	٢٧٨	٣
باهضة	باهظة	٢٩٠	١٥
الحرائر	الجزائر	٣٠٤	١٢
لمستعجله	المستعجلة	٣١٧	٢
لمؤلف	المؤلف	٣٩٧	٦

الفهارس

القسم الثالث من

ورقـــــات

عن

الحضارة العربية بافريقية التونسية

صنع هذه الفهـارس ورتبها :

محمد المرزوقي

١ — فهرس الاعلام

« ث »

« ج »

« ح »

« ش »

« ص »

٢ ـ فهرس القبائل والفرق

« ر »

« ز »

« س »

« ش »

« ص »

« ط »

« ع »

« ف »

« ق »

« ك »

٣ ـ فهرس البلدان والمعالم

« ب »

« ج »

« ح »

« س »

« ك »

« ل »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

٤ — فهرس الكتب

« ب »

« ت »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ذ »

« ر »

كتب اجنبيـــة

« مرتبة على حسب ورودها في الكتاب »

ص

٥ ــ فهـــرس القوافي

القافية	الشاعـر	عدد الابيات	الصفحة
صوابْ	خالد بن حمزة	٨	١١٠ ـ ١١١
يكتبُ	علي التجاني	٢	١٥٤
معذبْ	حسن الكاف	١٢	١٤١ ـ ١٤٢
سحابَه	محمد زغبيب	١٢ (مربعـة)	١١٨ ـ ١١٩
شاعبه	الشريف بركات	٤	١٣٦
السكوتُ	ابن ابي البشر	غصنان من موشح	٤٧٤ ـ ٤٧٥
لاحْ	بدران الهلالي	٤	٩٦ ـ ٩٧
تبكيـحْ	احد المالطيين	٢	١٢٥
المليـحُ	عماد الدين الاصفهاني	٤	٢٥٤
الخلودْ	عبد الحليم الصقلي	٢	٤٦٤
بعيـدْ	. . . .	٢	٩٩
تصعيدِ	ابن ابي الحسين ، الحـاجب	١	٧٥
همايدَه	الجازية الهلالية	٣	٩٥
مرورُها	محمد العوني	٤	١٣٦ ـ ١٣٧
تذكارَها	ابن حمديس	٣	٤٧٣
المواطـرِ	ابن ابي الحسين ، الحاجب	٤٦	٧٩ ـ ٨٤
ضوامـرِ	عنان بن جابر	٤٢	٨٥ ـ ٩١

القافية	الشاعر	عدد الابيات	الصفحة
عنبرِ	ابو الفضل التجاني	٦	١٥٨
حوا ْرها	عنان بن جابر	٤	٩٤
العصفور	أحد المالطيين	٢	١٢٦
طاير	شاعر ليبي (١)	٣، ٢/ ١	١٣٤
يستشير	. . . .	٦	١٤٢
درسا	ابن الابار	١	١٥٣
نرجس	ابن شبرين	٣	١٨١ - ١٨٢
جامعْ	محسن الهزاني	٢	١٣٤ - ١٣٥
ميعي	احد المالطيين	٢	١٢٤
خليقَه	منصور العلاقي	٤ (ادوار)	١٢١ - ١٢٢
تاقْ	بلقاسم الورشفاني	٢٥	١١٥ - ١١٧
الابلُ	محمد بن احمد التجاني	٤	١٦١ - ١٦٢
ترسلُ	ابن الخطيب	١	١٢٦
فعلـُوا	. . . .	١	٢١٠
سلالَـها	محمد العوني	٤	١٣٦ - ١٣٧
الوصيلة	شاعر ليبي (٢)	٤ (مقاطع)	١٣٢ - ١٣٣

(١) عرف من قصيد من نوع السوقة ، ويلاحظ ان فيه غلطا فى النقل ،

(٢) مسدس

القافية	الشاعر	عدد الابيات	الصفحة
القلّه	شاعر ليبي (١)	١ (مقطوع)	١٣٣ - ١٣٤
منزلِ	حازم القرطاجني	٣	١٥٤
الاجلالِ	....	١	١٩٣
اكتمُ	زينب التجانية	٢	١٥٥
أراقمُ	« «	٣	١٥٦
يستعظم	عبد الرحمان الاطرابنشي	١٥	٤٤٤
نظام	علي بن عمر بن ابراهيم	١١	١١١ - ١١٢
ظامي	أحمد بن عروس	٢	٩٩
الكلام	....	١	٢١٨
تبريمَه	شاعر ليبي (٢)	١	١٣٢
منامُها	سلطان بن مظفر	٢٤	١٠٩ - ١١٠
الفمْ	منصور العلاقي	٥ (مسدس)	١١٩ - ١٢٠
سكانُ	....	٢	٣٥٥
الاديان	المعري	١	١٧٩
حنّا	....	٢	٩٨
مزوتها	الربيع الدويخي	١٦	١٣٩ - ١٤١
تيجان	....	١	١٧٧
فاها	ابن الطوبي	١	٤٧٤
تفشيه	عمر التجاني	٢	١٥٧
مطيّه	عبد الرحمان البشيري	٨	٤٥٥
البهيّه	ابن بشرون	٧	٤٦٢

(١) من نوع العرضاوي ، ذكرت اللازمة بعد المقطوع .

(٢) لازمة من نوع العرضاوي .

٦ — فهرس الموضوعات

ص	الموضـــوع

السند العلمي الاسلامي بافريقيا

ص	الموضـــوع

ص	الموضـــوع

ص	الموضوع

عناصر الشعب التونسي وامتزاجها

ص	الموضـــوع

من معالم افريقيـــة

تاريـخ صقلية الاسلاميـــة

الفهـــارس